

كتابى
٣٧
تأليف : ستيفان زفايج
ترجمة : حلمى مراد
حذار من الشفقة
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد

حذار من الشفقة

تأليـف : ستيفان زفايج
ترجمة : حلمى مراد



شخصيات الرواية

الملازم انطون هوفميلر	Anton Hofmiller
هر فون كيكسفالفا	Herr Von Kekesfalva
اديث فون كيكسفالفا (آنسة)	Edith Von Kekesfalva
ايلونا (آنسة)	Ilona
دكتور كوندور (طبيب)	Dr. Emmerich Condor
ليوبولد كانيتز	Leopold Kanitz
الأميرة أوروزفار	Princess Orosvar
آنيت بيات ديتزينهوف	Annette Beate Dietzenhof
البروفيسور فيينو	Professor Viennot
جوزيف	Josef
تونى	Toni
جوسى	Jozsi
فيرينز	Ferencz
دكتور جولد باوم	Dr. Goldbaum
بالينكاى	Balinkay

* * *

مقدمة المؤلف

ليس هناك ما هو أبعد عن الحقيقة ، من الظن السائد بأن خيال الروائى دائب النشاط فى رأسه ، وأن قدرته على الخلق والابتكار لها رصيد من القصص لا ينفد ، ومعين من الحوادث لا ينضب .. فالواقع أن كاتب القصة ليس فى حاجة إلى أن يبحث عن موضوع لها ، بقدر حاجته إلى ان يدع الشخصيات والوقائع تبحث عن هذا الموضوع ، كما تفعل دائما إذا ما توافرت للمؤلف ملكة الملاحظة والإصغاء !.. فهى تسعى إليه من تلقاء نفسها ، باعتباره وسيلتها إلى الذيوع والانتشار .. وهكذا يحدث أن يفضى الكثيرون بقصصهم — طائعين — إلى الشخص الذى طالما حاول أن يتعقب مصائر البشر !

والقصة التالية قد رويت لى باكملها تقريبا فى القالب الذى اقدمها به هنا : ففى ذات ليلة — خلال فترة إقامتى الأخيرة بمدينة « فيينا » — شعرت بالتعب ، فى أعقاب يوم حافل بالعمل ، فمضيت إلى مطعم فى ضواحى المدينة خيل إلى أنه فقد — منذ أمد — جدته وشهرته ، وقل الإقبال عليه . لكنى لم أكد أخطو إلى داخله ، حتى تبينت على الفور خطأ هذا الظن ، فقد خف إلى تحيتى شخص ممن أعرفهم ، وعلى وجهه علائم السرور والبهجة ، ثم دعانى إلى الجلوس معه !.. غير انى لم أستجب لتحيته ودعوته بمثل حماسته .

www.dvd4arab.com

ولست ازعم انه كان مخلوقا بغيضا ، يضيق المرء بصحبته — فالواقع أنه كان من ذوى النفوس المحبة للأنس والمخالطة .. أو ، بعبارة أخرى ، من أولئك الذين «يجمعون» الأصدقاء الجدد بمثل المثابرة والحماسة اللتين يجمع بهما الأطفال طوابع البريد ، ويفخرون بكل نموذج يضيفونه إلى مجموعاتهم ، سيما إذا كان نموذجا نادرا أو مشهورا !

والذين يعرفون شخصا من هذا الطراز يلمسون طيبة قلبه ، وحرصه على إدخال السرور على نفوس أفراد « مجموعته » . ومن ثم يقدرون مدى « القسوة » التى ينطوى عليها عدم الاستجابة لحفاوته وترحيبه . وهكذا استسلمت لقدرى ، وجلست إلى جوار صاحبى . وانقضى نحو ربع ساعة فى ثرثرة تافهة ، ثم دخل المطعم رجل طويل القامة ، يصدم الناظر إليه مبلغ التناقض بين الشباب النضير الذى يلوح على طلعته وبشرته ، والشيب المبكر الذى ألم بعارضيه ! .. وكان فى مشيته طابع ينم على أنه « ضابط سابق » . ولم يكد جارى يلمحه ، حتى هب يحييه فى لهفة — بإشارة من يده — فرد له الرجل التحية فى فتور وعدم اهتمام ، ثم جلس إلى مائدة غير بعيدة ..

.. ومال جليسى على أذنى هامسا : « أتعرف من يكون ؟ ». فأجبته فى اقتضاب ، كى أتجنب إسهابه فى الإيضاح : « كلا ! » .. ثم انهمكت فى تشريح قطعة اللحم التى أمامى . لكن « بلادتى » هذه ضاعفت من حماسة صاحبى « صياد الشخصيات » ، فوضع يده على فمه وهمس بصوت

خافت : « كيف ؟ إنه « هوفميلر » موظف القوميسيرية ، ذاك الذى فاز بوسام (ماريا تريزا) لحسن بلائه فى الحرب » .

وإذ رأى محدثى أن هذه المعلومات لم تثر انفعالى كما قدر ، اندفع يصف لى جانبا من الأفعال الباهرة التى أداها الكابتن هوفميلر فى الحرب ، والتى لا أرى معنى لتصديع راس القارىء بتفصيلاتها ، فلم يسعنى إلا أن التفت فى حركة غير إرادية إلى ذلك « البطل » المقصود بالحديث ، وإذا به قد ارتسمت على وجهه نظرة سخط صارمة ، ثم أدار مقعده بحيث أعطانا ظهره فى حركة عدائية ، فشعرت بشىء من الخزى ، وما لبثت قليلا حتى استأذنت محدثى الثرثار فى الانصراف .. وفيما أنا أغادر المطعم ، لمحته ينتقل إلى مائدة بطله المرموق ، كى يرسم له — ولا شك — صورة لامعة عنى مثلما رسم لى عنه !

.. وكان يمكن أن أنسى كل شىء عن هذا اللقاء العابر بالضابط السابق ، لولا أن شاءت المصادفة أن أجد نفسى وإياه وجها لوجه ، فى حفلة صغيرة حضرتها فى الليلة التالية !.. وبدا لى — فى ثياب السهرة — أكثر أناقة ووجاهة منه فى سترته العادية التى كان يرتديها فى الليلة السابقة .

ووجد كلانا بعض الصعوبة فى قمع ابتسامة خفيفة سعت إلى شفاهنا فى وقت واحد : تلك الابتسامة ، ذات المعنى ، التى يتبادلها — فى مكان عامر بالناس — شخصان يتقاسمان سرا خفيا !.. لقد عرفنى هو ، كما عرفته . لكن كلا منا تجنب التحدث مع الآخر . ولو حاولنا ذلك لتعذر علينا الأمر فى تلك

Looloo www.dvd4arab.com

الساعة ، فان نقاشا حاميا كان محتدما حولنا . ويستطيع القارىء أن يستنتج موضوع ذلك النقاش ، لو علم ان تاريخ هذه الحادثة يرجع إلى سنة ١٩٣٧ ، حين كان كل حديث يجرى فى أى بلد من بلاد أوربا الحائرة لا يكاد يخرج عن موضوع واحد ، هو : الحرب العالمية الجديدة ، وهل نشوبها محتمل أو غير محتمل ؟!

وبدأ مضيفنا المناقشة — وهو محام معتز برايه — فسخر من فكرة احتمال نشوب الحرب ، فى جيل لم ينس أبناؤه اهوال الحروب السابقة .. وضايقتنى هذه المغالاة فى استبعاد خطر الحرب ، فاعلنت رأيى المضاد — فى حزم وقوة — قائلا : « انه لا ينبغى ترك الرغبة تتحكم فى الفكرة ، والأمنية تغير الأمر الواقع . فلا شك أنه فى اللحظة التى يذاع فيها نبأ التعبئة العامة ، لن يجرؤ معارض على رفع صوته ، ولا يعود لحياة الإنسان — المخلوق من التراب — أى قيمة أو وزن فى اعتبار الحكام والساسة » .

وانحاز الحاضرون جميعا إلى الرأى الأول ، المضاد لرأيى ، انصياعا لتأثير غريزة خداع النفس التى تجعل البشر يحاولون أن ينفوا من أذهانهم المخاطر التى يحسون بوجودها فى أعماقهم ، فضلا عن أن تحذيرا كالذى جاهرت به ، ضد التفاؤل الرخيص السائد ، كان خليقا الا يلقى ترحيبا فى وقت كان فيه عشاء شهى فاخر معدا فى انتظارنا ، فى الحجرة المجاورة !.. وادهشنى أن فوجئت فى تلك اللحظة بتدخل الضابط السابق فى النقاش ، مؤيدا رايى بقوله : « إن إرادة

الشعوب لن يكون لها وزن فى ترجيح كفة الاشتباك فى حرب أو الإحجام عنها ، وإن النصيب الأكبر من القتال فى الحرب القادمة سوف يكون نصيب الآلات . ولن يكون الإنسان أكثر من جزء من أجزاء تلك الآلات ، ومتى نشبت الحرب فسوف يندفع إلى القتال عشرات ومئات الألوف من الرجال ، إما هربا من انفسهم وظروفهم السيئة ، وإما خوفا من معارضة التيار الجارف والتصدى له ! » .

ثم أضاف الكابتن هوفميلر إلى ذلك قوله : « إن اللون الوحيد من الشجاعة الذى صادفنى فى الحرب هو شجاعة الجماعات ، تلك الشجاعة التى تنبع من شعور الشخص بأنه واحد من قطيع جرار ، وهى شجاعة تتألف من عناصر عجيبة مختلطة ، منها الغرور ، والاستهتار ، والضجر .. ومنها ، قبل ذلك كله : الخوف من التخلف عن موكب المحاربين ، والخوف من سخرية الناس ، أو الخوف من اتخاذ موقف مخالف لموقف المجموع ، ولحماسة الزملاء والإخوان !.. ولم أدرك إلا فيما بعد ، عقب تسريحى من الجيش وعودتى إلى الحياة المدنية ، أن الكثيرين من الذين اشتهروا بأنهم من اشجع المحاربين فى الميدان ، كانت بطولتهم موضع شك .. ولست استثنى منهم نفسى ! » .

واعجبتنى طريقته فى الكلام ، وكدت أتقدم لأحييه ، ولكن مضيفنا دعانا إلى قاعة الطعام ، حيث أجلسنا فى مقعدين متباعدين .. وهكذا لم تتح فرصة اللقاء إلا بعد انفضاض الحفلة ، فى حجرة المعاطف « الأمانات » حيث بادرنى قائلا

www.dvd4arab.com

وهو يبتسم : « أعتقد ان صديقنا المشترك قد تولى تقديمنا — بصفة غير مباشرة — أحدنا إلى الآخر » .. فأجبته بعبارة مناسبة ، وانا ابتسم بدورى .. وعندئذ أردف قائلا : « يخيل إلى انه قد خلق منى « بطلا » .. فانه جد فخور بوسامى ، كما هو فخور بكتبك ! » .

ثم خرجنا معا . وفى أثناء سيرنا التفت إلى فجأة قائلا :

« صدقنى .. إنى لا أغالى إذا قلت إن شيئا لم يثقل على صدرى ويضايقنى خلال السنوات الأخيرة مثل وسام (ماريا تريزا) هذا الذى أحمله !.. صحيح أنى فرحت به حين منحته — من فرط ما سمعت عنه أثناء دراستى الحربية ، مما يدخله فى باب الأساطير — وصحيح انه لا يمنح لأكثر من اثنى عشر شخصا فى كل حرب .. وأننى يوم منحته كنت شابا فى الثامنة والعشرين ، ووقفت — مرموقا من الفرقة بأسرها — وهو يلمع على صدرى كالشمس الصغيرة ، وصاحب الجلالة الإمبراطور يهز يدى مصافحا مهنئا !.. لكن هذه الأوسمة الحربية تنتهى نشوتها بانتهاء الحرب .. وبالفعل ، بدا لى من السخف — بعد استقرار السلام — ان أظل طيلة حياتى مكللا بالغار ، باعتبارى بطلا ، لا لشىء إلا لأنى فى مناسبة ما تصرفت تصرفا ينطوى على الشجاعة لمدة عشرين دقيقة ، وقد لا اكون فعلت اكثر مما فعل آلاف غيرى من المحاربين ، وإنما كان من حسن حظى أن تنبه الرؤساء إلى صنيعى ، كما كان من حسن حظى أن عدت من الحرب حيا !

« .. ولكن لم ينقض على ذلك عام حتى كنت قد ضقت

ذرعا بنظرات الفضول التى يرمق بها الناس الوسام المعلق على صدرى ، ثم ينتقلون بها — إمعانا فى الإعجاب — إلى وجهى ! .. وقد كان حنقى عليهم ، من أجل هذا ، أحد الأسباب التى جعلتنى أترك الجيش عند نهاية الحرب كى اعود إلى الحياة المدنية » .

وسكت قليلا ، ثم استأنف كلامه فقال : « اما السبب الرئيسى الذى دفعنى إلى اتخاذ تلك الخطوة فقد يكون اولى بتقديرك : ذلك اننى انا نفسى صرت انظر إلى بطولتى المزعومة نظرة تشكك ، فقد كنت أعرف الناس بأن الرجل الذى ظفر بهذا الوسام هو ابعد ما يكون عن استحقاق لقب البطل ، بل لعله يستحق عكسه تماما ! إننى لم أكن غير واحد من أولئك الذين هرعوا إلى الحرب كى ينجو بأنفسهم من موقف تعس ، وهكذا بدت لى حياتى وسط « هالة من المجد » ، حياة غير طبيعية ، ولا تكاد تطاق .. حتى لقد تنفست الصعداء حين اعفيت من ان أسير فى الطريق حاملا دليل بطولتى محفورا على سترتى الرسمية !.. وما يزال يضايقنى إلى اليوم أن ينبش الناس ماضى المجيد ، فيرمقوننى بتلك النظرة المفعمة خشوعا وإعجابا ، كما رمقتنى انت حين أشار صديقك إلى بالأمس . انك لا تستطيع تصور مبلغ الحنق الذى تملكنى إذ ذاك ، حتى لقد فكرت فى ان اجبرك على أن تسمع من شفتى مدى العذاب الذى تكبدته ، فداحة الضريبة التى دفعتها ، ثمنا لتلك البطولة المزعومة !.. إنها قصة غريبة للغاية ، تظهر كيف أن الشجاعة كثيرا ما تكون ضعفا وجبنا !.. وليس يضيرنى أن

Looloo www.dvd4arab.com

أقصها عليك الآن ، فان الجـرح الذى يرجع تاريخه إلى ربع قرن مضى لا يعود ملمسه حساسا .. فهل لديك الوقت ؟.. وهل لا يضجرك الأمر ؟ » .

وقد كان لدى الوقت والصبر .. فمضينا نذرع الشوارع ، التى بدت مهجـورة فى تلك السـاعة المتأخرة من الليـل ، وصـاحبى ماض فى سرد قصـته هـذه .. ولست فى حاجة إلى القول بأنها استغرقت أكثر من حديث واحـد .. كمـا تغنينى فطنة القارىء عن الإشارة إلى أنى لم أدخل عليهـا غير بضع تغييرات تافهة ، أقتضتها ضرورة إخفاء شخصيات أبطالها ، ومعالم الأمكنة التى جرت فيها وقائعها .. أما فيما عدا ذلك فلست أنا ــ بل بطل القصة الفعلى ــ الذى يرويها فيما يلى :

ستيفان زفايج

الفصل الأول

تعـــارف

بدأ الأمر كله بهفوة من جانبى ، سقطة خرقاء غير مقصودة .. ثم تلت ذلك محاولة لإعـادة الأمـور إلى نصابها . لكنك لو حاولت أن تصلح ساعتك فى عجلة زائدة ، فانك خليق أن تزيد حالتها اضطرابا وفسادا !.. وإنى حتى اليوم ، وقـد انقضت على الأمر أعوام ، ما زلت عاجزا عن أن أقرر جازما : متى وأين كان الحـد الفاصـل بين حماقتى غير المقصودة ، وفعلتى الآثمة !.. وأغلب ظنى اننى لن أهتدى قط إلى يقين يخلصنى من حيرتى هذه !

كنت وقتئذ فى الخامسة والعشرين ، أعمل ضابطا برتبـة « ملازم ثان » فى فرقة (...) بجيش الإمبراطور . ولست أزعم بأننى كنت يوما شغوفا بالجندية ، أو مؤمنا بأنها مستقبلى المرسوم ، ولكنك حين تكون واحـدا من أربعـة أولاد ذوى شهية ضارية ، وبنتين ، فى أسرة ضابط نمسـوى لا يملك ما يكاد يقـوم بأودهم ، فإنك لن تلوم أباك إذا لم يعبأ كثيرا بنوع المهنة التى يختارها لك ، فالقى بك إلى أية مهنة تخلصه من الانفاق عليك !.. وهكذا اختار أبى لأخى الأكبر ، الذى كان ضعيف البصر ، مدرسة اللاهوت .. بينما قذف بى ، أنا القوى البنية ، إلى الكلية الحربية ، حيث تتكفل الدولة بكل شىء لمدة سنوات ، حتى تخرج الفتى المراهق ضابطا ذا شارب وقور ، ثم تسلمه إلى الجيش « معدا للاستعمال » .

Looloo
www.dvd4arab.com

وهكذا جاء اليوم الذى تخرجت فيه فى الكلية — وكان يوم عيد ميلاد الإمبراطور ، كما جرت التقاليد — ولم أكن قد أكملت بعد عامى الثامن عشر .. وبعد فترة وجيزة لمعت على سترتى النجمة الأولى ، وصار لى مرتب ، إلى جانب الرتبة !

وفى نوفمبر من عام ١٩١٣ — الذى تبدأ فيه حوادث هذه القصة — صدر الأمر بانتقال فرقتنا من بلدة (ياروسلو) إلى بلدة صغيرة أخرى على الحدود الهنغارية ، لا يهم ذكر اسمها ، فإن الزرين فى السترة الواحدة لا يمكن أن يتشابها أكثر من تشابه قرى الريف النمسوى (التى تعسكر فيها فرق الجيش) ، الواحدة بالأخرى .. ففى كل منها ما فى الأخرى من مؤسسات عسكرية، وثكنات للجنود، ومدرسة للفروسية، وساحة للاستعراض ، ومطعم للضباط ، يضاف إلى ذلك ثلاثة فنادق ، ومقهيان ، وحانوت للحلوى ، وحانة للخمر ، وصالة موسيقى قذرة فيها بضع نسوة رخيصات يقسمن أنفسهن بالعدل والقسطاس بين رواد الصالة من الضباط والمدنيين . وأينما حل العسكريون فى معسكرات الأقاليم تكون حياتهم نهبا للملل والسآمة والتشابه الرتيب ، سواء فى أوقات عملهم أو فراغهم . ففى « ميس » الضباط تجد الوجوه نفسها ، والأحاديث نفسها !.. وفى المقهى تجد ألعاب الورق والبلياردو وما إليها ، هى هى فى كل حين !

على أن القرية التى عسكرنا فيها هذه المرة كانت تمتاز عن سابقتها بميزة كبيرة ، هى وقوف القطارات السريعة بمحطتها الصغيرة ، القريبة من (فيينا) ومن (بودابست)

فى وقت واحد ، بحيث يستطيع كل من يملك مالا — وما أكثر أبناء الأغنياء فى سلاح الفرسان — أن يستقل قطار الساعة الخامسة مساء إلى فيينا ثم يعود فى قطار الثانية صباحا ، وهى فترة تكفى لأن يذهب إلى المسرح أو يتسكع فى حى (رنجستراس) ، أو يستمتع باحدى مغامرات الهوى العابرة !.. بل إن بعض الزملاء كان له حظ استئجار مسكن دائم فى العاصمة لمثل هذه الأغراض !

على أن هذه الرحلات المروحة عن النفس كانت فوق طاقة إيرادى الشهرى ، لسوء الحظ ، فلم يكن فى استطاعتى غير ارتياد المقهى أو حانوت الحلوى ، ولعب البلياردو أو الألعاب الأرخص منها كالشطرنج .. أما ألعاب الورق فكانت باهظة التكاليف ، فلم يكن لى بد من تجنبها !

وفى ذات مساء — حوالى منتصف مايو سنة ١٩١٤ — كنت جالسا فى حانوت الحلوى مع صيدلى القرية ونائب العمدة ، وكنا قد فرغنا من مبارياتنا الثلاث التقليدية فى الشطرنج ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . لكن حديثنا كان قد بدأ يفتر ويتباعد ، كما يتضاءل عقب السيجارة ! وفجأة فتح الباب ودلفت منه لفحة هواء ، أعقبتها فتاة جميلة سمراء ، ذات عينين لوزيتين ، ترتدى ثوبا أنيقا لا يدع مجالا للشك فى أنها من غير سكان الأقاليم !

كانت « وجها جديدا » بالنسبة لنا فى ذلك المنفى اللعين ، لكنها لم تتعطف علينا بنظرة حين رفعنا أعيننا نحوها فى إعجاب ورهبة ، وإنما سارت فى خطى رشيقة عبر الموائد ،

Looloo
www.dvd4arab.com

متجهة رأسا إلى صاحب المحل . وهناك راحت توصى على كميات كبيرة من أصناف الحلوى وزجاجات « الليكير » والمشروبات الفاتحة للشهية .. وأدهشتنى الطريقة التى انحنى بها الرجل لها تأدبا واحتراما ، فضلا عن نهوض زوجته من مقعدها خلف الخزانة ومسارعتها إليها لتتلقى توصياتها وهى تكاد تذوب توقيرا .. وطبعا لم تحمل الشابة الفاتنة بيديها الجميلتين شيئا من المشروبات ، ولا دار بخاطرها أن تدفع الثمن نقدا كما يفعل أمثالنا .. فأدركنا توا أنها ولا شك عميلة ممتازة ، رفيعة المقام !

وحين همت بالانصراف ، خف « هر جروسماير » ليفتح لها الباب ، كما نهض صديقى الصيدلى وانحنى تحية لها وهى مارة بنا ، فردت له التحية فى جلال فاتن !.. يا لله ! ما أجمل رقعتى القطيفة السمراء المدعوتين عينيها ! وانتظرت فى صبر نافد حتى خرجت محملة بتحيات الوداع المعسولة ، ثم انهلت على صاحبى الصيدلى استفسارا عن هذه « البجعة » الممتازة فى بركة « البط » التى تعيش فيها ، فهتف لى قائلا فى دهشة : « أتعنى أنك لا تعرفها ؟ أنها ابنة أخت الهر فون كيكسفالفا .. أنت تعرف طبعا أسرة كيكسفالفا ؟ » .

وقد ألقى إلى بالاسم وكأنه يلقى قطعة نقود ذات رنين فضى أو ذهبى ، متوقعا أن أجيبه بالايجاب .. فلما ذكرت له أنى حديث عهد بالنقل إلى البلدة ، اندفع يفيض فى امدادى بالمعلومات عن الأسرة الكبيرة صاحبة ذلك الاسم المرموق ، فقال إن الهر كيكسفالفا أغنى رجل فى المنطقة ، ويكاد يمتلك

كل شىء فيها !.. وهو إلى جانب ضيعته الواسعة وقصره الأصفر الشامخ ذى البرج المسطح والحديقة الغناء ، يملك مصنعا ضخما للسكر ، ومطحنا للغلال ، ومزرعة لتربية الجياد ، وهذا عدا ما يملك من المبانى الضخمة فى كل من فيينا وبودابست !.. وهو يعيش فى الشتاء فى قصر آخر له فى العاصمة ، ويقضى أشهر الصيف متنقلا بين مدن المياه المعدنية والشواطىء المختلفة .. أما قصره الريفى هنا فلا يفتح فى غير أشهر الربيع المعدودة .. وحدث ولا حرج عن المعيشة المترفة الفاخرة التى يحياها . أنه ــ باختصار ــ ينعم بأحسن شىء ، فى كل شىء !

ثم أضاف محدثى الصيدلى إلى ذلك أنه ــ بحكم مهنته ــ على صلة طيبة بهذا الثرى الكبير ، وفى استطاعته ، بكلمة واحدة منه ، أن يجعلنى أتلقى من الرجل دعوة إلى إحدى سهراته ، ولا سيما أن « الهر كيكسفالفا » يرحب دائما باستقبال الضباط فى بيته .

وتلقيت هذا العرض مغتبطا شاكرا ، ولا عجب فى ذلك ، فأن الأشهر القليلة التى قضيتها فى تلك القرية كانت كافية للإلمام بكل ملاهيها المحدودة ، ولرؤية جميع نسائها اللواتى يتنزهن فى الطرقات ، حتى لقد كدنا نعرف ثياب كل واحدة منهن ، وقبعاتها المختارة للصيف والشتاء ، بل كدنا نعرف كلابهن ، وخادماتهن ، وأطفالهن !.. هذا إلى تبرمنا جميعا بألوان الطعام التى يعدها فى « الميس » طاهيه البوهيمى البدين ، وإلى تشابه الألوان التى تقدم بالفندق ، وحفظنا

www.dvd4arab.com

عن ظهر قلب اشكال واجهات العرض فى كل متجر ، فى كل شارع ، وشكل كل مبنى من مبانى البلدة التى لا تزيد على ستمائة بيت أو سبعمائة !

وعدا ذلك كله ، كان كل منا قد عرف على وجه الدقة ــ مثله مثل « يوجين » رئيس السقاة ــ فى اى موعد يحضر كل واحد من رواد المقهى الدائمين ، وعلى اى مقعد يجلس ، وأى شراب يطلب .. كما خبر كل وجه ، وكل جواد ، وكل حوذى ، وكل متسول ، فى المنطقة كلها .. بل لقد خبر كل منا نفسه حتى ملها وسئمها !.. فلم لا افر من هذه الطاحونة الرهيبة ، ولو مرة ؟.. ثم هناك تلك الفتاة الجميلة ، ذات العينين اللتين تشبهان القطيفة السمراء !.. ومن ثم قلت لمحدثى ، فى فتور متكلف : « إنه يكون من دواعى سرورى أن أتعرف إلى اسرة كيكسفالفا ! » .

.. ولم ينقض يومان حتى أنجز صاحبى الصيدلى وعده ، فاعطانى بطاقة دعوة مطبوعة كتب عليها اسمى بخط دقيق انيق ، وكتب تحته بالخط نفسه : « الهر لايوس فون كيكسفالفا ، يلتمس متعة رفقة الملازم الثانى الهر انطون هوفميلر على مائدة العشاء ، فى الساعة الثامنة من مساء الاربعاء القادم » .

ولما لم اكن جاهلا ــ والحمد لله ــ بآداب اللياقة ، فقد توجهت فى صبيحة يوم الأحد ، فى ابهى حلة وأنظف مظهر ، كى أؤدى لمضيفى زيارة التعارف التقليدية .. وناولت رئيس الخدم هناك بطاقتى ، فتناولها فى ادب واحترام ، ثم غمغم

قائلا : « إن الأسرة كلها سيكون أسفها شديدا على انها لم تحظ باستقبال « سيدى الملازم » ، فان افرادها جميعا ذهبوا إلى الكنيسة ! » .. وهكذا عدت من هناك وانا اغبط نفسى على خلاصى من حرج الزيارة الأولى التقليدية !

* * *

ذهبت إلى المعسكر فى صبيحة يوم الثلاثاء ، فوجدت فى انتظارى بطاقة معقوفة الطرف تركها لى « الهر فون كيكسفالفا » ، ردا لزيارتى .. فسرنى هذا الاهتمام الذى ما كان ليلقاه من مثله « جنرال » فى الجيش ــ لا ملازم ثان ! ــ وبدأت أتطلع إلى سهرة الاربعاء المرموقة فى لهفة شديدة ، اخذت تزداد من ساعة لأخرى !

على أن القدر القاسى بدأ يناوشنى منذ البداية ! ففى منتصف الساعة الثامنة من مساء الليلة الموعودة ، كنت قد اكملت ارتداء افخر ما عندى من ثياب ، بعد ان عنيت عناية مضاعفة بحلاقة ذقنى ، وأمرت « المراسلة » بتلميع حذائى ، وسكبت بضع قطرات من ماء الكولونيا على شاربى ، وارتديت بنطلونا مكويا كحد الموسى !.. وفجأة طرق باب حجرتى احد الجنود ، ثم دخل مضطربا لينبئنى بان صديقى الضابط النوبتجى يلتمس منى ان اهرع لنجدته ، فقد تشاجر ضابطان ثملان وضرب احدهما الآخر بقبضة البندقية على راسه فالقاه على الأرض مغشيا عليه والدم ينزف من فمه المفتوح . ولما كان طبيب المعسكر متغيبا ، وكذلك قائد

Looloo www.dvd4arab.com

الفرقة ، فان صديقى المسكين ــ لعنة الله عليه ــ يطلب منى معاونته فى الخلاص من المازق والعثور على طبيب من المدنيين فى اسرع وقت ممكن لإسعاف المصاب !

ونظرت فى الساعة فاذا بموعد الحفلة لم يبق عليه إلا ربع ساعة !.. وادركت استحالة وصولى إلى قصر مضيفى فى الموعد المحدد إذا تأخرت عن الخروج خلال خمس دقائق ! لكنى فى الوقت نفسه أدركت أن الواجب ، المتغلغل فى عروقنا نحن العسكريين ، يأتى فى المرتبة الأولى قبل اى التزام شخصى .. ومن ثم لم يسعنى إلا ان التمس المخرج الوحيد من مثل هذا المازق السمج ، فارسلت جندى المراسلة فى سيارة استاجرتها باربعة ريالات ، كى يعتذر لمضيفى عن اضطرارى إلى التاخر عن الموعد قليلا ، لظرف طارىء خطير !

وعددت من حسن حظى بعد ذلك أن استطعت نفض يدى من المهمة التى عاقتنى ، بعد دقائق معدودات ، على اثر وصول الطبيب وقائد المعسكر على غير انتظار . ولكنى فوجئت بعقبة اخرى جديدة ، إذ لم اجد سيارة فى الموقف القريب ، فاضطررت إلى طلب عربة بالتليفون !.. وهكذا وصلت اخيرا امام بوابة القصر الرائعة وقد بلغت الساعة منتصف التاسعة تماما ، ورأيت حجرة المعاطف وقد اكتظت بمحتوياتها ..

وقادنى إلى صالون القصر الكبير خادم أنيق وقور يرتدى سترة رسمية ، ويداه فى قفاز ابيض . وكانت قاعة هذا الصالون غاية فى الفخامة وحسن الرواء ، ولها اربع نوافذ

كبيرة اسدلت عليها ستائر من الحرير الأحمر ، وتوهجت فى سقفها وأركانها الثريات البللورية الثمينة !.. وقد تبينت فى قلق واضطراب ان القاعة خالية تماما من الضيوف ، ووصلت إلى سمعى اصوات الأطباق وادوات المائدة منبعثة من القاعة المجاورة ، قاعة الطعام ! ومضى الخادم ففتح الباب الداخلى المؤدى إلى هذه الأخرى ، فحزمت شجاعتى ودلفت إلى عتبتها ، حيث طرقت الأرض بكعبى وانحنيت محييا . وسرعان ما صوبت إلى وجهى عشرات من العيون ، وكلها غريبة على ، تتساءل من يكون المتأخر ، الذى تسمرت قدماه على عتبة الباب ! ثم نهض سيد متقدم فى السن ، رجحت انه صاحب الدار ، فالقى منشفته على عجل وهرع نحوى ، مادا يديه إلى فى ترحيب بالغ !

وصدمنى أن أراه على غير الصورة التى توقعتها : فبدلا من أن يكون بدينا مستدير الوجه ، مفتول الشارب ، تبين عليه نعمة الثراء والمعيشة المترفة ، الفيته ــ على العكس ــ نحيلا ، محنى الظهر قليلا ، متعب العينين ، يضع على عينيه نظارة ذهبية الإطار ، وفى صوته بحة متخلفة من سعال ، وله لحية بيضاء هزيلة توحى لمن يراه ، بالإضافة إلى قسماته المرهفة ، انه أمام أستاذ فى جامعة !.. وإذ شرعت فى تكرار اعتذارى ، قاطعنى الشيخ النبيل مؤكدا تقديره لعذرى ، شاكرا لى عناء إرسال رسول خاص يوضح ذلك العذر .. ثم أردف قائلا : « سوف يسعدنى أن أقدم السيد لكل من حضرات الضيوف على حدة بعـ[illegible] لكن ابنتى

Loolee www.dvd4arab.com


وتلفت الى يمينى ، فاذا بالجالسة الى جوارى هى تلك الحسناء الرائعة ، ابنه أخت مضيفى ! ..

Looloo www.dvd4arab.com

سيسعدها ـ كما يسعدنى ـ أن أقدمك لها الآن بلا إبطاء ! »
.. ثم قادنى إليها ، فرأيت فتاة دون العشرين ، شاحبة ، مرهفة ، واهنة الجسم مثله ، ترفع نحوى عينيها الفبراوين فى خجل .. فانحنيت محييا إياها تحية خاصة ، أعقبتها بتحية سريعة شاملة للمدعوين جميعا .. ثم جلست فى المقعد الذى قدم لى .

وخلال الدقائق الثلاث الاولى ، كان شعورى بالحرج ما زال يلازمنى ! .. لم يكن حولى شخص واحد من زملائى فى الفرقة ، أو ضابط واحد فى الجيش ، أو أى إنسان أعرفه من أهل البلدة أو غيرهم ! وإنما كانت جميع الوجوه غريبة على ، ولم يكن بينهم من يرتدى سترة رسمية سواى ! يا الهى ! .. كيف أستطيع أنا الخجول أن أتحدث إلى كل هؤلاء الغرباء ؟

وتلفت إلى يمينى ، فاذا بالجالسة إلى جوارى هى تلك الحسناء الرائعة ، ابنة أخت مضيفى ! .. ويبدو أنها لاحظت نظرة الإعجاب التى رمقتها بها فى حانوت الحلوانى قبل أيام ، فقد ابتسمت لى ابتسامة ودية كما لو كانت تعرفنى منذ زمن . كانت عيناها مثل حبات البن ، وحين تضحك كانتا كأنما تحدثان صوت البن أثناء « تحميصه » على النار ! .. وكانت لها أذنان صغيرتان تكادان تكونان شفافتين ، تختبئان تحت ثروة كبيرة من الشعر الفاحم الغزير ، ولها ذراعان عاريتان خيل إلى أن ملمسهما لابد يشبه ملمس الخوخ المقشور !

كان جميلا أن اجلس بجانب مثل هذه الحسناء ، ولا سيما أنها كانت تتحدث بلهجة هنغارية ناعمة .. كما كان جميلا أن اتناول العشاء فى قاعة تتألق أنوارها الباهرة ، حول مائدة حافلة بأطيب الطعام وأفخره ، وقد وقف ورائى ساق خاص يخف إلى عند أول إشارة !.. حتى جارتى الأخرى التى تجلس إلى يسارى ، وكانت تتكلم بلهجة بولندية ، لم تكن تنقصها الفتنة !.. أم لعل الخمر هى التى أوحت إلى بذلك ؟

وكانت الخمر نبيذا دمويا قاتما ، و « شمبانيا » ذهبية براقة ، راح السقاة ذوو القفازات البيضاء يصبونها فى سخاء عجيب من أبارق فضية جميلة .. حقا ! ان صديقى الصيدلى الطيب لم يكن يهذى حين قال لى إن « آل كيكسفالفا » يعيشون معيشة الأمراء !

وبعد انتهاء الطعام ، الذى بدا كأنه بلا نهاية ، سال فى الكؤوس « قوس قزح » من المشروبات الخفيفة « الليكير » : خضراء ، وحمراء ، وبيضاء ، وصفراء .. واعقبها السيجار السميك الفاخر ، ثم القهوة الشهية !

* * *

وتولانى انشراح عجيب ، لم ادر أكانت علته أن الآخرين — الذين إلى يمينى ويسارى وأمامى — قد بدت عيونهم ملتمعة ببريق النشوة ، وارتفعت أصواتهم فى الحديث ، وطرحوا الوقار جانبا ، كما ألقوا بالتحفظ إلى الرياح الأربع وأخذوا يصخبون بملء حريتهم ؟.. على أية حال ، فاننى وجدت حيائى الفطرى قد تبخر ، فشاركت فى الصخب بغير أدنى إجفال .

وبدأت أتودد إلى كل من جارتى الجميلتين ، فى نشاط لا يعادله غير نشاطى فى الشرب والضحك !.. ثم اخذت انظر حولى بعينين طائشتين نزقتين ، وبرغم ان المصادفة وحدها قد تكون المسئولة عن احتكاك يدى فى خفة — بين الحين والحين — بذراع « ايلونا » العارية الرائعة (فقد كان هذا اسم ابنة الأخت الحسناء الشهية) ، فانها لم تبد اية بادرة من بوادر الاستياء أو الضيق .. بل تركت هى الأخرى نفسها على سجيتها ، فتحررت مثلنا جميعا من أكثر القيود !

وأثر تتابع المشروبات الجيدة المعتقة فى جوفى ، فأحسست — تدريجيا — شيئا من الخفة يكاد يغرينى بالاندفاع والصخب لتكتمل نشوتى ، وشعرت كذلك بالحنين إلى شىء لم أدر على التحقيق ما هو ، ثم فتحت الأبواب المؤدية إلى قاعة ثالثة خلف الصالون ، فانسابت إلينا موسيقى ناعمة ، ذات الموسيقى التى كان يتوق إليها قلبى ، ويتحرق كيانى شوقا إليها : موسيقى رقصة الفالس السماوية ، تشارك فى عزفها الكمان والبيانو معا !

ونهضنا عائدين إلى الصالون ، أزواجا أزواجا ، فأعطيت « ايلونا » ذراعى . ومرة أخرى أحسست ببشرتها الباردة الناعمة المثيرة ، ووجدنا القاعة قد أخليت مناضدها ، فبدا خشب الأرض « الباركيه » الناعم كالمرآة المجلوة ، يدعو إلى الرقص ويغرى به .. فالتفت إلى ايلونا ، فضحكت ، وقرأت فى عينيها أنها موافقة على الرقص معى . وسرعان ما كنا نطير فى الهواء دائرين حول أنفسنا فى حلقات واسعة ، ثم تكاثر الراقصون تدريجيا ، بينما جلس الشيوخ والمتحفظون

loolooo www.dvd4arab.com

يتفرجون ويثرثرون . وكنت أعشق الرقص وأتقنه ، لكنى لم ارقص من قبل بمثل البراعة التى أبديتها فى تلك الليلة !.. وفى الرقصة التالية شاركت جارتى الثانية ، فانتشت حواسى وأنا منحن عليها أتنفس عطر شعرها ، وشعرت بسعادة لم أتذوقها منذ سنوات ، وازددت إحساسا بشبابى ، ثم استخفنى ميل قوى إلى أن اقبل كل شخص حولى ، ومضيت أراقص الحاضرات واحدة بعد أخرى .. وثرثرت ، وضحكت ، وفقدت كل إحساس بالزمن !

الفصل الثانى

سقطة خرقاء

وفجأة حانت منى نظرة إلى الساعة ، فاذا هى العاشرة والنصف ، فأدركت أن قد انقضت على ساعة وانا أرقص وأرمح وأضحك ، دون أن أدعو ابنة مضيفى للرقص ! واخذتنى الحيرة ، ولم أدر كيف فاتنى هذا الواجب الذى تفرضه اللياقة .. ثم درت ببصرى باحثا عنها بين الحاضرات ، كى أتدارك ما فاتنى ! ولكنى تذكرت انى لا أكاد اعرفها ، فكل ما أذكره عنها ــ من النظرة الخاطفة التى رمقتها بها حين قدمنى لها والدها على المائدة ــ انها شاحبة الوجه ، نحيلة الجسم ، ذات عينين غبراوين ! ولم اجد الفرصة الكافية للتحديق فى كل واحدة من عشرات المدعوات ، وهكذا كدت أيأس من تمييز فتاتى المنشودة !.. وأخيرا خطر لى أن أتجه إلى القاعة الثالثة ، حيث كانت جوقة الموسيقى تعزف

من وراء ستارة من الطراز الصينى . وما كدت ادخل هذه القاعة حتى تنفست الصعداء ، فقد وجدتها هناك ، بقوامها المرهف النحيل وثوبها الأزرق الفاتح ، جالسة بين سيدتين عجوزين ، ووراء منضدة خضراء عليها آنية مليئة بالأزهار .. وكان رأسها منحنيا قليلا ، كأنما هى تصغى بجماع روحها إلى الموسيقى . ولم أضيع وقتا فى التأمل ، بل اتجهت رأسا إلى حيث تجلس وانحنيت لها فى تأدب ، انحناءة الدعوة إلى الرقص ، فرفعت نحوى عينين اختلطت فيهما الدهشة بشىء من الذعر ! وظلت شفتاها منفرجتين قليلا ، كمن قطع الاستغراب حديثها ، لكنها لم تبد أدنى حركة تنم عن تأهبها لأن تتبعنى إلى حلبة الرقص !.. ومن ثم انحنيت لها مرة أخرى وأنا أقول : « هل لك أن تمنحينى شرف هذه الرقصة يا آنسة ؟ » .

.. وكان جوابها مروعا حقا ! فسرعان ما ارتد رأسها مع كتفيها إلى الخلف فى عنف وذعر ، كأنها تتجنب صدمة ، واندفع الدم إلى وجنتيها الشاحبتين ، وتلاصقت شفتاها فى قوة وحدة .. ولم يبق بلا حراك فى وجهها غير عينيها اللتين ارتسمت فيهما نظرة رعب لم أصادفها من قبل فى حياتى ! وفى اللحظة التالية هزت جسمها المنفعل قشعريرة قوية ، وبكلتا يديها اتكأت على المنضدة ورفعت نفسها بقوة جعلت آنية الزهر تهتز فى مكانها بشدة ، فى الوقت الذى سقط فيه من مقعدها على الأرض شىء صلب ــ من الخشب أو المعدن ــ محدثا فى ارتطامه بالأرض صوتا قويا !.. وظلت متعلقة

Looloo www.dvd4arab.com

بالمنضدة المتأرجحة على هذا الوضع نحو نصف دقيقة ، وجسدها يهتز وينتفض بشدة ، من اخمص قدميها إلى جذور شعرها ، من فرط المجهود اليائس الجبار الذى بذلته .. وفجأة انفجرت تنشج باكية ، فى حرقة ضارية بهيمية !

وكانت المراتان المسنتان قد أحاطتا بها تحتضنان جسمها المرتعش وتدللانها ، محاولتين تهدئتها ونزع يديها — المتشبثتين بالمنضدة — فى رفق .. حتى سقطت بين ايديهما وغاصت فى مقعدها من جديد .. لكن بكاءها استمر ، بل ازداد حدة ، فى نوباته المتقطعة الشبيهة بنزيف من الدم ، او نوبة من قىء شديد ، بحيث لو توقفت الموسيقى لحظة لبلغ صوت النشيج مسامع الراقصين !

ووقفت فى مكانى مشدوها ، ورحت أسائل نفسى : ترى ماذا حدث ؟! ونظرت فى قلق وحيرة إلى المراتين ، وإلى الفتاة الباكية التى ما زالت تنتحب ، مخفية وجهها بين يديها فوق المنضدة ، وجسمها يهتز فيهز معه آنية الزهر ، مما زاد فى قلقى ، حتى لقد احسست فى أطرافى برودة كالثلج ، وخنقتنى ياقة قميصى كما لو كانت حبلا محرقا يلهب رقبتى .. وأخيرا وجدت صوتى لأقول متلعثما : « أرجو المعذرة ! » ، ثم انسحبت متعثرا إلى الصالون !

.. وكان الرقص محتدما فيه كما كان ، وقد بدا أن أحدا لم يلحظ شيئا مما حدث ، فانزويت فى ركن أسائل نفسى فى حيرة : « هل ارتكبت حماقة ما ؟! لابد انى ثملت بحيث فعلت شيئا رهيبا ، دون أن أشعر ! » .. ولم يكد الرقص يتوقف ،

وتنفصل « ايلونا » عن مراقصها ، حتى جذبتها من ذراعها — فى شىء من الخشونة — إلى ركن قصى ، وأنا أهتف بها : « بربك ساعدينى .. أناشدك .. أوضحى لى ! » .. وتدافعت نبضات قلبى وأنا أروى لها القصة بحذافيرها .. وشد ما اذهلنى أن ارتسم فى عينيها مثل الذعر الذى رايته فى حدقتى ابنة خالها ، ثم صاحت بى :

— هل جننت ؟.. ألا تعلم ؟.. الم ترها ؟

فقلت لها وقد غاص قلبى جزعا من نظرتها :

— كلا !.. لم أر شيئا ، ولست أفهم شيئا .. إنها أول مرة ادخل فيها هذا البيت !

فأردفت : « الم تلحظ أن « أديث » كسيحة ؟ أما رأيت ساقيها المشلولتين العاجزتين ؟ إنها لا تستطيع أن تخطو خطوتين بغير عكازيها ! وأنت .. أنت تذهب فتدعو الطفلة المسكينة إلى ان ترقص !.. أوه !.. هذا فظيع ! يجب أن اذهب إليها من فورى ! » .

وامسكت « ايلونا » من ذراعها وقلت لها فى توسل :

— على رسلك هنيهة ، أرجو أن تحملى إليها اعتذارى . لم يكن فى وسعى أن أعرف .. لم ارها إلا لحظة واحدة اثناء العشاء !.. ارجو أن توضحى الأمر لها ! » .

لكن ايلونا انتزعت ذراعها من يدى غاضبة وهرعت إلى القاعة المجاورة ، بينما وقفت أنا على عتبة الصالون الذى

Looloo
www.dvd4arab.com

يموج بالصخب ، وقد بدا لى فى تلك اللحظة سمجا لا يحتمل ، وجعلت أحدث نفسى وقد غص حلقى وجف لعابى : « لن تنقضى خمس دقائق حتى يعرف الجميع أمر هفوتى الشنعاء ، وحينئذ يغمروننى بنظرات الازدراء والسخرية .. وغدا تصبح غلطتى موضوع أحاديث أهل البلدة جميعا ، طعاما دسما لمئات الألسنة الخبيثة ، يوزع على الأبواب مع لبن الصباح !.. وغدا تعرف الفرقة بأسرها قصتى ! » .

وفى تلك اللحظة لمحت والد الفتاة مقبلا ، فاشتد خفقان قلبى ، وساءلت نفسى حائرا قلقا : « ترى هل علم بما حدث ؟ وهل هو مقبل نحوى؟.. كل شىء أهون عندى من أن ألقاه ! » .

وتملكنى بغتة خوف قاتل منه ، ومن الحاضرين جميعا ! .. ودون أن أعرف ما أنا فاعل مضيت متعثرا نحو الباب المؤدى إلى البهو ، ومنه إلى خارج البيت .. الذى تحول فى نظرى إلى قطعة من الجحيم !.. وسألنى حارس الباب مستغربا ، فى لهجة تنطوى على الاحترام : « هل يزمع سيدى الملازم أن يغادرنا هكذا مبكرا ؟ » .. فأجبته من فورى : « نعم » .. لكن الكلمة لم تكد تخرج من فمى ، ويتأهب الرجل لمعاونتى على ارتداء معطفى، حتى أدركت بوضوح أننى أرتكب بالفرار على هذه الصورة المنطوية على الجبن حماقة جديدة لا تغتفر ! على أنى لم أستطع التراجع — وقد فات أوانه ! — ولم يسعنى ، والحارس يفتح لى الباب ، أن أكر راجعا وأعيد إليه المعطف ثم أعود إلى الصالون !

وهكذا وجدت نفسى فجأة واقفا خارج ذلك البيت

اللعين ، تسفح الريح الباردة وجهى ، ويحرق الخجل قلبى ، وأنفاسى اللاهثة تردد متقطعة بصعوبة ، كأنى أوشك أن أختنق !

* * *

تلك هى السقطة الخرقاء التى كانت بداية الأمر كله !.. والآن ، حين أعود بخيالى إلى الوراء ، فى هدوء الذكرى البعيدة التى مرت عليها أعوام طويلة ، واستعرض الحادث البسيط الذى أدى إلى سلسلة من الأحداث المفجعة ، لا أملك غير أن أقرر — إنصافا لنفسى — أنى كنت بريئا كل البراءة من مسئولية ذلك الحادث .. إن أذكى البشر ما كان له فى مثل موقفى أن يتفادى دعوة الفتاة إلى الرقص ، ما دام لا يعلم أنها مشلولة ، لكنى فى غمرة الفزع الأولى عددت نفسى أحمق متهورا ، بل وغدا مجرما ! شعرت كما لو كنت قد جلدت طفلا بريئا بسوط !

ولا شك أن الأمر كله كان يمكن أن يعالج بشىء من حضور البديهة ، أما أن أفر من المكان ، كالمجرم الجبان ، دون أن أحاول الاعتذار أو الاعراب عن أسفى ، فهذا ما أفسد الأمر كله .. وقد تبينت ذلك بوضوح فى اللحظة التى وطئت فيها قدماى أرض الطريق ولفح الهواء البارد وجهى !

لست أستطيع أن أصف حالتى النفسية وأنا واقف خارج الدار ! كانت الموسيقى وراء النوافذ المضاءة قد توقفت ، كى يأخذ العازفون قسطا من الراحة دون شك ، ولكنى من فرط

Loolog www.dvd4arab.com

شعورى المحموم بإثمى حسبت أن الرقص قد توقف بسببى ، تصورت ان المدعوين جميعا قد تقاطروا إلى حيث جلست الفتاة الباكية كى يخففوا عنها مصابها ، وراحوا يستمطرون اللعنات على الفاجر الأثيم الذى دعا فتاة كسيحة إلى الرقص ، ثم انسحب عقب فعلته الشنعاء فى جبن ونذالة ! .. وكان هذا التصور وحده كافيا لتصبب العرق البارد من جبينى ! ولم اشك فى أن فضيحتى هذه ستصبح موضع تندر اهل البلدة جميعا ، ولن تتعب السنة زملائى فى الجيش من أن تلوك سيرة زميل لهم متى سمعوا بسقطته الطريفة هذه !

وليس فى وسعى ان اتذكر الآن كيف بلغت مخدعى فى تلك الليلة !.. كل ما اذكره أننى ما كدت ادخله حتى هجمت على خزانة كنت احتفظ فيها بزجاجة من الكونياك لأقدم منها لمن يزورنى من الأصدقاء ، فتجرعت اكثر من نصفها جرعة بعد جرعة ، بغية التخلص من شعور الغثيان الفظيع الذى كنت احسه .. ثم ارتميت على الفراش بثيابى كاملة ، ورحت استرجع الأمر كله فى ذهنى !

وكما تنمو الأزهار نموا سريعا حين توضع فى منابت من الزجاج ، كذلك تزدهر الأفكار الضارية المجنونة فى الظلام !.. ومن ثم أخذت تطوف بذهنى المكدود أغرب الرؤى والخيالات. فيما يشبه الحلم المخيف أو الهذيان السخيف !.. وتتابعت على مخيلتى احداث المستقبل المتوقعة : التحقير مدى الحياة ، والنبذ من المجتمع ، والسخرية من الزملاء والثرثرة من أهل البلدة .. وهكذا لن استطيع الخروج إلى الطريق ، خشية الالتقاء بواحد من الذين يعرفون بجريمتى !

وحين دهمنى النوم أخيرا ، كان نوما خفيفا متقطعا ، تتخلله الرؤى المفزعة . ولم اكد أفيق منها حتى عاودتنى صورة الوجه الصبيانى الباكى ، والشفتين المختلجتين ، واليدين المتشبثتين بالمنضدة فى تشنج عصبى .. وخلتنى أسمع صدى سقوط ذلك الشىء الصلب على الأرض ، الشىء الذى ادركت فيما بعد انه عكاز الفتاة !.. وتملكنى رعب جنونى من أن يفتح بابى فجأة ويدخل منه رجل نحيل طويل ، بسترة سوداء ونظارة بإطار مذهب ، هو والد الفتاة !.. فقفزت من فراشى فزعا .. وإذ نظرت إلى نفسى فى المرآة ، ورأيت عرق الندم والخوف على وجهى ، راودتنى رغبة ضارية فى أن أحطم ذلك الوجه الغبى الأحمق : وجهى !

لكن النهار الرحيم طلع أخيرا .. وبدأ صدى الخطى العسكرية يتردد فى الممر .. وحين يشرق ضوء النهار من نافذتك ، تصفو افكارك اكثر منها وأنت غارق فى الظلمة الخبيثة التى يلذ لها أن تخلق لك الأشباح .. فوجدتنى اهون على نفسى وقع الحادث : من يدرى ، ربما لم يتنبه إليه احد ! لكنها هى ، تلك المخلوقة البائسة الكسيحة ، إنها حتما لن تنساه ، ولن تصفح يوما !.. وفجأة ، برق فى ذهنى خاطر فيه شىء من العزاء ، فسارعت إلى إصلاح هندامى وتهذيب شعرى ، واندفعت من غرفتى كالسهم المنطلق ، غير عابىء بتابعى « المراسلة » الذى راح ينادينى صائحا : « سيدى الملازم .. « هر لفتننت » .. القهوة معدة ! » . لكنى مضيت انهب السلالم نهبا ، واصطدم بكل من يعترض طريقى .. حتى

Looloo www.dvd4arab.com

خلفت المعسكر ورائى ورحت أعدو صوب أقرب حانوت تبيع صاحبته الخضراوات والأزهار معا ، وكانت أمامه عربة بطاطس قد أفرغ نصفها .. فاختلقت للمرأة عذرا كاذبا يبرر عجلتى وأوصيتها باعداد سلة من أحسن ما عندها من زهور ، غير عابىء بأن ثمنها يستنفد كل ما تبقى لى من مرتبى الشهرى ..بل إنى وجدت لذة غامضة فى أن أعاقب نفسى ، وأكفر عن فعلتى تكفيرا غاليا !

وبعد أن غادرت الحانوت وسرت مبتعدا ، لحقت بى المرأة لاهثة متسائلة : « إلى أين .. إلى من ترسل الأزهار ؟ » . وكنت قد نسيت – فى غمرة انفعالى – أن أترك لها الاسم والعنوان ، فقلت لها : « إلى فيلا كيكسفالفا .. إلى الآنسة اديث فون كيكسفالفا » . فقالت المرأة فى اعتذار : « آه ، آل كيكسفالفا .. انهم خير عملائنا ! » . وهممت بالانصراف ، لكن المرأة عادت فسألتنى : « ألست تريد أن تكتب كلمة إلى الآنسة المهدى إليها ؟ » .. فدخلت الحانوت من جديد ، وأخرجت من جيبى بطاقة كتبت عليها : « مع خالص اعتذارى » . لكنى لم ألبث أن مزقتها ، قائلا لنفسى : « كلا ! هذه حماقة ثالثة ، لماذا أذكر الفتاة بسقطتى الشنعاء ؟ » .

ماذا أكتب إذن ؟.. هل أكتب « مع الأسف الخالص ؟ » .. كلا !.. ولا هذه أيضا ، فقد تحسبنى أرثى لحالها !.. ورأيت أخيرا ألا أكتب شيئا على الإطلاق ، فقلت لبائعة الزهور : « حسنا ! ضعى بطاقة باسمى فقط ! » .

وشعرت بالارتياح .. فعدت إلى المعسكر ، حيث

احتسيت قهوتى وانهمكت فى واجباتى العسكرية ، وإن ظللت أحس كأن قطعة من الإسفنج المغموس فى المر تسد حلقى !

وعند الظهر ، وفيما أنا أتهيأ للذهاب إلى مطعم الضباط ، أقبل تابعى يحمل إلى خطابا . ظرفا أزرق ، تفوح منه رائحة عطر خفيف ، كتب عليه اسمى وعنوانى بخط رقيق ، خط امرأة !.. ففضضته على عجل ، وقرأت فيه : « خالص شكرى ، يا عزيزى الملازم ، من أجل هدية الزهور الجميلة التى لا أستحقها ، والتى اغتبطت – وما زلت مغتبطة – بها .. فأرجو أن تحضر لتناول الشاى معنا فى عصر أى يوم يناسبك ، ولا تكلف نفسك مشقة إخطارنا بموعد حضورك مقدما ، فانى – وا أسفاه – مقيمة دائما بالبيت » .

« أديث ف . ك »

قرأت الخطاب مرة ثانية وثالثة ، ثم تنفست الصعداء .. ما أحصف وألبق اللهجة التى بها مسحت الفتاة على جرحى ، ومنحتنى غفرانها !.. وانتابنى شعور المتهم الذى وطن نفسه على صدور الحكم عليه بالسجن المؤبد ، حين يفاجئه القاضى بحكم البراءة !

وكان لابد من أن أزور الفتاة فى أقرب فرصة ، لأشكرها ، وكنا فى يوم الخميس .. إذن فلأذهب يوم الأحد .. كلا ، بل السبت !.. ولم أطق صبرا على الانتظار ! كانت تطاردنى اللهفة على الاطمئنان إلى أن إثمى قد محى إلى الأبد ، وعلى وضع حد للقلق الذى يساورنى ، والشك الذى يكتنف الموقف .. وكانت نتيجة هذا الانفعال النفسى أننى بينما كنت أتنزه

Loolee www.dvd4arab.com

مع أعز صديقين لى فى اليوم التالى ــ الجمعة ــ وجدتنى اصمم فجأة على تادية زيارتى المرموقة فى اليوم نفسه ! فاستأذنت منهما على حين غرة ، ثم انطلقت فى سبيلى إليها .

كانت المسافة التى تفصلنى عن قصر كيكسفالفا تستغرق مسيرة نحو نصف ساعة مشيا على الاقدام ، فمضيت اغذ السير لا الوى على شىء ، وما لاحت لى اسوار القصر البيضاء وبوابته الحديدية حتى بدات شجاعتى تتبخر تدريجا ، فوددت لو أعود أدراجى قبل فوات فرصة الفرار .. ودون وعى منى اخذت ابطىء فى سيرى ، ثم تعمدت إطالة الطريق ، وإفساح الفرصة ، بالالتفاف حول اسوار القصر من الخارج ، وإلقاء نظرة عليه من خلال الثغرات التى تتخلل السور . كان القصر صرحا منيفا من طابقين ، مطليا باللون الأصفر ، على الطراز النمسوى القديم، عدا نوافذه التى طليت أخشابها خضراء . وكان أقرب إلى القصور الريفية التى رايت بعضها فى أقاليم « بوهيميا » ، منه إلى (الفيلات) العصرية !

وبلغت فى طوافى بوابة الدار ، للمرة الثانية ، فحزمت شجاعتى وسرت بين صفين من الأشجار السامقة إلى الباب الأمامى ، ورفعت الطارق البرونزى الثقيل الذى يقوم فى الدور العتيقة مقام الجرس . وبعد لحظة اقبل كبير الخدم ، ولم يبد انه فوجىء بزيارتى غير المتوقعة ، بل لقد تجاهل البطاقة التى امسكتها فى يدى . ودون ان يوجه إلى سؤالا ما ، دعانى بانحناءه مؤدبة إلى الانتظار فى الصالون ، قائلا : « إن السيدات مازلن فى حجرتهن ، لكنهن سيحضرن فى خلال

لحظات » .. ثم قادنى إلى الداخل ، كما لو كانت زيارتى متوقعة !

وتذكرت فى شىء من الحرج وعدم الارتياح معالم الصالون الذى قضيت فيه سهرتى الأولى المشئومة ، وذكرتنى مرارة نمى بأن الباب الذى فى مواجهته يقود إلى القاعة التى كانت الفتاة تجلس فى ركن منها وقت « الحادث » !.. ولكن ، ايقظنى من تأملاتى وذكرياتى صوت مقاعد تجر وراء الباب ، وهمسات مكتومة ، وحركة اقدام ذاهبة وآيبة ، تنم عن وجود بضعة أشخاص .. ثم ضجيج اطباق وأدوات للمائدة .. وأخيرا خيل إلى ــ وقشعريرة باردة تسرى فى نخاعى ــ أنى أسمع صوت عكازين !

ثم فتح الباب وبرزت منه ايلونا ، فبادرتنى قائلة : « كم هو ظريف منك ان تحضر يا هر لفتننت (سيدى الملازم) ! » ، ثم قادتنى رأسا إلى الغرفة المجاورة .. وهناك ، فى الركن نفسه ، وعلى المقعد نفسه ، ووراء المائدة الخضراء بعينها ، جلست الفتاة المشلولة ، وقد غطت ساقيها بغطاء من الفراء الأبيض .. وابتسمت لى ابتسامة تحية ودية ، وبرغم ذلك فإنها كانت لحظة حرجة اليمة بالنسبة لكلينا ! ولم ينجح احدنا فى ان يجد الكلمة الأولى التى تحطم الموقف الثلجى الذى اكتنفنا .. حتى قطعت « ايلونا » الصمت الخانق بقولها تسائلنى :

ــ ماذا نقدم لك يا هر لفتننت ؟ الشاى ام القهوة ؟

ــ اوه ، اى شىء يروق لكما


Looloo
www.dvd4arab.com

— بل ما يروقك انت ، ولا تدع الكلفة مقاما بيننا !

— إذن فلتكن القهوة ..

كانت ايلونا بارعة فى إزالة حرج اللحظة الأولى ، بذلك السؤال العملى ، ولكن لم يكن جميلا منها أن تترك الغرفة بعد ذلك كى تأمر باعداد القهوة ، فقد ادى ذلك إلى تركى وحيدا مع « ضحيتى » !.. وكان لابد من ان اقول شيئا ، أستأنف به الحديث ، باى ثمن ! لكنى شعرت بجفاف فى حلقى وارتباك فى نظرتى .. فتنفست الصعداء حين ابتدرتنى مضيفتى قائلة : « هلا جلست يا هر لفتننت ؟ هيا ، تناول هذا المقعد ذا الذراعين .. ولمَ لا تخلع سيفك .. أحسبنا لن نشتبك فى الحرب !.. ضعه على المنضدة أو على حافة النافذة .. حيثما تشاء ! » .

وجررت مقعدى ، وأنا ما أزال احس بقية من حرج ، أنقذتنى منه الفتاة مستطردة : « أجد من واجبى ان اشكرك مرة أخرى من أجل أزهارك اللطيفة .. انها رائعة كما ترى .. ثم ينبغى أن اعتذر أيضا عن حماقة إجهاشى بالبكاء . كان مسلكى مخجلا حقا ، فلم أستطع النوم طيلة الليل من جرائه .. لقد كنت أنت حسن النية ، وما كان يمكن أن تكون لديك أدنى فكرة عن الحقيقة !.. ثم إنك — واطلقت ضحكة عصبية مباغتة — قد توصلت إلى قراءة أعمق أفكارى فى تلك اللحظة ، فانى لم احن إلى شىء وقتئذ قدر شوقى إلى المشاركة فى الرقص .. إنك لا تتخيل كم انا شغوفة بالرقص ، حتى لأستطيع ان اظل ساعات طويلة أرقب الراقصين ، بلا ملل ،

حتى أشعر كأنى أنا التى ترقص، وتطير على أجنحة الأنغام!.. وقد كنت فى صباى أجيد الرقص ، ولعل ما أصابنى كان خيرا بالنسبة لأبى ، فلولاه لفررت حتما من البيت واصبحت راقصة !.. فليس اروع من أن تثير الفنانة المئات والألوف من الناس بجسدها ، وحركاتها ، وكيانها كله ، ليلة بعد ليلة !.. إنه مجد رائع حقا .. وانى احتفظ لأعظم الراقصات — مثل بافلوفا ، وكارسافينا ، وساهاريه — بصور تمثلهن فى جميع رقصاتهن .. إليك هذه الصور ، إنها فى الصندوق الصغير القريب من المدفأة .. لا ، لا ، إلى اليسار ، بجوار المكتب .. نعم ، هذا بالضبط (وكنت قد عثرت عليه أخيرا وحملته إليها) .. انظر هذه مثلا ، انها صورتى المفضلة : بافلوفا فى دور « البجعة المحتضرة » .. آه لو استطعت ان اراها فقط ، إنه يكون أسعد يوم فى حياتى ! » .

وكان الباب الذى خلفنا بسبيل أن يفتح ، فسارعت « اديث » إلى إغلاق صندوق الصور بحركة مفاجئة عنيفة — شأن من ضبطت ترتكب جرما ! — وهمست لى بلهجة آمرة : « ولا كلمة أمام الآخرين عما حدثتك بصدده .. ولا كلمة ! » .. ثم دخل الخادم يجر عربة شاى محملة بأطيب المأكولات والحلوى ، تتبعه ايلونا ، التى افرغت محتويات العربة على المنضدة ثم عادت إلى مجلسها معنا .. وتشعب بيننا الحديث فى موضوعات مختلفة ، ووجدتنى أسترد تدريجا هدوئى واثرثر معها على سجيتى .. بل إنى استطعت ان اختلس — بين الحين والآخر — نظرات جانبية إلى الفتاتين : واقارن

www.dvd4arab.com

برغمى بينهما : كانتا جد مختلفتين فى مظهرهما ، فاحداهما — ايلونا — امراة ناضجة ، ممتلئة بالحيوية المثيرة ، مكتملة الصحة والنشاط .. بينما الاخرى — اديث — تبدو إلى جانبها نصف طفلة ونصف امراة ، فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، بينها وبين النضج مرحلة طويلة !.. كان التناقض بينهما صارخا ، يغرى المرء بأن يراقص الأولى ، ويقبلها !.. اما الأخرى فحسبه ان يلاطفها — بصفتها كسيحة — ويدللها ويحميها .. وقبل ذلك كله يصانعها ويجاريها ، فقد كانت عصبية الحركة ، لا تكاد تستقر على وضع ، كأنما تعوض بذلك جمود ساقيها !.. وكانت — بأسئلتها الكثيرة ولهجتها الخفيفة — تركز الانتباه فى شخصها دون غيرها ، وتضفى على الحديث جاذبية خاصة !

واستمرت جلستنا نحو ساعة ونصف ساعة ، ثم اطل من القاعة المجاورة شبح متلصص ، كأنما يخشى ان يزعجنا .. وكان هو الهر « كيكسفالفا » والد الفتاة ، ولما رآنى اهم بالوقوف تأدبا ، رجانى مخلصا أن أبقى حيث أنا ، ثم مال على جبين ابنته فطبع عليه قبلة ، واتخذ مجلسه بجانبها كما لو كان طبيبا يجلس إلى مريضته . وحين لحظ ان جو الحديث اعتراه شىء من الفتور والتحفظ ، حاول أن يعيد إليه طابع الألفة السابقة فتبسط فى سؤالى عن الفرقة وعن رؤسائى ، السابقين والحاليين ، وخيل إلى انه يتعمد أن يظهر لى مبلغ اختلاطه وقوة صلاته بهم جميعا ..

ورأيت أن زيارتى قد استنفدت هدفها ، وفقدت جاذبيتها ، فاعتزمت أن أبقى عشر دقائق أخرى ثم أنصرف ..

ولكن ، حدث فى تلك اللحظة أن أقبل رئيس الخدم وهمس فى أذن اديث بشىء ، فانفجرت صائحة فى وجهه : « دعه ينتظر .. بل قل له أن يتركنى اليوم وشأنى .. قل له أن يذهب . لست فى حاجة إليه ! » .

واحسسنا جميعا بالحرج إزاء عنف لهجتها ، فنهضت وقد ادخل فى روعى انى اطلت البقاء ، لكنها هتفت بى على الفور : « كلا !.. بل ابق .. لا تلق بالا إلى الأمر . إنه لا شىء ! » .. وكانت لهجتها الآمرة تنطوى على الخشونة ، الأمر الذى أشعر اباها بالحرج ، فصاح بها لائما : « اديث » ! .. وكأنما احست الفتاة بخروجها عن طورها ، فالتفتت إلى معتذرة : « اغفر لى .. إنه العذاب اليومى المألوف ، المدلك الذى يجرى لى تدليكا طبيا .. إنها آخر مبتكرات طبيبنا العزيز ، وهو علاج عقيم ، كغيره ! » .. ونظرت إلى ابيها فى تحد ، كأنما تعتبره المسئول .. فانحنى الشيخ المحطم عليها فى اضطراب ، وقد شعر بالخجل ولا ريب لوجودى ، وقال لها فى مذلة : « ولكن يا طفلتى العزيزة .. أتعتقدين حقا أن دكتور كوندور ..؟ » ، وإذ ذاك احمر وجهها وغمغمت فى رضوخ : « حسنا ، سأذهب ، برغم انه امر لا جدوى منه .. ارجو المعذرة يا سيدى الملازم ، وارجو أن تأتى لزيارتنا ثانية فى القريب » .. فانحنيت لها وانا اهم بالانصراف ، لكنها عادت تقول لى : كلا ! بل ابق مع ابى حتى اعود ! » ثم هزت الجرس اليدوى الصغير الموضوع على المنضدة ، والذى رأيت مثله على كل منضدة فى البيت ، وحين أقبل رئيس

Loolaa www.dvd4arab.com

الخدم قالت له وهى تلقى الفراء عن قدميها : « ساعدنى على الوقوف ! » .

.. وكان ما حدث على الأثر مفجعا للغاية ، فقد رفع الرجل جسمها الهزيل تحت إبطيه بحركة ألفها ولا شك ، فوقفت الفتاة لحظة متكئة على مسندى المقعد ، وهى تحدجنا بنظرة تحد ، ثم تلمست العكازين اللذين كانا تحت الفراء .. ورفعت جسمها عليهما وهى تزم شفتيها فى انفعال ، ثم سارت تنقل عكازا بعد الآخر فى حذر وأناة ، والخادم خلفها ، مادا ذراعيه على قيد شبر منها ، كى يتلقاها إذا أوشكت أن تسقط !

واعتصرت قلبى يد ثقيلة وأنا أرى المنظر المؤثر ، وأدركت لماذا أبت أن تعاونها « إيلونا » على المسير أو تجلسها فى مقعدها ذى العجلات .. لقد أرادت — بدافع من الرغبة الغامضة فى الانتقام ، التى ولدها فى نفسها اليأس — أن ترينى ، أنا بالذات ، أنها كسيحة .. أن تعذبنا بعذابها !.. وأخيرا ، بعد زمن خلته دهرا ، بلغت الباب منهوكة من فرط المجهود الذى بذلته وهى تلقى بثقل جسمها كله على كل عكاز بدوره .. وكانت طرقات العكازين الجافة على الأرض ، وصرير الحوامل المعدنية المربوطة فى قدميها ، قد أثارت أعصابى بحيث أحسست بدقات قلبى تكاد تهز سترتى العسكرية هزا !

ولم أسترد بعض هدوئى إلا حين ابتعدت خارج الحجرة ، فخفتت الأصوات الرهيبة رويدا رويدا .. حتى تلاشت !

.. عندئذ فقط جرؤت على أن أرفع عينى ، فإذا الأب التعس قد وقف بالنافذة ، يطل على الفضاء السحيق .. ولمحت كتفيه تهتزان . إن المسكين قد عجز بدوره عن احتمال عذاب طفلته !.. ومضت دقائق مفعمة بالصمت الثقيل ، قبل أن يستدير إلى قائلا : « أرجو ألا يغضبك مسلك ابنتى يا سيدى الملازم .. إنك لا تعلم كم قاست خلال هذه السنين .. وفى كل حين يجرب معها علاج جديد .. لكن الأمر يسير ببطء شنيع . إنى لا ألومها على نفاد صبرها ، ولكن ماذا نفعل ؟ لا بد أن نجرب كل وسيلة ، أليس كذلك ؟ » . ثم وقف بإزاء مائدة الشاى المهجورة ، بما عليها من شراب وطعام ، وتناول ملعقة صغيرة ، ثم قال دون أن ينظر إلى ، كأنما يحدث الملعقة : « إنك لا تتصور كيف كانت فى الماضى .. لم تكن تكف عن الحركة طيلة اليوم ، تجرى هنا وهناك ، وتصعد السلم وتهبطه .. وفى سن الحادية عشرة فقط كانت تركض بجوادها عبر الأحراش بسرعة لا يجاريها فيها أحد ، فى خفة واستهتار ومرح ، حتى ليشعر من يراها بأنها ليست فى حاجة إلى أكثر من أن تفتح ذراعيها كى تطير !.. من كان يتخيل أن يحدث هذا لها ، هى دون الناس جميعا ! » .

وراحت يده القلقة تتناول الأشياء ثم تدعها ، وترسم بملقط السكر دوائر ورسوما على غطاء المائدة !.. كان المسكين يخشى أن يلتقى بصره ببصرى ، من فرط خجله واضطرابه !.. ثم استطرد فقال : « ومع ذلك فما أيسر إدخال السرور على قلبها ، حتى فى هذه الأيام .. بعد كل ما أصابها ! إنها تجد سعادة « صبيانية » فى أتفه شىء ،

Looloo www.dvd4arab.com



ناذا الأب التعس قد وقف بالنافذة ، يطل على الفضاء السحيق .. ولمحت كتفيه تهتزان . ان المسكين قد عجز بدوره عن احتمال عذاب طفلته !..

تضحك من أبسط نكتة ، ويستثير حماسها اى كتاب .ليتك رأيت مبلغ غبطتها حين وصلت سلة أزهارك وطرحت عن ذهنها عبء الظن بأنها قد اساءت إليك .. إنك لا تعلم مدى حدة حساسيتها نحو كل شيء . إنى واثق بأن احدا منا ليس اكثر منها أسفا على ما بدر منها منذ برهة من تصرف ينقصه ضبط النفس .. ولكن كيف يمكن أن تتحكم البائسة فى أعصابها وهى لا تكاد تلمس تحسنا فى حالتها ، أو املا فى شفائها من الكارثة التى ابتليت بها ، هى التى لم تفعل فى حياتها شرا ، ولم تؤذ أحدا ! » .

وكانما افاق الرجل من استرساله ، وادرك انه يتكلم امام شخص غريب ، فقال معتذرا بلهجة من استيقظ من سبات : « اغفر لى يا سيدى الملازم !.. لستادرى لماذا اصدع راسك بمتاعبنا .. لقد اردت ان اوضح الأمر لك كى لا تسيء الظن بها ! » .. ولا اعلم كيف واتتنى الشجاعة على أن اقاطع الشيخ الحائر ، ولكن فجاة وجدتنى أقترب منه وأتناول يده ، ثم آخذها بين يدى .. ولم اقل شيئا ، كل ما فعلته أنى تناولت اليد الباردة المعروقة ــ التى حاول ان يسحبها من يدى خجلا ــ وضغطتها . فنظر إلى فى دهشة وقد لمعت خلف منظاره نظرة حائرة ، خشيت معها ان يقول شيئا ، لكنه لم يتكلم ، بل اتسعت حدقتاه السوداوان ، كانما يوشك أن يبكى !.. وانتابنى انا الآخر تاثر عميق لم أشعر بمثله من قبل .. ولكى أفر منه ، انحنيت على عجل وغادرت الحجرة !.. وحين بلغت البهو [illegible] والخادم يعيننى

Looloo www.dvd4arab.com

على ارتداء معطفى — بأن الرجل قد تبعنى ، كى يشكرنى ، فتجاهلت احساسى به ، بغية تجنب المزيد من الحرج .. وبارحت البيت المفجوع وقلبى يدق صدرى بشدة !

الفصل الثالث

سحر الشفقة !

كان ضباب الفجر ما يزال يغطى مبانى البلدة . حين خرجت على راس فيلق الفرسان فى اليوم التالى لنقوم بجولة الصباح ، وفيما نحن نركض بجيادنا باقصى سرعتها ، ونسيم البكور الندى يحمل إلى انفاسنا عطر الحقول المزدهرة ، فنعب منه جرعات تملأ صدورنا انتعاشا وحبورا ، ودماء الشباب الدافئة تتدفق فى اجسامنا النابضة بالحياة .. لاحت لنا من بعيد اسوار قصر « كيكسفالفا » البيضاء وقبابه العالية ، وللفور طعن قلبى إحساس مباغت بالرثاء للفتاة الكسيحة ، المحرومة من نشوة الصحة والحرية ، والفرحة بقوة الشباب !.. خيل إلى انه قد يجرح شعورها ان ترانى هكذا منطلقا كالسهم المارق أو الطائر السعيد ، وشعرت بالخجل من سعادتى الجسمانية ، كما يخجل المرء من امتياز لا يستحقه !.. لكن ذهنى تصدى لعاطفتى بالحجة المقنعة والمنطق السليم ، فلم البث ان تبينت سخافة إذلال النفس على هذه الصورة . ادركت انه لا جدوى فى ان ينكر الإنسان على نفسه متعة ما ، لا لشىء إلا لأن غيره محروم منها ! ويأبى على نفسه السعادة ، لأن غيره شقى !.. ففى الوقت الذى

نضحك فيه ، ونتبادل النكات ، يوجد أناس — فى أماكن مختلفة من العالم — راقدين على فراش الموت .. وآخرون ، خلف الف نافذة ونافذة ، يعانون البؤس ، أو يتضورون جوعا .. وهناك المستشفيات المليئة بالمرضى والجرحى .. والسجون العامرة بالمعذبين .. والمصانع والمناجم والمكاتب التى يشقى فيها الملايين من البشر ، فى كل ساعة من ساعات النهار .. ولن يخفف من شقاء إنسان واحد ان يشقى إنسان آخر نفسه بنفسه ، بغير مبرر !.. بل لو حاول شخص أن يفكر فى مآسى الغير ، ويصور لنفسه صنوف البؤس التى تنطوى عليها الدنيا فى كل وقت ، لاستعصى عليه النوم ، وماتت البسمات على شفتيه إلى الأبد !

لكن منطق الحجة والإقناع لم يفلح طويلا فى إزالة اثر الكآبة التى اعترتنى فى ذلك الصباح ، والتى كانت أول أعراض ذلك السم الغريب الذى بدأ يسرى فى كيانى : سم « الشفقة » !.. أحسست أن شيئا غير عادى قد حدث لى ، فقد عشت حياتى قبل ذلك لا أبالى شيئا غير مطالب يومى . كان هناك من يدبر لى شئونى العائلية ويرسم لى مستقبلى ويختار مهنتى ، بغير ان احمل هما او افكر فى أمر ! وكان هذا التحرر الكامل من المسئولية جد مريح لى ، دون ان أشعر — فانى لم أشعر بمتعته إلا الآن ! — الآن حين ادركت فجأة ان شيئا قد حدث لى ، شيئا داخليا لا يبدو على السطح !.. لم أكد أطالع فى عينى الكسيحة تلك النظرة المنطوية على أعمق معانى الألم الإنسانى ، حتى أحسست شيئا يشطرنى

looloo www.dvd4arab.com

شطرين !.. لكنى شعرت الآن بدفء مفاجىء يسرى فى كيانى ويبعث فيه ما يشبه « حمى » غامضة ، أدركت معها أنى قد خرجت من الدائرة التقليدية التى عشت فيها آمنا من قبل ، إلى محيط جديد ، مثير ومقلق فى آن معا !.. وللمرة الأولى رأيت هاوية عاطفيــة تفغر فاها فى وجهى ، وتغرينى بأن القى بنفسى فيهـا .. لكنى فى الوقت ذاته سمعت هاتفا غريزيا يحذرنى من هذا الفضول النزق ، صائحا : « كفى !.. لقد قدمت لهمـا الاعتذار الكاف وكفرت عن حماقتك ، فقف عند هذا الحد ! » .. ثم أعقب هذا الصوت صوت آخر يهمس لى : « اذهب لتراها مرة أخرى ، وتشعر بتلك الرجفة من الخـوف والترقب تسرى فى نخاعك » .. لكن الصـوت الأول عاد يحذر : « ابتعد عن طريقها .. ولا تفرض وجودك على مشاعرها .. فان هـذه الانفعـالات الحادة لاكثر مما تحتمل هى ، أو تحتمل أنت ، وإلا فإن سذاجتك سوف تورطك فى حماقة ابشع من الأولى ! » .

على أن زمام الاختيـار لم يلبث أن أفلت من يـدى ، حين تلقيت بعد أيام ثلاثة خطابا من الهر كيكسفالفا يدعونى فيه إلى تناول العشاء فى داره مساء الأحد ، برفقة احـد كبار رجال وزارة الحـرب ، وآخرين ، ثم يضيف أن ابنته و « ايلونا » سوف يسرهما بصفة خاصـة أن احضر !.. ولا انكـر أنى شعرت ، تلقـاء هذه الدعوة ، بشىء من الزهو ، كمـا تبينت بوضـوح ما يبذله كيكسفالفا من جهـد كى يعرفنى ببعض ذوىَ النفوذ !

***

ولا حاجة بى إلى القول بأنى قبلت الدعوة على الفور ، ولم اندم على ذلك قط ، فقد كانت السهرة ممتعة حقـا . حظيت فيها بما لم احظ به فى حياتى من التفات كبار القوم الحاضرين إلى ، واحترامهم لى ، وسألنى موظف وزارة الحرب عما إذا كنت راضيا عن الفرقة التى أنتسـب إليهـا ، وعن آمالى فى الترقيـة ، ثم طلب منى الا اتردد فى زيـارته إذا احتجت إلى مساعدة أو هبطت (فيينا) فى اى وقت !.. وكما فى المـأدبة السابقة ، اديرت علينـا أطباق الطعـام الفاخر والشراب الشهى ، وتملكنى زهو صبيانى وانا ارى نفسى أستمتع بذلك الترف فى صحبة هؤلاء القوم البارزين !.. ووددت لو يرانى زملائى فى الفرقة وموظف وزارة الحرب يشرب نخب صحتى ، ومدير شركة السكر يبدى إعجابه بسعة اطلاعى !

وبعد أن دار علينا السقاة بالقهوة و « الليكير » والسيجار الفـاخر ، مال كيكسفالفا على اذنى ليخيرنى بين الانضمام — بعد العشـاء — إلى الرجال فى لعب الورق ، وبين البقاء لأثرثر مع الفتاتين . وكان طبيعيا أن اخترت البقـاء مع الفتاتين ، فما كنت لأخـاطر باللعب مع الموظف الكبير ، معرضا نفسى لاستيائه — لو ربحت — ولإفلاسى انا ، لو خسرت !.. فضلا عن أن جيبى لم يكن يحوى ليلتئذ غير عشرين ريالا ، هى كل ما تبقى لى من مرتب الشهر !

وهكذا بقيت مع الفتاتين . وبدت لى كلتاهما ابهى جمالا ورواء منهما فى المرتين السابقتين ، وبخاصة « اديث » ، التى لم ارها هـذه المرة شاحبة سقيمة كالمرة السابقة . ترى هل

Loolbo www.liilas4arab.com

وضعت شيئا من المساحيق الحمراء ، إكراما لضيوفها ؟.. أم ان بهجة السهرة قد أرسلت الحمرة إلى خديها ؟ على اية حال لم يكن ثمة اثر للتجاعيد حول شفتيها ، وللدوائر السوداء المحيطة بعينيها !.. اما « ايلونا » فقد خيل إلى انها كانت ثملة قليلا ، من فرط التماع عينيها .. وحين القت كتفيها المستديرتين الرائعتين إلى الخلف ، وهى تبتسم ، لم اجد بدا من التراجع إلى الوراء بدورى ، كى اتجنب إغراء لمس ذراعيها العاريتين !

وبعد عشاء كهذا ، وخمر طيبة اشاعت الدفء الممتع فى بدنى .. وفى صحبة حسناوين رائعتين إلى جانبى ، ما كنت لأجد أدنى صعوبة فى الثرثرة المرحة الطليقة ! صحيح انها كانت حكايات ونوادر تافهة تلك التى رويتها ، لكنى سريت بها عن الفتاتين إلى حد اثار دهشتى انا نفسى ، فلم تكفا لحظة عن الضحك ، ولا سيما اديث ، التى علت ضحكاتها الفضية ذات الجرس الرنان ، واحمرت وجنتاها النحيلتان الشفافتان — كالبلور — واضاءت وجهها مسحة من الصحة والجمال المشرق ، كما التمعت عيناها الغبراوان بمرح صبيانى .. بصورة ايقنت معها ان انشراحها حقيقى ، ينبع من اعماقها ! وكم كان جميلا أن يراها الإنسان تنسى عاهتها وتترك نفسها على سجيتها ، فتضحك ، وتشرب ، وتميل بجسمها إلى الخلف فى مرح ، وتجذب « ايلونا » إليها فتحيط كتفيها بذراعها !.. وشجعنى « نجاحى » فعادت إلى ذاكرتى عشرات النوادر الطريفة التى كنت قد نسيتها منذ زمن ،

وهكذا لبثنا ثلاثتنا نصخب ونهرج فى ركننا القصى ، كأطفال المدارس !.. على اننى برغم استغراقى فيما انا فيه ، لم يفتنى ان الحظ — بنصف وعى — عينين تراقباننى طيلة الوقت من خلف منظاريهما ، من مائدة اللعب القصية ، وترمقاننى بنظرة دافئة سعيدة ، ضاعفت من سعادتى .. وحين التقت أعيننا مرة ، فى اثناء ذلك ، اوما كيكسفالفا إلى إيماءة ودية وقد أشرق وجهه ! واستمرت حالنا على هذا المنوال حتى قرب منتصف الليل ، حين أدير علينا مدد جديد من الشطائر الشهية والمشروبات المعتقة والمرطبات ، فأكلنا جميعا وشربنا فى حرية وانطلاق . وأخيرا حان أوان الانصراف ، فهزت الفتاتان يدى كما لو كنت صديقا قديما عزيزا . وكان على أن أعدهم بالعودة إلى زيارتهم فى أقرب فرصة ، فى اليوم التالى أو الذى يليه .. وفيما انا أهم بارتداء معطفى ، أقبل مضيفى يعاوننى على ذلك ، فاحتججت فى خجل وحيرة ، ولكنه أصر هامسا لى : « أوه ، يا سيدى الملازم .. إنك لا تستطيع تصور مبلغ سعادتى بسماع ابنتى تضحك ثانية ، من أعماقها ! إنها لا تظفر من الحياة بغير فرص نادرة للمتعة ، وقد كانت الليلة كعهدى بها فى الأيام الخوالى ! » .

وكان فى لهجته من اللطف والدماثة والعرفان ، ما ملأ نفسى سعادة ويأسا فى وقت واحد ، حتى كاد تأثرى يفضحنى أثناء عودتى إلى المعسكر فى سيارة موظف وزارة الحرب ، بدعوة كريمة منه !

* * *

Looloo www.dvd4arab.com

لم أستطع النوم فى تلك الليلة — لفرط انفعالى — إلا بعد محاولات طويلة .. فقد شعرت ، للمرة الأولى فى حيـاتى ، بأننى كنت مصـدر نفع لمخلوق ما على الأرض !.. ولم يكن ثمـة حد لدهشتى وعجبى من كونى — وانا الضابط البسيط الخامل — يمكن أن يكون لى من السلطان ما يدخل السـعادة القصوى على قلب إنسان آخـر !.. ولكى أصـور مـدى نشوتى باستكشاف هـذه الحقيقة ، ينبغى ان اشير إلى أمر قد يكون فيه شىء من الإيضـاح : ذلك أنى منـذ طفولتى كان يسيطر على نفسى شـعور دائم بأنى مخلـوق تافه ، لا يثير احتفال الناس او اهتمامهم بأمره .. وخلال سنوات دراستى بالكلية الحربية لم يطرأ ما يغير هذا الاعتقاد ، فلم اكن فيهـا اكثر من طالب عادى متوسـط الذكـاء ، لا يدخل فى عـداد الطلبـة الموهوبين او المحبوبين . وظلت هـذه حـالى حين تخـرجت وعينت فى فرقتى ، فمـا كان اختفـائى او موتى ليثير فى نفوس زمـلائى غير شـعور وقتى بالرثاء ، ثم ينسى الجميع أمرى !.. وكمـا كنت فردا تافهـا فى نظر إخوانى ، كنت فى نظـر الفتيات القـلائل اللواتى عرفتهن فى القريتين السابقتين اللتين عسكرت فيهما الفرقة .. ففى الأولى كانت صديقتى ممرضـة فى عيادة طبيب اسـنان .. وفى الثـانية تعرفت إلى خياطة بسيطة الحال كنت اخرج للنزهة معهـا ، وفى يوم العطلة آخذها إلى غرفتى .. وقد أهديتها يوم عيـد ميلادها عقـدا صغيرا من المرجان . وحين نقلت ، تبادلنـا الرسـائل العاطفية المـألوفة فترة من الزمن ، ثم نسى كلانا صـاحبه !

فماذا حدث اليوم ؟.. هل يعقل ان شابا بسـيطا هـذا شأنه ، وليس فى جيبـه خمسـون ريالا يستطيع ان يدعى ملكيتها ، يدخل على قلب رجل واسـع الثـراء نصـيبا من السعادة عجـز عن إغداقه عليه جميع أصدقائه ؟.. وهل يعقل ان أكون — أنا المـلازم هوفميلر — مصدر نفع وعون وراحة لنبيل عريق فى المجـد مثـل كيكسفالفا ؟.. أو أننى إذا قضيت أمسـية أثرثر مع فتـاة كسيحة معذبة ، يشرق الهناء فى عينيها ، وتدب الحيـاة فى وجنتيها ، ويغمـر البيت الذى كان مأوى للكآبة فيض من النـور والحبـور ، بسبب وجودى .. أنا ؟!

.. وفى غمرة نشوتى وانفعـالى ، رحت اذرع الشوارع المعتمة بخطى سريعة أشاعت الدفء فى كيانى ، وانا أستمرىء استعراض المراحل القصيرة التى ادت إلى ظفرى بصداقة هؤلاء القـوم الكبراء بمثل هـذه السهولة !.. فماذا فعلت حتى بلغت هذه المكانة ؟.. لم أفعل أكثر من انى أظهرت شيئا من العطف ، وقضيت ليلتين ممتعتين ضحكت فيهما وثرثرت ، واكلت وشربت .. وكفى !.. وإذن فمـا أحمق وما أغبى أن يبدد المرء أوقات فراغه يوما بعـد يوم فى المقهى ، فى ألعاب سخيفة ، مع أناس سخفـاء .. أو يتسـكع فى الطـرقات كالبلداء !

.. وانتهيت من تفكيرى ، أنا الشاب الذى بعث نجاة إلى الحياة ، إلى وجـوب إحداث « انقلاب » تام فى اسـلوب معيشتى : إلى الإقـلال من التردد على المقهى ، وتطليق تلك

Loolaa www.dvd4arab.com

الجلسات البليدة التى تؤدى إلى تراكم الصدأ على الذهن ..
على أن اكثر من زيارتى لتلك المريضة البائسة ، وأحاول
التجديد فى وسائل تسليتها بمختلف الأحاديث والألعاب ،
كالشطرنج مثلا !

وأمدنى تصميمى على ان اكون مصدر عون ونفع
للآخرين ، بنوع من الحماسة ، فشعرت بميل شاذ إلى أن
أغنى ، إلى ان ارتكب اية حماقة ! فان الإنسان لا يحس أى
معنى أو هدف لوجوده حتى يتبين أنه – فى نظر غيره – مخلوق
له وزن ، واهمية ، واعتبار !

.. وفى الأسابيع التالية ، أخذت أقضى الجانب الأكبر
من امسياتى فى دار كيكسفالفا .. وسرعان ما غدت هذه
الجلسات – التى ترفع فيها الكلفة – بمثابة « عادة » لى ،
بل لقد انغمست فيها إلى درجة لها خطورتها !.. لم تكن
الساعة الخامسة مساء تجىء حتى أهرع إلى هناك ، فيفتح
لى الباب « جوزيف » رئيس الخدم مرحبا ، وأقابل من
الجميع كما لو كنت فردا من الأسرة .. ثم اجلس فى مقعدى
المختار المواجه لمقعد « اديث » ونأخذ ثلاثتنا فى الثرثرة
والضحك دون ادنى كلفة !

وثمة عامل هام ضاعف من نشوتى واستمتاعى برفقة
الفتاتين ، هو انى طيلة الأعوام الخمسة عشر السابقة – منذ
أرسلت فى سن باكرة إلى الكلية الحربية – عشت فى بيئة كلها
ذكور ، فنشأت وقد الفت حركاتهم وأصواتهم وخشونتهم ،
ورائحة التبغ التى تفوح منهم . وجو الذكور – مهما تكن

شخصيات أفراده – ينقصه دائما شىء ما ، فهو أشبه بجوقة
موسيقى الجيش « النحاسية » التى مهما يجيد عازفوها ،
تظل تنقصها نعومة الآلات « الوترية » !.. ولست انسى فى
هذا الصدد شعورنا ونحن طلبة فى الرابعة عشرة ، يوم كنا
نخرج فى طوابير للنزهة فى المدينة ، فتأخذنا الحسرة حين نرى
اندادنا فى السن يستمتعون بصحبة الفتيات التى تحرمنا
منها ستراتنا العسكرية ذات الأشرطة الذهبية الأنيقة !..
كنا أشبه بسجناء خلف قضبان حديدية ، ننظر إلى هذه
المخلوقات الناعمة نظرتنا إلى جنيات مسحورة ، ونحلم
بحديث واحد مع فتاة ، كما يحلم الإنسان بغاية مستحيلة !..
مثل هذا الحرمان لا ينسى بسهولة ، وأحلام الصبا العاطفية
لا تكفى فى التعويض عنها تلك المغامرات الرخيصة التى
عرضت لنا فيما بعد مع نساء الهوى المحترفات وأمثالهن ..
بل أستطيع أن أقول إنى بعد ان قضيت ليالى كاملة فى مخدع
نساء من ذلك الطراز ، ظللت كالعهد بى ، أرتبك كلما قدمت
إلى فتاة فى مجتمع !

أما الآن ، فان اشتياقى الطويل إلى عقد صداقة مع
فتيات من الجنس الآخر ، قد بلغ هدفه فجاة ، وعلى الوجه
الأكمل !.. وصار جلوسى إلى الفتاتين كل مساء ، والاستمتاع
بأنوثة صوتهما وحركاتهما ، يدخل على قلبى شعورا بالبهجة
والانشراح .. وكم أسعدنى أن أجد نفسى – للمرة الأولى فى
حياتى – قد تحررت من خجلى الممقوت فى حضرة الفتيات !..
بل تحررت ، نظرا للظروف الشاذة التى نشأت فيها صلتنا ،

Looloo
www.dvd4arab.com

من ذلك التوتر او « التكهرب » الذى يسود الجو عادة كلما خلا رجل وامراة معا ، لفترات طويلة من الوقت .. واعترف بأنى فى البداية لقيت عناء كبيرا فى مقاومة إغراء شفتى «ايلونا» الممتلئتين الشهوانيتين ، وذراعيها البضتين الجميلتين ، والجاذبية الحسية التى تشع من كل حركاتها الناعمة المياسة ، حتى لقد اضطررت اكثر من مرة إلى ان ارد يدى قسرا فى آخر لحظة عن الرغبة فى لمس المخلوقة الدافئة الناعمة ، ذات العينين السوداوين الضاحكتين ، واحتوائها بين ذراعى ، وتغطية جسمها بالقبلات !.. ولكن « ايلونا » كانت قد اسرت إلى منذ بداية تعارفنا انها مخطوبة منذ عامين إلى طالب حقوق ، وانها لا تنتظر كى تتزوج منه غير تحسن حالة اديث ، او شفائها تماما .. وقد فهمت من ذلك ان كيكسفالفا قد وعد ابنة أخته الفقيرة ببائنة سخية ، لو انتظرت حتى ذلك الحين !.. وفضلا عن ذلك ، فانه كان من الغدر البين ، والخيانة الآثمة ، ان نتبادل القبلات الحامية — عن غير حب — من وراء ظهر المخلوقة البائسة المقيدة فى قسوة إلى كرسيها ذى العجلات !

وهكذا لم تلبث فتنة « ايلونا » ان صارت لا تثير قلقى واضطرابى !.. فى الوقت الذى تركزت فيه عواطفى فى الفتاة الكسيحة العاجزة التى قست عليها الحياة .. حتى غدا يسعدنى ان اجلس إليها نأسرى عنها ، وارى ابسامة الغبطة على فمها ، ونظرة العرفان فى عينيها ، وانعم بمختلف متع صداقتنا البريئة .. أكثر مما يمكن ان يسعدنى اى غرام جارف مع امراة اخرى !

وبفضل هذه الانفعالات الروحية الخفيفة التى سمت بى إلى طبقات العاطفة العليا ، اكتشفت مناطق شعورية رقيقة لم اكن اعرفها من قبل ! والإنسان بطبعه حين يتذوق متعة عاطفة ما ، فى سنى الشباب ، يعجز عن الارتواء منها ، او الاكتفاء بقدر .. وهكذا لم اكد اسمح لشعور الشفقة بأن يتسلل إلى اعماقى ، حتى بدا لى كأن سما غريبا قد وجد طريقه إلى دمى، فزاده حرارة وسرعة ، واحمرارا وتدفقا !.. وجدتنى فجأة استجيب لمائة مؤثر ومؤثر لم يكن لها على فيما مضى ادنى تأثير ، كأنما تلك النظرة الأولى إلى آلام الآخرين قد منحتنى عينا جديدة ، افطن وعيا ، واذكى بصيرة !.. ولما كانت دنيانا متخمة بالمآسى العنيفة ، حافلة بالبؤس المفجع والأسى المرير ، فقد بت أقضى أيامى ، ليلى ونهارى ، مرهف الحس ، متفتح الشعور .. ولأول مرة وجدتنى بغتة اعجز عن ان اقسو على الجواد الحرون بضربة وحشية !.. واتقزز الما واشمئزازا حين يفاجىء ضابط جنديا غبيا بلطمة شديدة من قبضة يده !.. وفى الوقت الذى كان فيه زملائى يضحكون ساخرين من المضروب ، كنت وحدى المح دموع الخجل الحارة تلمع على اهدابه ، تحت اجفانه المطرقة !.. بل إنى غدوت فجأة اضيق بنكات الزراية والاستهزاء التى يسلق بها بعض الزملاء سيرة من يوقعه حظه السىء تحت السنتهم !

لقد صرت — منذ لمست فى شخص اديث المسلوبة الحول والطول عذاب العاجزين التعساء — اثور غضبا لأى فعل فيه قسوة ، واذوب شفقة على المنكوب بأية صورة من صور

loolgo www.dvd4arab.com



وقبل المعسكر ببضع مئات من الأمتار طلبت من السائق الوقوف ، وهبطت هناك — حتى لا يرانى أحد ..

Looloo
www.dvd4arab.com

العجز !.. وكم من أمور تافهة — لم أكن من قبل الحظها ! — غدوت أتنبه لها منـذ ألقت المصادفة فى عينى تلك القطرات الأولى الحارة من الاشفاق !

وقلت لنفسى : « منذ الآن ساجعل رائدى ان أساعد أى إنسان . سأكف عن جمودى وعدم مبالاتى .. وليكن مصير كل شخص مصيرى ، ولأجعل شفقتى تتسع لشتى وجـوه الألم البشرى .. ولأتوجه بقلبى شاكرا للفتاة الكسيحة أنهـا علمتنى — من خلال آلامها — سحر الشفقة وقوتها ! » .

* * *

على أنى لم ألبث أن استيقظت من أحـلامى العاطفية ، فى شىء من العنف ! كنا نلعب « الدومينو » ذات مسـاء ، ونحن نثرثر ونضحك كعادتنا ، فغفلنـا عن مرور الوقت .. حتى حانت منى نظرة إلى الساعة فاذا هى قد بلغت الحادية عشرة والنصف ، وإذ ذاك نهضت من فورى استأذن فى الانصراف .. وبينما كان مضيفى يرافقنى إلى الباب ، بلغ مسامعنا صـوت كطنين النحل . كان المطـر ينهمر فى الخارج بغزارة ، فاصر كيكسفالفا على تكليف سـائق سيارته بأن يوصلنى بها إلى المعسكر .. وانطلقت بى السيارة الفاخرة تنهب الطريق فى سهولة ويسر . وقبل المعسكر ببضع مئات من الأمتار طلبت من السائق الوقوف ، وهبطت هنـاك — حتى لا يرانى أحـد الرؤساء أهبط من السيارة الفارهـة امام باب المعسـكر ، والسائق ينحنى لى وهو يفتـح بابها ، كأنى نبيل عريق ! — لقد كنت أعلم أنهم يمقتون مثل هـذه المظاهر . وكنت ، إلى

جانب ذلك ، قد حرصت خلال الأسابيع السابقة ، بوحى من غريزتى ، على تجنب الخلط بين عالمى المتناقضين : عالم الأبهة والترف فى دار كيكسفالفا ، حيث كنت رجلا حرا مدللا .. وعالم الصرامة والواجب ، حيث لم أكن أكثر من شاب فقير ، يعد نفسه سعيداً حين يكون الشهر ثلاثين يوما ، لا واحدا وثلاثين !

وما كدت اهبط من السيارة على مسافة من المعسكر ، وأرفع ياقة معطفى تأهبا لعبور المرحلة الباقية مسرعا ، حتى اشتد المطر وهاجت العاصفة ، فرأيت أن احتمى منهما داخل باب إحدى الدور حتى تفرغ السماء ميازيبها .. ثم تذكرت انى على بعد أمتار من مقهاى القديم ، ولمحت النور ينبعث منه ، فرايتها فرصة مناسبة للقاء الزملاء الذين انقطعت فجاة عن مجالستهم منذ اكثر من اسبوعين !.. ووجدت منهم فى ركنهم المألوف : جوسى ، وفيرنز ، وجولدبوم — طبيب المعسكر — فهتف « فيرنز » حين رآنى من بعيد : « هالو .. ها هو ذا « تونى » ! » ، وأردف الطبيب : « يا له من شرف لمقهانا المتواضع ! » .. واستدارت نحوى ست عيون مستطلعة ، فسرنى ترحيب الزملاء بى ، برغمانقطاعى الطويل عنهم دون إيضاح أو اعتذار !.. وأقبل الساقى يجر قدميه جرا من فرط النعاس ، فطلبت قدحا من « القهوة السوداء » . وسألت الإخوان عن اخبارهم .. فنفخ فيرنز شدقيه وقال فى لهجة تمثيلية : « أحدث اخبارنا أن سعادتكم قد تنازلتم فشرفتم مقرنا المتواضع بطلعتكم النبيلة ! » .

ونظر إلى الجميع فى مرح تهكمى ، فشعرت بقلبى يغوص فى قدمى ، وفكرت فى المبادرة بالفرار قبل ان يسألنى الخبثاء اين قضيت الفترة السابقة ، ومن أين جئت الآن ؟!.. ولكن قبل أن يستقر تصميمى على شيء ، غمز فيرنز بعينه لجوسى ، وقال : « انظر .. ما رايك فى هذه الظاهرة الغريبة : حذاء لامع نظيف فى هذا الطقس المطر !؟.. وسيجار فاخر فى الجيب ، سبقه ولا ريب عشاء ممتع ، وكافيار ، ودجاج .. الخ » . وهنا انضم جوسى إلى زميله فى السخرية ، فقال : « الشيء الذى أعتب فيه على صديقنا العزيز « تونى » أنه بدلا من ان يذكر لمضيفيه أن له أصدقاء ظرفاء مهذبين ، يعرفون آداب المائدة ، ثم يأخذهم معه إلى هناك ، ابى إلا أن يذهب وحده ولسان حاله يقول : « دعهم يملئون بطونهم بمشروبات المقهى القذرة وأطعمته الكريهة ، ولأنعم أنا بكل الطيبات ! » .. فيا له من مسلك نبيل ! » .

وانفجر الثلاثة ضاحكين ، فى الوقت الذى احمر فيه وجهى كالقرمز ، وقد ساءنى أن يتنبه الخبثاء إلى السيجار الذى اعتاد كيكسفالفا ان يضعه فى جيبى كل ليلة قبل خروجى !.. لكنى لم اجد بدا من تكلف ضحكة مغتصبة لإخفاء ارتباكى ، ثم سارعت إلى إخراج علبة سجائرى ومددت يدى بها إليه ، لكنى أدركت توا أننى بتصرفى هذا حاولت إصلاح الموقف بحماقة ابشع : فقد كانت العلبة هدية من الفتاتين ، طاب لهما ان تفاجئانى بها منذ ايام — لمناسبة عيد ميلادى الخامس والعشرين — وقد دستاها لى بين الطبق والمنشفة :

www.dvd4arab.com

على مائدة العشاء !.. وكان طبيعيا ان يتلقف الزملاء هـذه « القفشة » الجديدة فيوسعوننى تهكما ، فقد هتف فيرنز من فوره وهو يصفر بفمه ويتناول العلبة كلها من يدى ــ ولم يكن فى وسعى ان أمنعه ! ــ ثم يزن ثقلها فى راحة يده : « هو هوه ! .. مظهر آخر من مظاهر الترف !.. إنها من الذهب الخالص فيما احسب ، اليس كذلك يا جولدبوم ؟ » .

وكان الطبيب « جولدبوم » ابن صائغ يهودى من صـياغ الذهب ، فتناول علبة السـجائر فى يده ووضع منظاره على عينيه ، ثم راح يفحصها فحص الخبير الواعى ، وقال اخيرا : « نعم ، إنها من الذهب الخالص ، تحفة يسيل لها لعاب الفرقة بأسرها ، ولا تقل قيمتها عن ثمانمائة ريال ! » .

وبعد ان نطق بهذا الحكم الذى ادهشنى انا نفسى ــ فقد كنت أحسبها مطليـة بمجـرد « قشرة » فقط من الذهب ــ ناولها بدوره إلى جوسى ، الذى جعل يقلبها بين يديه فى احترام وتوقير لقيمتها ، ثم فتحها فى حذر .. وإذا هو يصيح مهللا : « يا له من إهداء .. اسمعوا يا رفاق : « إلى صديقنا العزيز انطـون هوفميلـر ، فى عيـد ميـلاده .. من « ايلونـا » و « اديث » !.. وحملق الثلاثة فى وجهى ! بينما صاح فيرنز : « يا للشيطان ! إنك تحسن اختيار اصدقائك فى هـذه الأيام ، فأهنئك ! لقد كنت خليقا أن تعد نفسك سعيـدا لو أهديتك علبة كبريت معدنية مثلا ! » .. واحسست بغصة فى حلقى ! غدا تعلم الفرقة كلها بقصة العلبة الذهبية ، بل تحفظ عبـارة الإهداء عن ظهر قلب !.. وسـوف يحـرجنى « فيرنز » فى

نادى الضباط ، ويطالبنى بعرض الهـدية على الرؤساء .. فتتناقلهـا أيديهم ، ويتجـاوب المكـان بصـدى ضحكاتهم الساخرة .. ثم يجىء دور استجوابى عن مصدرها ، وعندئذ يستحيل على أن أرفض طلب رؤسائى ، أو أكذب عليهم !!

.. وفى غمـرة ارتباكى ، أردت ان أغير مجرى الحديث ، فقلت متسائلا : « هل منـكم من يريد ان يلعب مباراة شطرنج أخرى ؟ » .. فصاح جوسى ضاحكا : « أتسمع يا فيرنز ؟ فى الثانية عشرة والنصف ، والمقهى يوشك أن يغلق أبوابه ، يريد أن يبدأ اللعب ! » .. فقـال الطبيب معلقـا : « إن الرجل السعيد لا يشعر عادة بمرور الوقت ! » .

ثم خرجنـا ، بعد أن تبادلوا الضحك ، وكان المطـر قـد انقطع ، فمشينا إلى المعسكر .. وهناك تصافحنا وتفرقنا . وقال لى فيرنز وهو يضرب على ظهـرى : إننـا مسرورون بعودتك إلينا يا صاح .. » واعتقد انه كان مخلصـا ، فلم أملك أن ساءلت نفسى ، بعد انصرافهم : « لماذا أحقد عليهم ؟ .. إنهم اصدقاء ظرفاء ، وقلوبهم خالية من الحسد أو الخبث ، وهم لم يقصدوا بدعابتهم غير المزاح ! » .

* * *

على ان مزاحهم ودعابتهم قد أتلفـا فى نفسى شيئا لا يمكن إصلاحه ، ذلك هو ثقتى بنفسى !.. فحتى تلك الليـلة كانت صـلتى بأسرة كيكسفالفا قـد زادتنى تقديرا لنفسى ، منـذ شعرت ــ لأول مرة فى حياتى ــ أنى مصـدر نفـع وعـون

للآخرين.. ولكن انى لأولئك الزملاء الماجنين ان يدركوا المعانى السامية التى انطوت عليها تلك الصلة ؟.. إن كل ما جال بخاطرهم انى رحبت بضيافة البيت الكريم المترف كى انعم بثراء القوم ، فأوفر أجر وجبة العشاء ، واظفر بالطعام والشراب الفاخرين ، والهدايا الثمينة !. .ولم يكن الخبثاء يلومونني فى قلوبهم من أجل ذلك ، أو يرون فيه أدنى غضاضة ، أو معنى من المعانى المنافية للشرف والكرامة ، بل كانوا يعتقدون اننا — نحن ضباط سلاح الفرسان — إنما نضفى على أولئك الأثرياء « الحمقى » شرفا مضاعفا ، بالجلوس إلى مائدتهم !.. ومن ثم كانت نظرة الزملاء إلى علبة سجائرى الذهبية منطوية على الاحترام لبراعتى فى « استغلال » كرم « الصيد الدسم » الذى ظفرت به !.. وكان هذا — بالذات — مبعث غيظى وحنقى .. فقد انتهى بى التفكير فى الأمر إلى ان بدأت اتشكك فى حقيقة دوافعى النفسية التى تغرينى بالتردد على القصر كل حين !.. وبدأت أسائل نفسى: « ترى هل انا طفيلى حقا ؟ وهل يليق بمثلى ان يتقبل المآدب المتصلة ، والهدايا المتلاحقة ؟ وتذكرت فجأة ملاحظة أبداها كبكسفالفا عن بلادة جوادى الخاص — وكنت ما ازال أدفع ثمنه بالتقسيط — وكيف انتهى الرجل منها إلى التفكير فى أن « يقرضنى » من حظائره العامرة جوادا ممتازا من جياد السباق !

وقلت لنفسى : « كلا ! هذا كثير .. إنه إنما يحاول ان « يشترينى » ، يدفع نقدا ثمن عطفى وإشفاقى على ابنته ،

وتسليتى إياها .. تماما مثلما وعدا « ايلونا » ببائنة فى مقابل بقائها لتمريض الفتاة المسكينة والترفيه عنها !.. وانا — بسذاجتى المعهودة — وقعت فى هذا « الفخ » دون ان ادرك اننى بذلك صرت طفيليا ! » .

ولكنى عدت اقول لنفسى ايضا : « هذا محض هراء ! إن الرجل يحبنى كما لو كنت ابنا له .. والفتاتين تعاملاننى بكل ترحيب واحترام ، وتسران كلما رفعت الكلفة معهما كأنى فى بيتى ! » ..

ولكن ماذا يجدى أى قدر من الإيحاء النفسى ، والتشجيع الذاتى ، إذا كان توازن الشخص الداخلى قد اختل واضطرب ؟ لقد زعزعت عبارات زملائى ثقتى فى حقيقة دوافعى الشخصية ، فجعلت أسأل نفسى ملحا مكررا : « هل أنا أذهب إلى هناك — حقا — بدافع الشفقة على الكسيحة ؟ .. أم بدافع الرغبة فى قضاء وقت طيب فى رفقة قوم كرماء ؟ .. على أية حال يجب أن أوقف الأمر عند هذا الحد ، كيلا يظن أحد أنى فرضت نفسى على القوم وتطفلت عليهم ! ».

وهكذا قررت أن أطيل المدى بين زياراتى للقصر فى المستقبل ، وأن امتنع عن الذهاب إليه فى اليوم التالى !.. ثم نفذت هذا القرار فلم أذهب فى اليوم التالى إلى القصر ، بل خرجت بعد انتهاء عملى فى صحبة جوسى وفيرنز إلى المقهى ، حيث قرانا الصحف واشتركنا فى بعض الألعاب .. لكنى لعبت وانا شارد الذهن ، فقد كانت على الحائط المواجه لى ساعة كبيرة لم تكف عقاربها عن شغل أفكارى وانتباهى ..

www.dvd4arab.com

الرابعة والثلث .. الرابعة والنصف .. الخامسة إلا ثلث .. الخامسة إلا عشر دقائق .. وكنت قد عودت آل كيكسفالفا أن أصل إلى دارهم فى الرابعة والنصف بالضبط ، فأجد الشاى معدا .. وإذا حدث أن تأخرت يوما ربع ساعة ، لأمر ما ، استقبلونى متسائلين فى قلق : « هل حدث شىء ؟ » .. وإذن فلا بد أن أنظارهم الآن معلقة بالساعة مثلى ، والانتظار يمضهم بدورهم !.. ومن ثم رأيت لزاما على أن اعتذر لهم بالتليفون ، أو أرسل إليهم تابعى ، ورأيت أن اتخلص من مواجهتى للساعة بابدال مكانى مع احد اللاعبين ، بزعم أن مقعدى لا يجلب الحظ .. لكن اعصابى ظلت مرهفة ، ولأول مرة ادركت أن العطف الصادق لا يمكن قطع تياره بالسهولة التى يقطع بها « التيار الكهربائى » .. وأن كل من يشغل نفسه بمصير إنسان غيره فلا بد أن يفقد — إلى حد ما — حريته !

ولكنى عدت أعنف نفسى على اهتمامى الزائد بتخلفى عن الزيارة اليوم . وبحكم القانون الطبيعى لتسلسل الأفكار ، الذى يجعل الشخص الحانق يصب غضبه عادة على شخص آخر برىء تماما ، ولا صلة له ببواعث ذلك الحنق .. فانى صببت غيظى المكتوم على كيكسفالفا ، لا على جوسى أو فيرنز !.. واخذت احدث نفسى قائلا : « فلينتظرونى مرة فى العمر .. سوف أريهم انى لست بالذى يشرى بالهدايا والطعام والشراب ، وانى لن اواظب على زيارتهم مواظبة المعلم ، أو المدلك المأجور ! » .

وهكذا بقيت فى المقهى ، متحاملا على نفسى ، ثلاث ساعات ونصف ساعة .. كى اثبت لنفسى اننى ما زلت حرا ، اذهب حيثما أريد ووقتما اريد ، وأن الطعام الفاخر والسيجار الغالى — وما إليهما ; — لا تهمنى فى كثير أو قليل !.. وحين غادرنا المقهى ، اقترح فيرنز أن نتنزه مشيا على الاقدام ، لكنى لم اكد اطأ الرصيف حتى تنبهت إلى نظرة خاطفة من عينين مألوفتين لدى ، مر بى صاحبهما مسرعا .. أليست هذه « ايلونا » ؟.. إنها هى بلا شك ، ولو لم اعرفها من ثوبها النبيذى اللون ، وقبعتها الخفيفة ذات الشريط العريض ، لعرفتها من اهتزاز ردفيها الرشيقين أثناء سيرها .. ولكن ، ترى إلى أين تهرع بهذه السرعة ؟

وودعت صديقى فجأة ولحقت بالفتاة .. وحين استوقفتها أخيرا لم يبد عليها اثر للدهشة ، فأدركت أنها رأتنى وهى عابرة ، وقلت لها : « يا لها من مصادفة رائعة أن اقابلك هنا ! لقد طالما أردت أن أريك معالم مدينتنا العسكرية المقبضة ، أم تفضلين أن نجلس فى حانوت الحلوانى بعض الوقت ؟ » .. لكنها اعتذرت بأنها تبغى العودة إلى البيت على عجل ، ولما لم تفلح محاولاتى لإقناعها عرضت عليها أن اصحبها إلى السيارة التى تنتظرها فى مكان قريب .. وفى اثناء الطريق سألتنى عفوا خلال الحديث : « على فكرة ، لم لم تأت عصر اليوم ؟ » .. فزعمت لها أن رئيسى أخذنى معه ليرينى حصانا يريد أن يشتريه ، ويطلب منى أن اركبه على سبيل التجربة — (وكانت هذه الواقعة قد حدثت منذ شهر كامل !) —

Looloo
www.dvd4arab.com

فقالت وهى تكظم عصبيتها : « ألا تحضر معى الآن على الأقل للعشاء ؟ » .. فهمست لنفسى على الفور : « كن حازما ولا تتراجع . اصمد يوما واحدا على الأقل ! » .. فأجبتها وأنا أتنهد أسفا : « كنت أحب أن آتى ، لولا أن لدينا اجتماعا مهما فى هذا المساء .. » ، فصمتت ولم تعلق بكلمة ، حتى دلفت إلى داخل السيارة ، فسألتنى خلال النافذة : « هل ستأتى غدا ؟ » . فقلت : « أوه نعم ، سأحضر بلا شك » .

.. وحين مضت بها السيارة انتابتنى الهواجس ، وسألت نفسى : « لماذا كانت ايلونا متعجلة مرتبطة ؟.. وهل لم يكن يجدر بى أن أكفلها بابلاغ تحيتى إلى خالها وابنته ؟ » .. لكنى سررت من ناحية أخرى لأنى صمدت ولم أذهب ، كى لا يزعم أحد أنى من المتطفلين !

الفصل الرابع

اغفاءة .. ساعة الغروب

وذهبت فى اليوم التالى إلى القصر ، فى الموعد المعتاد ، فاستقبلنى « جوزيف » مرحبا بقوله : « إن الآنسة قد صعدت إلى البرج ، وطلبت أن يلحق سيدى الملازم بها فورا متى حضر ! » .. ثم عرض الخادم أن أستقل المصعد الكبير الذى أعده صاحب القصر خصيصا بعد نكبة ابنته ، حتى لا يحرمها من الصعود بمقعدها إلى الشرفة الجميلة التى قضت فيها أسعد أوقات طفولتها .. لكنى آثرت الصعود بالسلم ، لأستمتع بالمناظر الخلابة المحيطة بالقصر ، من نافذة

كل طابق .. وحين بلغت السطح الفسيح تأهبت للقاء الفتاة ، وكان ظهر مقعدها إلى ، وإلى جانبها منضدة صغيرة عليها بعض الكتب ، و « جراموفون » مفتوح .. فرأيت أن أدور حول مكانها من بعيد حتى لا أفاجئها من الخلف مباشرة فتفزع .. فلما أتممت دورتى وصرت فى مواجهتها ، تبينت أنها نائمة ! وكانت ساقاها مدثرتين بغطاء ثقيل ، وقد أراحت رأسها على وسادة بيضاء ، وأحاطت بوجهها الشاحب ــ المفعم طفولة ــ هالة من الشعر الفاتح ، المائل إلى الحمرة .. بينما أضفت الشمس الغاربة على وجنتيها مسحة من ذهب وكهرمان ، تنم عن الصحة !

وانتهزت الفرصة لأتأمل الفتاة على مهل ــ لأول مرة ــ كما لو كانت صورة .. فانها ــ ككل ذات طبيعة حساسة ــ لم تكن وهى مستيقظة تسمح للعين بأن تراقبها أو تتأملها بنظرة طويلة فاحصة . أما الآن فقد أتيحت لى الفرصة كاملة ، وإن كنت أحسست كأنى أرتكب أمرا غير لائق ، بل كأنى أغتصبها بالإكراه !.. كانت الطفولة والأنوثة تختلطان فى معالم وجهها بصورة جذابة .. وراحت شفتاها المنفرجتان قليلا ــ كما لو كانت ظامئة ــ تتنفسان فى هدوء ورقة . ولكن حتى هذا المجهود الضئيل كان يرفع صدرها الواهن ويخفضه فى حركة ملحوظة . أما وجهها الشاحب ، المقيم وسط هالة شعرها كعصفور فى عشه ، فقد غاص فى الوسادة ، وبدا كالمنهوك الذى امتص منه دمه !.. واقتربت منها أكثر ، فى حذر بالغ ، فاذا الظلال التى تحت عينيها ، والشرايين الزرقاء

Looloo www.dvd4arab.com

على صدغيها ، والشفافية الحمراء لخياشيمها ، تظهر مدى رقة بشرتها التى تحمى لحمها المرمرى الشاحب من العالم الخارجى . وحدثت نفسى قائلا : « ما أرهف إحساس الشخص الذى تكون أعصابه مكشوفة هكذا ، وملاصقة للسطح الخارجى .. وكم يكون ألم الشخص الذى له مثل هذا الجسد الهوائى الخفيف ، الذى كأنما جعل ليحلق ويرقص ويسبح ، حين يحكم عليه بأن يقيد — فى قسوة — إلى الأرض الثقيلة الصلبة !.. مسكينة هذه المخلوقة الكسيحة ! » .

ومرة أخرى أحسست فى أعماقى اضطرام تلك الشفقة الموجعة ، المنهكة ، الضارية ، التى تغمرنى كلما فكرت فى الفتاة التعسة .. فاضطربت يدى ، وانتابنى حنين قوى إلى أن ألمس ذراعها فى رقة ، وأن أنحنى عليها وأقطف ابتسامة من شفتيها ، فى اللحظة التى تستيقظ فيها وتعرفنى !.. وشعرت بشوق جارف إلى أن أدنو منها ، وأظهر لها عطفى البالغ ورقتى .. لكنى عدت فقررت أننى ينبغى ألا أقطع هذا النعاس الشهى الذى يبعدها عن نفسها وعن بشاعة حياتها الواقعية !.. إنه لمن أمتع الأشياء أن يكون الإنسان قريبا من المرضى خلال نومهم ، حين تعتقل كل أفكارهم المحمومة فينسون تماما علتهم ، حتى لتشرق أحيانا على شفاههم المنفرجة ابتسامة كأنها الفراشة على ورقة واهنة من أوراق الشجر .. ابتسامة غريبة عنهم ، ولا تمت إليهم بصلة .. ابتسامة تطير مجفلة ، لحظة يستيقظون !

على أن أقوى ما حرك أشجانى فى تلك اللحظة أن يديها

المعروقتين النحيلتين ، كانتا ممدودتين فوق مسندى المقعد بأظفارهما الشاحبة وعظامهما الرقيقة الواهنة .. وقلت لنفسى : « هاتان اليدان الضعيفتان ، اللتان لا تقويان على أكثر من حمل الحمائم والأرانب والعصافير .. كيف يمكن قهر الألم بهما ؟ » .. وأحنقنى أن أتذكر يدى القويتين الثقيلتين ، اللتين تسيطران على زمام أضخم جواد بغير عناء !.. ودون وعى منى انتقل بصرى على الأثر إلى الغطاء السميك الثقيل الذى يغطى ركبتيها الهزيلتين ، والذى تستكين تحته ساقاها العاجزتان ، المجردتان من الحياة ، مقيدين فى وثاقهما الحديدى أو الجلدى .. وتذكرت كيف تجر الفتاة الجهاز القاسى معها فى كل خطوة ، هى المخلوقة الرقيقة التى جعلت لتطير وتحلق وتقفز ، أكثر مما جعلت لتمشى على قدمين !

ولم أستطع قمع رعشة سرت فى كيانى ، وكانت من القوة بحيث هزت جسمى وجعلت مهمازى يصطكان فيحدثان صوتا فضيا خفيفا ، لكنه كان كافيا لأن يخترق نقاب نعاسها الشفاف ، فتنفست نفسا طويلا مضطربا ، وبدأت يداها تتحركان ، وأصابعها كأنما تتثاءب !.. ولم تلبث أن اختلجت أجفانها ، وخفقت أهدابها .. ثم انفرجت .. فوقعت نظرتها على ، جامدة خرساء فى أول الأمر ، وأخيرا استيقظ وعيها ، فعرفتنى .. وإذ ذاك اندفع الدم دافقا قرمزيا إلى وجنتيها ، كما يصب النبيذ الأحمر دفعة واحدة فى كأس من البللور !.. وقالت متجهمة : « ما كان أغبانى حين نمت ! » ، ثم جذبت الغطاء على ركبتيها — كأنى فاجأتها عارية تماما ! — وأردفت

Loolog www.dvd4arab.com

متحدية : « لم لم توقظنى فورا ؟ لا يليق أن تنظر إلى شخص وهو نائم ، فاننا نبدو مضحكين ونحن نيام ! » .. فأجبتها محاولا إنقاذ الموقف ، بنكتة : « هذا خير من ان نبدو مضحكين ونحن مستيقظون ! » .. لكن تقطيبتها ازدادت وضوحا ، وبدأت شفتاها ترتجفان فى انفعال ، ثم فاجأتنى بهذه العبارة وهى تحدجنى بنظرة حادة :

— لماذا لم تأت يوم أمس ؟.. لابد انه كان لديك عذر قوى يبرر أن تتركنا ننتظر .. وإلا فقد كان فى استطاعتك على الأقل ان تتصل بنا بالتليفون !؟

..كان الهجوم مفاجئا ، قويا زعزع جرأتى على الكذب — وجرأتى على ذكر الحقيقة ، فى آن واحد ! — فرحت اردد عذرى المختلق فى ارتباك ، وانا انقل ارتكاز جسمى من قدم إلى قدم ، بينما أصغت هى إلى روايتى نافدة الصبر .. وأخيرا قالت فى لهجة صارمة ، باردة : « آه .. وبماذا انتهت هذه القصة المؤثرة ؟ هل اشترى رئيسك الحصان آخر الأمر ؟ » .. وقبل أن أجد مخرجا من ورطتى ، استطردت فى حدة : « دعك من هذه الأكاذيب المضحكة ، فما من كلمة واحدة صحيحة مما تقول !.. كيف تجرؤ على ان تحاول خداعى بهذه الأعذار المختلقة ؟ » .

والقت بالقفاز الذى كانت تضرب به ذراع المقعد على الأرض فى عصبية ، ثم استطردت : « إنها كلها سلسلة من المخترعات ، فلا أنت كنت مع رئيسك ، ولا كانت هناك تجربة للخيل .. وإنما الصحيح أنك كنت فى المقهى منذ الساعة

الرابعة والنصف ، وفى السادسة رآك سائق سيارتنا ، وكنت ما تزال تلعب مع زملائك ! » .

.. وقبل أن تفك عقدة لسانى ، مضت الفتاة فى حملتها التأنيبية ، فاستطردت : « ولهذه المناسبة ، لست أرى داعيا لأن أعاملك بالمثل ، فأكذب عليك بدورى ، لأنى لا اخشى الحقيقة .. وإذن فلتعلم ايضا ان سائقى لم يرك عفوا ، وإنما كنت انا التى أرسلته إلى المعسكر ليسأل عما جرى لك ، فقد حسبتك مريضا — سيما وانك لم تخطرنا بالتليفون مقدما — ثم انى بطبعى لا اطيق الانتظار .. قد تظننى متهوسة ، لكنى هكذا خلقت !.. وفى المعسكر قيل للسائق إنك بخير ، وانك منهمك فى اللعب مع زملائك فى المقهى !.. وعندئذ طلبت من « ايلونا » أن تذهب لترى سبب معاملتك إيانا بهذا الجفاء ، وهل يمكن أن اكون انا قد اسأت إليك فى اليوم السابق ؟ — فإنى أتهور فى الحديث أحيانا ، لست انكر هذا ! — والآن ، وقد عرفت الحقيقة كلها ، افلا تخجل من اكاذيبك ؟ » .

.. وهممت بأن أعترف لها بقصة « جوسى » و « فيرنز » معى .. لولا أنها استطردت دون توقف ، قائلة : « كفانا استماعا للقصص المختلقة ، إذا سمحت ! لا داعى للأكاذيب المتوالية ، فقد ضقت ذرعا بالأكاذيب ، شبعت منها حتى أتخمت !.. انهم لا يكفون عن محاولة التمويه على كل صباح ومساء ، لإيهامى بأنى فى طريق الشفاء ، وان حالتى قد تحسنت كثيرا ، وما من واحد منهم يدرك ان هذا يحنقنى أكثر من الحقيقة !.. لم لم تذكر لى [illegible] صراحة ،

Looloo
www.dvd4arab.com

إنه لا وقت لديك ، ولا ميل ، للحضور ؟ كان يسرنى أن تتصل
بنا — ولو بالتليفون — لتذكر أنك ستقضى السهرة مع
أصدقائك . أو تعتقد أنى من الغباء والسخف بحيث لا أقدر
أنك تمل أحيانا صحبتنا المستمرة ، وتتوق إلى قضاء وقت
فراغك فى ركوب الخيل أو المشى على الأقدام ، بدلا من الجلوس
بجوار مقعد فتاة كسيحة ؟.. إن شيئا واحدا هو الذى يثير
اشمئزازى وغيظى: الكذب ! إنى لست صغيرة ولا غبية ، وفى
وسعى تحمل قدر كبير من الصراحة . منذ أيام جاءتنا خادم
جديدة بدلا من العجوز التى ماتت ، وقبل أن ينبهها أحد إلى
حالتى فوجئت برؤيتى أسير بمعاونة عكازى ، فألقت مكنسنها
فى ذعر وصاحت : « رباه ، يا للفظاعة .. تصوروا أن سيدة
غنية مثلها ، تكون كسيحة ! » .. فهرعت ايلونا نحو المرأة
المسكينة كالوحش الكاسر لتطردها فورا ، ولكنى منعتها ..
لقد أعجبتنى المرأة ، أعجبنى ذعرها الصادق الطبيعى ، غير
المفتعل ، فمنحتها عشرة ريالات أخذتها ومضت إلى الكنيسة
لتصلى من أجلى .. وطيلة اليوم شعرت بانتعاش وانشراح
كبيرين . سرنى أن أعرف أخيرا حقيقة ما يحسه الناس حين
يروننى لأول مرة !.. أما أنت ، أنتم جميعا ، فتحسبون أنكم
تموهون على برقتكم الزائدة وعطفكم المثير ، بل بعنايتكم
الوحشية !.. ولكن هل تظنون أن ليست لى عينان فى
رأسى أستشف بهما من وراء بسماتكم الزائفة وأحاديثكم
الضاحكة المرحة ، قلوبكم المنفطرة ونظراتكم الحائرة المنقبضة ،
وأنتم ترون حالى ؟!.. إنى أعلم جيدا أنك تطلق تنهدة ارتياح
حين تغلق الباب وراءك وتتركنى راقدة فى مقعدى ، كالجثة ..

أعلم جيدا كيف تدير عينيك عنى لتهمس لنفسك : « يا للطفلة
التعسة ! » .. بل أعلم مبلغ سروركم من أنفسكم لكونكم
تخصصون من وقتكم ساعة أو ساعتين لتسلية « العاجزة
المسكينة» !.. لكنى لا أريد تضحياتكم! لا أريد منكم أن تشعروا
بأن عليكم واجب التصدق على كل يوم بجرعة من شفقتكم !..
أقول لك إنى فى غنى عن شفقتك الغالية .. فاذا كان يلذ لك ،
ويسرك ، أن تحضر .. فمرحبا بك .. وإلا فبربك لا تطأ عتبة
هذا البيت بعد اليوم ! » .

.. وكانت قد نطقت بالعبارات الأخيرة وقد بلغ منها
الإجهاد مبلغه ، فشحب وجهها ، وانطفأت عيناها .. ثم
سكنت ثورتها وسقط رأسها إلى الوراء فى إعياء ، ولم يعد
الدم إلى شفتيها المرتجفتين إلا تدريجا !.. وبعد أن استراحت
هنيهة ، قالت فى لهجة خافتة ، تشى بالخجل : « كان لابد أن
أفرغ جعبتى يوما ما .. أما وقد فعلت ، وقلت كل ما أردت
قوله ، فدعنا لا نعد إلى هذا الموضوع مرة أخرى . أعطنى ،
أعطنى سيجارة ! » .

وكنت ما أزال مشدوها من حملتها المفاجئة ، فقدمت
إليها السيجارة ويدى ترتجف ، حتى لقد انطفأ عود الثقاب
مرتين قبل أن أتمكن من إشعال سيجارتها !.. ويبدو أنها
لاحظت اضطرابى ، فقد عادت تقول لى ، بلهجة رقيقة هذه
المرة : « ماذا بك ؟ إنك ترتعش !.. ماذا يقلقك من الأمر كله ؟ »
.. وانطفأ لهب الثقاب الهزيل ، فبقيت فى مكانى صامتا ، بينما
غمغمت هى فى شىء من الانزعاج : « إن أبى على حق ! إنك

حقا شخص .. غريب جدا ! » ، وفى تلك اللحظة سمعنا من الخلف صوت المصعد يقترب من السطح .. وبعد لحظة ، برز منه : « هر كيكسفالفا » !

الفصل الخامس

مكاشفة موجعة !

نهضت لأحيى السيد كيكسفالفا ، وساد الصمت بيننا هنيهة — بعد ان انحنى على ابنته فقبل جبينها فى حنان ملحوظ — وكأنما احس قلبه بما كان بيننا من توتر ، فبدا كأنه يود لو ينسحب ، عائدا من حيث أتى ، لولا أن قطعت اديث حبل الصمت وابتدرته قائلة ، فى مرح متكلف : « اتعرف يا أبى أن هذه أول مرة يرى فيها الملازم « هوفميللر » هذا السطح ؟ » .. وانتهزت أنا هذه الفرصة فقلت : « هذا صحيح ، وإنه لمكان رائع حقا ! » .. ثم عدت إلى صمتى ، بينما عاد هو فانحنى على ابنته وقال لها : « اخشى أن يميل الطقس بعد قليل إلى البرودة !.. أفلا يحسن أن نهبط إلى أسفل ؟ » ، فوافقت الفتاة على الفور ..

وقبل أن يتحرك بها المصعد ، قال لها : « ربما تبغين إبدال ثيابك قبيل العشاء ، وفى هذه الحالة نستطيع نحن أن نقوم بجولة فى الحديقة ! » ، فأومأت برأسها موافقة ، ولم تتكلم . وسرعان ما هبط المصعد بها وكأنه يهوى فى جوف بئر عميق ! .. وفيما نحن ننتظر عودته لنهبط به أيضا ، اقترب منى مضيفى الشيخ فى تردد وحياء ، ثم قال هامسا : « هناك

شىء أود أن أحدثك فيه .. خدمة أرجو أن تؤديها لى .. فاذا لم يكن لديك مانع ففى استطاعتنا أن نتحدث فى الأمر فى مكتبى الملحق بالحديقة ! » .. ولم يسعنى إلا أن أعرب له عن ترحيبى بتأدية أى خدمة له ، ثم هبطنا بالمصعد إلى الحديقة ، وسرنا بمحاذاة جدار القصر إلى بناء منعزل ، فى نهايته حجرة مكتب متواضعة — لا تزيد كثيرا على حجرتى فى المعسكر ! — فدخلناها ، وقدم لى الأب مقعدا ، بينما جلس هو بجانبى على مقعد آخر ، فأخذت أسائل نفسى : « ماذا عساها تكون هذه الخدمة التى يطلبها هذا المليونير منى ، أنا الشاب الفقير ؟ ! »

واخيرا رفع الشيخ رأسه المطرق ، فاذا جبهته منداة بالعرق .. وخلع نظارته المظللة بسحابة كالبخار ، فبدا لى وجهه المغضن أدعى إلى الاشفاق ، وأبلغ تعبيرا عن الأسى المرير . وبدت عيناه أشد كلالا وكآبة وإعياء ، منهما تحت النظارة .. كما استطعت ان أستنتج — من الاحمرار الخفيف المحيط بجفونه — انه لاينام إلا قليلا ، نوما متقطعا !.. ومرة اخرى احسست بالشفقة تضطرم فى اعماقى ، وشعرت بغتة انى لم اعد اجلس فى مواجهة الثرى الكبير « هر فون كيكسفالفا » ، بل فى مواجهة شيخ محطم، ناء كاهله بالأحزان! .. وبعد أن سعل قليلا ، قال لى بصوت أجش : « أريد أن أسألك معروفا كبيرا يا سيدى الملازم ، وأنا أعلم انى لا أملك الحق فى إزعاجك وأنت لم تكد تعرفنا إلا حديثا . وقد أكون متماديا فى الجراة إذ أطلب إليك شيئا كهذا ، لكنى منذ لقيتك أول مرة شعرت بأنك أهل للثقة ، فأنت تبدو من أول

Looloo
www.dvd4arab.com

وهلة رجلا طيب القلب ، مستعدا لأن تمد يد المساعدة فى كل وقت .. حتى ليخيل إلى أحيانا أن السماء قد أرسلتك إلى كى أستطيع أن أتحدث إليك فى صراحة .. لكنى تماديت فى الحديث قبل أن أسألك أولا . هل ترغب فى الإصغاء إلى ؟ » .

ولما أبديت رغبتى فى الاصغاء ، زفر زفرة حرى ، وشكرنى قائلا : « الواقع أنى مدين بالقدرة على تمييز الأشخاص لزوجتى يرحمها الله .. لقد كان فقدى إياها بداية المأساة ، وإن كنت أعزى نفسى أحيانا بأن من لطف الله أنها لم تعش حتى ترى الفاجعة التى حلت بابنتها ، فانها ما كانت لتتحملها ! وأنت لا تعلم أننا حين وقع الحادث — منذ خمس سنوات — لم نكن نحسب أن الأمر سيطول إلى هذا الحد ، سيما وأننا نشأنا نحترم الأطباء ، ونسمع كل يوم عن المعجزات التى يحققونها ! ولهذا لم أجزع كثيرا فى البداية ، كما أن إيمانى بالله جعلنى لا أصدق أنه يمكن أن يحكم على طفلة بريئة ، بهذه الكارثة ، إلى الأبد !.. فلو كنت أنا الذى أصبت لفهمت حكمة شىء كهذا ، فلقد ارتكبت فى حياتى شرورا كثيرة .. أما هى — وهى المخلوقة البريئة — فان عقولنا لتعجز عن إدراك حكمة تقييدها إلى مقعدها القاسى ، مدى الحياة ! » .

ومسح محدثى العرق الناضح على شعره المجعد بظهر يده ، ثم استطرد فقال : « إننا لم نترك طبيبا سمعنا عنه إلا استدعيناه ! وكم اجتمعوا وتشاوروا باللاتينية ، ونصحوا بأشياء كثيرة ، ثم أخذوا أجرهم ومضوا .. وبقيت الحال على ما هى عليه !.. وحين تبينوا عقم علاجهم ، كانوا يهزون

أكتافهم ، ثم يوصون بالصبر !.. والآن لم يبق مثابرا على معالجتها ، رافضا الاذعان لليأس ، غير واحد فقط : هو الدكتور « كوندور » . إنه ليس ذا مؤهلات علمية كثيرة ، أو خبرة طويلة ، لكنه « إنسان عظيم » ولا شك . فهو لا يشغل نفسه بالحالات العادية — التى يستطيع أى طبيب معالجتها — وإنما يقصر اهتمامه على الحالات العسيرة التى ييأس منها الأطباء الآخرون ! وهو لا يطلق الأمل حتى اللحظة الأخيرة ، بل يحيا ويموت مع كل مريض من مرضاه ، غير طامع فى مال أو شهرة لنفسه ! إنه لا يفكر فى نفسه بل فى الآخرين ، فى أولئك الذين يتألمون .. أوه ، إنه رجل رائع ! » .

وبلغ الانفعال بالشيخ حدا جعل عينيه المتعبتين تتألقان فى حدة ، ثم واصل كلامه فى حماسة : « نعم إنه رجل رائع ، ينظر إلى كل حالة كأنها واجبه الأوحد ! بل إنه حين يعجز عن أن يفعل شيئا ، يكاد يعد نفسه مسئولا عن الكارثة !.. هل تريد مثلا على ذلك ؟ لقد زارته يوما امرأة تشكو ازدياد ضعف بصرها ، ودنوها من مرحلة العمى الكامل ، فوعدها بالشفاء .. ولما عجز عن إنجاز وعده ، وحلت بها الكارثة ، لم يسعه إلا أن يتزوجها !.. تصور طبيبا شابا يتزوج امرأة عمياء تكبره بسبعة أعوام ، ولا تملك مالا ولا جمالا ؟!.. إنها الآن مخلوقة متهوسة ، تعد حملا ثقيلا على عاتقه ، فوق أنها لا تعترف البتة بجميله !.. من هذا المثل تستطيع أن تعرف أى رجل هو ، ومبلغ سعادتى بالعثور عليه ، على شخص يعنى بابنتى كما أفعل أنا نفسى ، حتى لقد ذكرته فى وصيتى !.. فلئن كان

Looloo
www.dvd4arab.com

هناك إنسان يستطيع ان يشفى ابنتى فانه هو ذلك الإنسان .. عسى الله ان يوفقه ! » ، وضم الأب المفجوع راحتيه فى حركة ابتهال .. ثم دنا بمقعده منى ، ومضى فى كلامه فقال :

ـ والآن اصغ إلى يا سيدى الملازم ، فإنى اريد ان اسالك معروفا !.. لقد حدثتك عن مبلغ عطف الدكتور كوندور على ابنتى ، وعلى .. ولكنى اخشى ان يكون شعوره هذا النبيل قد حمله على ان يخفى عنى الحقيقة . إنه دائما يعدنى ويؤكد لى ان طفلتى سوف تشفى يوما ما .. لكنى كلما سالته عن موعد حلول هذا اليوم ، يتهرب من الجواب ، موصيا إياى بالصبر .. ولهذا فانى اريد ان استوثق من الأمر . وانا كما ترى شيخ متقدم فى السن ، ومريض ، ويهمنى ان اعرف هل ساعيش حتى أرى ابنتى تشفى ، وهل سوف تشفى حقا ؟ .. وصدقنى يا سيدى الملازم انى لا اطيق العيش على هذا المنوال ، ولهذا اريد ان اعرف الحقيقية ، لانى لن استطيع تحمل هذا الشك بعد الآن !

.. وغلبه تاثره ، فنهض ومضى إلى النافذة !.. وادركت انه يحاول بذلك ان يخفى دموعه ، لانه ـ مثل ابنته ـ يابى ان يكون هدفا للشفقة !.. ثم اخرج منديلا من جيبه واخذ يمسح دموعه ، متظاهرا بانه يجفف عرقه ، ولكنى لمحت اثر البكاء فى احمرار اجفانه ! وبعد ان ذرع الغرفة مرتين او ثلاثا ، اخذ نفسا عميقا ـ كما يفعل السباح قبيل ان يقفز إلى الماء ! ـ ثم عاد إلى مقعده فاستطرد يقول : « اغفر لى هذه الإطالة . لقد اردت ان اقول لك : إن الدكتور كوندور قادم من

(فيينا) غدا ليرى اديث ـ فهو ياتى كل اسبوعين او ثلاثة ليفحصها ، ثم يعود بقطار المساء ـ وقد خطر لى انه لو اتيح لشخص اجنبى عن الأسرة ان يساله ، فى غير اهتمام كبير ، عما يرجى للمريضة فى المستقبل ، وهل ستشفى يوما ، ومتى .. فلعله يصدقه الجواب ، لأنه فى هذه الحالة لن يشعر بحاجة إلى مراعاة إحساس السائل الغريب ، كما يراعى احساسى انا مثلا ، بوصفى والدها المسن المريض !.. فهل تقبل ان تؤدى لى هذه الخدمة ؟

وما كان لى ان ارفض ، وقد وقف الأب المكلوم امامى دامع العين ، يتلقف الجواب من شفتى ، وكأنه قضاء الله فيه ! وهكذا وعدته باجابته إلى كل ما طلب ، فمد إلى يديه شاكرا ، واردف فى انفعال : « كنت أعلم .. كنت أعلم انك ستقبل .. واعدك بان احدا غيرى فى الوجود لن يعلم يوما بأمر هذه الخدمة الجليلة التى سوف تؤديها لى ! » ، فقلت له : « لكنها ليست خدمة جليلة .. إنها عمل بسيط ! » .. فقال : « بل إنها خدمة على اعظم جانب من الأهمية . وإنى ليسرنى ان أؤدى لك اية خدمة فى مقابلها !.. إنى اعرف كثيرا من الشخصيات البارزة فى مختلف الوزارات ، وفى وزارة الحرب بالذات ، وفى هذه الأيام يحتاج كل شاب إلى من يسنده ويأخذ بيده ! » .

واخجلتنى حماسته فى العرض ، ومواجهته إياى ـ لأول مرة منذ بداية الحديث ـ بنظرة مباشرة فى عينى .. بينما امتدت يده تتلمس النظارة التى كان قد وضعها جانبا ،

Looloo www.dvd4arab.com

Illustration caption (left page):

ووجدنـا الفتـاة تنتظرنـا فى الصـالون ، فـوق مقعدهـا الطـويل ولم نكد ندخل حتى حدجتنا بنظرة فاحصة ..

Looloo
www.dvd4arab.com

وتثبتها على أذنيه بأصابع مرتعشة .. ثم غمغم أخيرا : « لعله يحسن بنا أن نعـود إلى البيت ، قبل أن تثور شكوك اديث بشأن سبب خلوتنا وتأخرنا ، فإنها منذ أصيبت غدت مرهفـة الاحساس إلى أقصى حد ! » .

ووجدنا الفتـاة تنتظرنا فى الصـالون ، فوق مقعـدها الطويل . ولم نكد ندخل حتى حدجتنا بنظرة فاحصة ، كأنما أرادت أن تنفذ بهـا إلى أعماق سريرتنـا ، لتقف على سرنا المشترك .. فلما لم نرو غليلها بالافصاح عن شىء ، ظلت بقية السهرة نافرة ، منطوية على نفسها !

* * *

كانت مهمة « تافهـة » كما وصـفتها ، تلك التى عهـد هر « كيكسفالفا » إلى فى القيام بها . ولكنى مع هـذا عجزت عن إدراك الأهميـة المعنوية التى صـارت لها بالنسبة لى ، فما من شىء يزيد ثقـة المـرء بنفسـه ويسـاهم فى تكوين شخصيته ، أكثر من أن يجد نفسه ــ على غير انتظار ــ أمام مهمة عليه أن يؤديهـا بمجهوده الشخصى ، وعلى مسئوليته الخاصة . ولم تكن المسئولية ذاتها غريبة على ، فلقد طالمـا جابهت فى عملى الوانا من المسئوليات ، لكنها كلهـا كانت فى نطاق محدود ، تتصل بواجباتى الحربيـة ، وتعتبر تنفيـذا لتعليمات مكتوبة أو مطبوعـة ، أو لتقاليد مرسومة فى محيط الجيش .. أما المهمة التى كلفنى بهـا هر « كيكسفالفا » لم تكن موجهة إلى باعتبارى ضابطا ، بل باعتبارى إنسانا طيبا ، جديرا بالثقة .. على أن هناك حقيقة واحـدة لم تغب عن

ذهنى لحظة ، هى ان هـذا الرجل الغريب عنى تماما قد اختارنى — دون جميع أصدقائه واقربائه — كى انقذه من محنته !.. وقد ادخلت هـذه الثقـة على قلبى من الغبطـة اضـعاف ما ادخلتـه عليـه جميع عبـارات الثنـاء التى تلقيتهـا من رؤسـائى او أصـدقائى ! على ان غبطتى تلك شابهـا شىء من الاستنكـار ، بل الذعـر ، عنـدما تنبهت فجأة إلى ان شفقتى على الفتـاة المنكوبة لم تجـاوز الناحية السلبية الجامدة .. وإلا فكيف جاز ان اتردد على هـذا البيت اياما ، بل اسابيع متوالية ، بغير ان اوجه يوما إلى احد افراده السؤال الطبيعى الذى هـو اول ما يرد على الذهن فى ظروف كهذه : « هل ستظل الفتـاة المسـكينة كسيحة هكذا ، على الدوام ؟ وما راى الأطباء فى حالتها ؟ » .

نعم ، إننى لم استفهم قط من « ايلونـا » ، أو من هـر كيكسفالفا ، او من طبيب المعسكر ، عن مصير الفتـاة التى ازورها واقضى السهرة فى ضيافتها كل ليلـة !.. وإنما تلقيت عاهتها البشعة على انها « أمر واقع » لا مجال للتفكير فيـه ! واخيرا جاء حديث ابيها معى ، عن عذابه الطويل ، وحيرته فى صددها ، اشـبه بطعنة سكين فى قلبى ، جعلتنى افيق فجأة من سباتى وغفلتى ، فأتساءل : « هل يمكن أن تشفى الفتاة من شللها الرهيب ، وتعود فتمشى وترقص ، وتركب الخيل ، وتنطلق ضاحكة فى المروج الخضراء ؟ » .

وكأنما اسكرتنى هـذه الفكرة ، فلذ لى ان اتخيل ثلاثتنا وقد امتطينا جيادنا ورحنـا نركض بها وسط الحقول .. ثم

أتخيل اديث وقد خفت لاستقبالى عنـد البـاب فى موعد كل زيارة ، سعيدة مرحـة ، حـرة ، بدلا من الانتظار مقيدة إلى مقعدها فى الصالون !.. وهكذا رحت أحصى الساعات الباقية على موعد حضور الطبيب ، فى لهفة شديدة لعلها تفوق لهفة كيكسفالفا نفسـه ، ولبثت اترقب اللحظة التى القى فيهـا الدكتور كوندور ، فأطمره بأسئلتى فى شأن اديث ..

* * *

وفى اليـوم التـالى حرصـت على أن افـرغ من عملى مبـكرا ، ثم هرعت إلى القصر قبـل موعـدى المألوف .. فاستقبلتنى ايلونا قائلة : « لقد وصل الطبيب ، وهو فى خلوة مع اديث منذ حوالى ساعتين ، ويفحصها ويجرب معها بعض الاختبارات الدقيقة » .. فجلسنا نلعب الشطرنج فى انتظـار فراغ الطبيب من مهمته .. ومضى وقت قبل ان نسمع وقـع خطـوات تقترب ، ثم دخل علينـا « كيكسفالفا » والدكتور « كوندور » وهما لا يزالان منهمكين فى الحديث .. فوجـدت صعوبة فى إخفاء شعورى بخيبة الأمل عند وقوع بصرى على الطبيب الذى اطنب مضيفى فى إطرائه والإشادة بعلمه وخلقه .. فقد توقعت ان ارى رجـلا ذا طلعة مهيبة ، وعين حادة نفاذة ، وهيئة توحى بالثقة وتنم عن الذكاء اللمـاح .. ومن ثم غاص قلبى حين رايتنى أنحنى تحية لشخص قصير بدين ، اصلع الراس ، قصير النظر ، تبعثر على سترته الغبراء رماد السجاير بكثرة ، واعوج رباط رقبته فوق قميصه .. وبدلا من النظرة الحادة ، طالعتنى من عينه نظرة بليدة فاترة ، تطل

من خلف نظارة معدنية رخيصة مثبتة على أنفه !.. وقبل أن
يفتح كيكسفالفا فمــه ليقوم بتقديم كل منا إلى الآخر ، مـد
الطبيب يده إلى فى تكاسـل ، ثم جلس على مقعد مريح وهو
يقول ، مواصلا كلامه :

ـــ اخيرا يجد المرء فرصته ليستريح !.. ثم دعنى اصارحك
يا صديقى انى اكاد اموت جوعا ، وحبذا لو اعد لنا « جوزيف »
المائدة فورا ، أو اسعفنى ببعض الفطائر مؤقتا . إنى دائمـا
انسى أن قطار بعد الظهر هذا لا تلحق به عربة طعام .. آه ،
هذا هو جوزيف يفتح باب غرفـة المـائدة .. مرحى مرحى
يا جوزيف ، إنك دائما دقيق فى مواعيدك !

ودون اية كلفة ، تقدمنـا الطبيب إلى المـائدة فجلس بغير
ان ينتظرنا ، ونشر منشفة على صدره ثم شرع يشرب الحساء
فى لهفة وفى صوت مسموع ، بينما راحت عيناه قصيرتا النظر
تختلسان النظرات إلى زجاجات النبيذ فى شراهة .. ثم طلب
من الساقى قدحا من البيرة لفتح الشهية ، وبعد ان تجرعـه
دفعة واحدة ، اجهـز على الطبق الثـانى الذى قدم له على
الفور ، وبقى مستغرقا فى الأكل إلى حد شغله عن ان يوجـه
كلمة إلى أحد منا !.. وبدأت شراهته تثير أعصابى ، ربمـا
لأنى يئست من أن افـوز بطائل ، فى صـدد الموضوع الذى
يهمنى ، من هـذا المخلوق السوقى الذى لا يفكر فى أكثر من
الطعام والشراب !.. وبين حين وآخر كان يقطع حركة المضغ
والبلع ليلقى أسئلة وتعليقات تافهة لا تحتاج إلى جـواب ،
بينما تجاهلنى أنا تجاهلا تاما ، قابلته بمثـله فلزمت الصمت

المطلق !.. وحين انتقلنـا إلى الصالون ، حيث كانت اقـداح
القهوة تنتظرنـا ، القى الدكتور كوندور جسـمه المكتنز على
مقعد « اديث » الخاص ، الذى كان مزودا ومبطنـا بالوسائد
المريحـة والمسـائد الجانبية .. ثم تنـاول ثلاث لفائف من
السيجار الفاخر ، ووضع اثنتين منها على طبق قدح القهوة ،
كمدد احتياطى !.. وبعد أن افرغ فى جوفه الفنجان الثـانى
من القهوة ، اطلق من فمه صوتا اشبه بصوت الخنزير الذى
التهم وجبة دسمة .. ثم التفت إلى كيكسفالفا قائلا فى تهكم ،
وهو يغمز بعينه ويتمطى متثائبا :

ـــ إنك تبـدو نافد الصـبر فى انتظار سماع تقريرى عن
الحـالة .. ولكن كان ينبغى أن تتذكر انى لا أحب الخلط بين
الطعام والعمل ، هـذا إلى أنى كنت جائعا ومتعبا إلى اقصى
حد .. فقد لبثت واقفا على قدمى منـذ السـاعة السابعة
والنصف صباحا .. والآن يا صديقى ..

وهنا سكت ريثما جذب نفسـا طويـلا من السيجار ، ثم
اطلق حلقات من الدخـان الأزرق فى الهواء ، وقال : « الآن
نستطيع ان نتحـدث .. إن كل شىء يسير سيرا مرضـيا :
تمرينات المشى ، وتمرينـات مد الساقين .. كلهـا تتحسن
تحسنا ملموسا . وإنما الشىء الوحيـد الذى وجدته متغيرا
قليلا ـــ وارجو الا تقلق البتة يا صديقى العزيز ـــ هو حالتها
النفسية ! » .

وبرغم استدراك الطبيب ، بدا على كيكسفالفا الانزعاج ،
حتى اهتزت المعلقة فى يده ، وقال مقاطعا : « تغير ؟ ماذا

Loolool www.dvd4arab.com

تعنى ؟ اى نوع من التغيير ؟ » .. فقال الطبيب : « انا لم اقل إنه تغيير إلى اسوا ، لا تحمل كلامى اكثر مما يحتمل !.. أنـا نفسى لا اعلم حتى الآن كنه ما حدث ، لكنى لحظت أن « شيئا ما » على غير ما كان ينبغى . شيئا لا يمت إلى مرضها ، بل إلى نفسها ، حتى لقد شعرت اليوم — لأول مرة — كان زمامها قد افلت من يدى ، إلى حـد ما . ويحسن أن نعـالج الموقف بصراحة ونكشف جميع اوراقنـا ، فقل لى يا صديقى ، بكل إخلاص وصدق : هل دفعك قلقك على ابنتك إلى اسـتقدام طبيب آخر لفحصها اثناء غيبتى ؟ وهل فحصها طبيب ما بعد زيارتى السابقة ؟! » .

فصـاح كيكسفالفا فى اسـتنكار ، وكأنه اتهم بإثم فظيع : « كلا ! واقسم لك بحياة ابنتى ! » .. فقال الدكتور كوندور : « حسـنا جدا . هذا يكفى ، فلتوفر إيمانك المغلظـة . انى اصدقك بغيرها ، واعتبر المسـألة منتهية .. وإذن فلابد أن هناك عاملا آخر أحدث ذلك التغيير ! » .

.. ومرة اخرى صاح الأب جزعا : « ولكن ماذا بها ؟ ماذا تقصد بقولك إنها تغيرت ؟ » .. فأجاب الطبيب : « يا عزيزى، انك تعقد الأمور بجزعك هذا . اقسم لك بشرفى أن ليس ثمـة داع للقلق ، وإلا لما جلست هكذا احدثك عن الأمر من مقعدى المريح وانا اجرع خمرك المعتقة !.. ولهذه المناسبة ، هـذا الكونياك رائع حقا ! » .

ثم اضطجع فى مقعده ، واغمض عينه لحظة ، واستطرد : « إنه لمن الصعب حقا أن اشرح وجهة نظرى ، فانها تدور حول

الصلة الروحية التى تنشأ بين المريض وطبيبه ، ذلك المزيج من الثقة والشك الذى يتبـادلانه ، والذى يكون فى حـالة « مد وجزر » .. إن الأمر يشبه — مع الفارق — أمر الجواد الذى يقترضه منك شخص لبضعة أيام ، ثم تركبه بعد ذلك فتجـد كأنه خرج من سيطرتك ، والف سيطرة يد اخرى !.. فلقـد لاحظت اليوم مثلا أن اديث تبـدى شـيئا من « المقـاومة » لتمريناتى واختباراتى ، وتعرب متذمرة عن شكها فى أن تكون لها أية فائدة او نتيجة . وهذه الظـاهرة تحدث منهـا لأول مرة !.. على انى لا اقصد أن هذا التمرد منها يدل على سوء حالتها ، بل إنه — على العكس — قد يكون من اعراض ازدياد رغبتها فى الحياة ولهفتها على الشفاء !.. لذلك اكرر لك انى لست قلقا البتة ، بل إنى إذا فكرت الآن فى تجربة علاج جديد فانى اكاد أكون واثقا من أن الفتاة سوف تبذل مجهودا نفسيا جبارا كى تشفى !.. لست ادرى إذا كنتم تفهمون كلامى ؟ » .

.. وهنا اندفعت أنا قائلا بغير وعى : « نعم .. بلا شك » .. وكانت الكلمة الأولى التى أوجهها إلى الطبيب منـذ وقع عليه بصرى ، فقد بدا الأمر لى واضحا كل الوضوح . اما الأب فقد ظل يحدق فى الفضاء بعينين لا تريان . وقد شعرت بأنه لم يفهم شيئا من كلام الطبيب ، لسبب بسيط : هو أن مخاوفه كلها كانت مركزة فى سؤال واحد هو : « هل تشفى ابنته يوما ؟ ومتى ؟ » .. وقد قرأت فى عينيه أنه يود لو يلقى على الطبيب مزيدا من أسئلته ، لولا خشيته أن يضايقه !

وانتهز الطبيب فرصة الصمت القصيرة فنهض وهو

Looloo www.dvd4arab.com

يقول : « أحسب أن فى هذا القدر الكفاية اليوم .. وإذا حدث ان اظهرت اديث فى الأيام المقبلة شيئا من العصبية ونفاد الصبر ، فلا تنزعجوا ، فانى لن البث أن اضع يدى على العامل المجهول !.. وفى انتظار ذلك ارجو منكم ان تضبطوا اعصابكم ولا تظهروا للمريضة ادنى قلق او اضطراب . والآن دعونى أنصرف ، وارجو الا تستدعى سيارتك لتقلنى ، فاننى أرغب فى المشى قليلا كى استنشق شيئا من الهواء النقى ، واستمتع بالقمر الرائع ! » .

وهنا تذكرت مهمتى ، فانتهزت الفرصة وزعمت أنى مضطر لليقظة مبكرا ، ومن ثم ينبغى أن أنصرف بدورى .. فاضاء الأمل عينى الكهل وهو يرمقنى من وراء ظهر الطبيب بنظرة ذات معنى !

* * *

لم نكد — الدكتور كوندور وانا — نبلغ السلم المؤدى إلى الحديقة حتى اخذنا بمنظر يبهر الأبصار : كان القمر المكتمل اشبه بقرص من الفضة المجلوة قد علق فى السماء المرصعة بالنجوم ، والحصباء تبرق مثل البرد بين صفى الأشجار المتاخمة للممر ، والتى ينطرح أمام كل منها ظلها ، فتبدو هى اشبه بالزجاج فى الضوء ، وظلالها مثل اشباح فى الظلام .. والسكون الساجى يشمل الحديقة الغارقة فى فيض من السنا الثلجى .. فسرنا صامتين ، مأخوذين بروعة الطبيعة المحيطة بنا ، حتى مرقنا من باب الحديقة الخشبى ودلفنا إلى الطريق .. وعندئذ التفت الطبيب إلى قائلا ، فى بساطة لم

اتوقعها منه : « مسكين كيكسفالفا !.. إنى الوم نفسى لكونى أجبته بخشونة ، لكنه كان خليقا بأن يمطرنى بمائة سؤال وسؤال فى الموضوع نفسه .. وقد كنت من الاجهاد والتعب بحيث لم احتمل مزيدا .. والواقع ان الذى يرهقنا ويجعل الحياة شاقة علينا ، فى مهنتنا هذه ، ليس إلحاح المرضى انفسهم وأسئلتهم — فهذه كلها امور مقبولة منهم بحكم مرضهم ، عدا أن لنا فى الرد عليها جعبة لا تفنى من المسكنات و « الأكاذيب البيضاء » — وإنما الذى يضايقنا حقا هو إلحاح اقارب المرضى وأصدقائهم ، فهم يحاصروننا كما لو كان مريضهم هو وحده الذى ينبغى أن نفكر فيه ، ولا نهتم بسواه ! .. وقد افهمت كيكسفالفا اكثر من مرة أن عندى فى المدينة حالة خطيرة يتأرجح صاحبها بين الحياة والموت منذ أيام ، وتتطلب منى اليقظة المستمرة .. ومع ذلك فهو لا يفتأ يتصل بى بالتليفون كل يوم ليمطرنى بأسئلته التى لا تنتهى ، ويحاول أن ينتزع منى بأى ثمن كلمة تبعث الأمل فى نفسه .. وانا أول من يدرك ضرر هذا القلق المستمر عليه ، ومن حسن الحظ انه لا يقدر مدى هذا الضرر ! » .

وأحسست بانقباض مفاجىء .. إذن فالحالة سيئة حقا ؟ .. لقد أمدنى كوندور ، بهذه العبارة ، بالمعلومات التى كنت أبغى استيفاءها منه .. ولم يبق إلا أن أستحثه على أن يزيدنى علما بالتفصيلات .. فقلت له : « لا تؤاخذنى يا سيدى الطبيب .. لكنى لم اكن أحسب أن اديث فى حالة سيئة إلى هذا الحد ؟ » .. فقاطعنى فورا فى دهشة : « اديث ؟ ماذا تعنى ؟

Looloo www.dvd4arab.com

.. إنى لم اقل شيئا عن حالة اديث .. وإنما عنيت انى قلق على كيكسفالفا نفسه .. الم تلحظ مدى انحلال صحته خلال الأشهر الأخيرة ؟! » .. فقلت : « إنى لم اتشرف بمعرفة « هر فون كيكسفالفا » إلا منذ أسابيع فقط » .. فقال : « إذن ليس فى وسعك أن تلمس التغيير الكبير الذى طرأ عليه. اما انا فيزعجنى حقا أن أرى نحوله ، وبروز عظام يديه وشرايينه ، ولون بشرتهما الذى يذكرنى بأيدى الموتى ، والواقع أن امثال كيكسفالفا من الرجال الذين عاشوا اقوياء نشطين ، هم الذين يضرهم ابلغ الضرر ان يستسلموا لعواطفهم ، ويعتبر من نذر الخطر على حياتهم أن ينقلبوا من قساة عنيدين إلى مشفقين رقيقى القلوب !.. وقد فكرت منذ أمد فى فحصه وتحذيره من سوء العاقبة ، لكنى خشيت أن ينقلب قصدى على فيقتله الوهم والخوف .. قبل أن يقتله الضعف والمرض ! .. ولعلك تقدر انه ليس من اليسير على مثله ان يشعر بدنو شبح الموت منه وقرب فراقه لوحيدته ، إذا كان سيخلفها وحيدة فى الدنيا ، كسيحة لا حول لها ولا طول !.. كلا يا سيدى الملازم ، لقد اخطات فهمى : فليست اديث موضع اهتمامى الآن بل هو ابوها .. واخشى أن تكون ايامه على الأرض قد باتت معدودة ! » .

وصدمنى قوله ، فان شيئا كهذا لم يخطر ببالى من قبل ، ولم اكن قد نجعت طيلة حياتى فى اى قريب او صديق لى ، فلم أستطع ان اتصور كيف يمكن لشخص كنت اتناول الطعام معه ، واتحدث ، واشرب .. ان يشرق عليه الصباح التالى

فاذا هو جثة هامدة فى كفنها !.. وادركت من الوخزة التى طعنت قلبى على الأثر انى قد تعلقت فعلا بكيكسفالفا .. فقلت ، فى نوبة انفعالى وإشفاقى : « يا له من امر محزن أن يموت مثل هذا الرجل النبيل الكريم الطيب .. بل الارستقراطى الأصيل حقا ! » .. وهنا توقف كوندور فى مكانه ، وقد بدت عليه الدهشة الهائلة ، وقال لى وهو يكاد يكذب سمعه : « نبيل ؟.. ارستقراطى ؟.. اعذرنى يا سيدى الملازم ، ولكن .. احقا انت تعنى كيكسفالفا بهذه الأوصاف ، جادا ؟ » .

فخيل لى ، من فرط استنكاره ، أنى قد تفوهت بحماقة ما .. فأجبته فى شىء من الحيرة : « إنى احكم عليه بوحى من خبرتى الخاصة .. فمنذ عرفته ، لمست فى جميع تصرفاته وحركاته دلائل الجلال والأصل العريق ! » .. لكنى توقفت عن الكلام من تلقاء نفسى ، حين لمحت إمارات الاستغراب تتزايد على وجه محدثى ، وهو واقف تجاهى ، وتلمع فى عينيه خلف نظارته السميكة .. حتى لقد خلت نفسى امامه كحشرة صغيرة تحاول التملص تحت عدسة « ميكروسكوب » ضخم ! .. ثم استانف الطبيب كلامه فقال :

ـ يصعب على ان اصدق انك ، برغم تكرر زياراتك للقصر ، فى هذه البلدة الصغيرة التى تسرى فيها الشائعات وتعرف الأخبار بسرعة هائلة ، لم تصادفك مناسبة تسمع فيها من احد الأهالى ـ أو من زملائك الضباط ـ ملاحظة أو تعليقا يتنافى مع حسن ظنك فى « نبل » هذا الرجل .. وهذا يزيدنى اقتناعا بسذاجتك !.. والواقع أنى طالما اتهمته

Loolee www.dvd4arab.com

بالمغالاة فى وصفه إياك ، وشككت بعض الشىء فى حماسته لك ، فلقد عجزت عن أن أصدق حقا انك لم تتردد على داره من بادىء الأمر إلا تكفيرا عن سقطتك الأولى ، وبدافع العطف الخالص على اديث ، والصداقة البريئة للأسرة !.. بل لقد حدثت نفسى بأنك واحد من اثنين : إما شاب بعيد النظر يحاول ان يظفر بصيد دسم، أو حدث ساذج العاطفة استجاب — كما لا يستجيب غير الشباب وحدهم — لجاذبية مغامرة من المغامرات المفجعة الخطيرة .. وعلى اية حال فلست أرى مبررا لأن تخجل من الصداقة الخالصة التى أظهرتها له ولابنته ، أو تدع اقاويل الناس تؤثر فى صلتك بالأسرة .. فان تلك الأقاويل لا تنطبق على الشخص الرقيق الحنون المستحق للعطف والرثاء .. الذى صاره « كيكسفالفا » فى هذه الأيام !

.. وكان الدكتور كوندور يتكلم وهو يسير إلى جوارى ، دون ان ينظر إلى .. ثم لزم الصمت دقائق ، وقد بدا عليه التفكير والتردد .. واخيرا ابطأ الخطى والتفت إلى قائلا : « أصغ إلى يا سيدى الملازم . إن المعلومات او « الإيحاءات » المبتورة هى مبعث اكثر الشرور فى هذه الدنيا .. وقد يكون لسانى انزلق باكثر مما ينبغى أن اقول ، فاثار فضولك إلى حد لن تقوى معه على مقاومة شوقك إلى الاستفسار من الناس عن المزيد .. ولما كنت أخشى أن تجىء المعلومات التى قد يفضون بها إليك مخيبة لآمالك .. أو ان تجد حرجا فى المداومة على زيارة قوم لا تعرف عنهم شيئا .. فانى اضع نفسى تحت تصرفك ، إذا كان يهمك أن تعرف المزيد عن صاحبنا ! » .

فلما اجبته مرحبا بمعلوماته ، نظر فى ساعته ثم قال : « امامنا قبل موعد قطارى ساعتان ، فى وسعنا ان ننفقهما فى هذا الحديث .. فى أى مكان هادىء تختاره ! » .

الفصل السادس

تاريخ غريب !

وفى مقصورة منعزلة بأحد المقاهى المعدة لخلوة العشاق ، حدثنى الطبيب فقال : « لعله يحسن بنا أن نترك الآن صديقنا الارستقراطى « هر فون كيكسفالفا » .. فعندما بدأت القصة لم يكن يوجد رجل بهذا الاسم ، يملك الضياع الواسعة ، ويرتدى السترة السوداء والنظارة ذات الإطار المذهب !.. لم يكن يوجد غير غلام يهودى ذى عينين نفاذتين ، وكتفين رقيقتين ، يعيش فى قرية صغيرة تعسة على الحدود الهنغارية السلوفاكية ، ويدعى « ليوبولد كانيتز » .. وكان « كانيتز » يعيش من حراسة جياد الفلاحين او عرباتهم ، وهم يحتسون الخمر فى حانة القرية ، أو يحمل للنسوة سلالهن اثناء عودتهن من السوق ، مقابل حفنة من البطاطس مثلا !

« اما والد كيكسفالفا — أو بالاحرى والد « كانيتز » هذا — فكان يملك حانة متواضعة خارج القرية ، يؤمها قطاع الأخشاب والحوذية كى يشرب كل منهم قدحا او اثنين من الخمر الرخيصة ، تدفىء أجسادهم وتعينهم على اجتياز سهول « الكربات » المكسوة بالجليد .. واحيانا كانت الخمر تصعد

Looloo www.dvd4arab.com

إلى رؤوسهم ، فيتشاجرون ، ويحطم بعضهم مقاعد الحانة ومناضدها على رؤوس البعض الآخر .. وفى إحدى هذه المشاجرات أصيب صاحب الحانة بصدمة ما لبثت أن قضت على حياته ، بعد مرض طويل ، دون أن يترك وراءه مالا تعيش عليه أسرته .. فاضطرت زوجته إلى احتراف غسل الثياب ، والقيام بمهمة « القابلة » فى حالات الولادة التى تتعرض لها نساء القرية ، أو بيع بعض البضاعة فى الطرقات ، بينما كان « ليوبولد » ابنها يسير معها حاملا بضاعتها على ظهره .. وفيما عدا ذلك كان الغلام يكسب بعض الدراهم من اى عمل بسيط يصادفه ، ويطوف بقرية بعد قرية لتوزيع منتجات احد الحوانيت . وفى السن التى يلعب فيها الصبية « البلى » ولا يعرفون شيئا عن هموم الحياة ، كان « كانيتز » قد ذاق الكثير منها ، وعرف لكل جزء من درهم قيمته !.. ثم تعلم الصبى القراءة والكتابة على يد رئيس الطائفة اليهودية فى القرية ، فلما بلغ الثالثة عشرة استطاع أن يؤدى بعض الأعمال الكتابية لأحد المحامين ، وبعض الأعمال الحسابية وكشوف الضرائب لأصحاب الحوانيت الصغيرة .. ولكى يوفر كل قطرة من وقود الإضاءة ، صار يجلس كل ليلة تحت مصباح الإشارة الواقع على شريط السكة الحديدية ، كى يقرأ بقايا صحيفة ممزقة ، بغية الاستزادة من المعرفة والمعلومات العامة !

« فلما بلغ سن العشرين ، هجر القرية إلى (فيينا) ، حيث استطاع الحصول على عمل فى إحدى شركات التأمين ، إلى جانب عشرات الأعمال الإضافية المنوعة التى كان يقوم بها

فى أوقات فراغه ، بنشاط وهمة نادرين ، مما جعله يشبه « السمسار » او الوسيط فى كل ما يصلح للوساطة ، من أعمال تجارية وغير تجارية .. وسرعان ما بدأ الأهالى يتنبهون إلى نشاطه ، ثم يشعرون بحاجتهم إليه ، فقد كان مخزنا للمعلومات لا ينضب معينه ، يعرف كل شىء معرفة الخبير المطلع .. فاذا ارادت أرملة أن تزوج ابنتها وجدت فيه نعم الوسيط للزواج .. وإن رغب شخص فى المهاجرة إلى امريكا مثلا وجد عنده المعلومات و « الاستمارات » اللازمة ، وطرق تيسير إجراءاتها .. وكان إلى جانب ذلك يشترى ويبيع الثياب القديمة ، والساعات ، والتحف الأثرية .. ويقدر قيمة الأراضى ، والمنقولات ، والجياد ، ويستبدلها لعملائه .. ويعقد القروض المالية للضباط ومن إليهم .. الخ .. وكانت دائرة اعماله واختصاصاته تتسع عاما بعد عام !

« لكن ذلك كله ما كان ليعود عليه بثروة يعتد بها ، لولا تقتير صاحبنا الشديد فى نفقاته .. من ذلك انه لم ينفق على ملبسه ومظهره طيلة عشرات من السنين غير ثمن هذه السترة السوداء والنظارة ذات الإطار المذهب اللتين تراهما عليه اليوم ، واللتين كانتا بمثابة رداء التنكر الذى أخفى تحته رواج احواله ، وانتقاله من مرتبة الوسيط البسيط إلى مرتبة « المقاول » والراسمالى !.. كان يعنيه أن يصير غنيا ، لا ان يبدو فى مظهر الغنى !

« وبقدر شراهته فى جمع المال ، كانت شراهته فى زيادة معلومـاته .. لم يكن يكف عن القراءة والدراسة ، فى كل

Looloo www.dvd4arab.com

دقيقة تفيض من وقته أثناء حله وترحاله : درس كتب القوانين التجارية والصناعية ، كى يستغنى عن المحامين فى أعماله .. وتتبع جميع المزادات الكبيرة فى باريس ولندن ، باهتمام تاجر العادات المحترف !.. وجعل من نفسه خبيرا فى كل الصفقات المالية على اختلافها .. وهكذا تطور عملاؤه من فئة الفلاحين ، إلى فئة المزارعين ، ثم فئة ملاك الأراضى الأرستقراطيين ، فلم يلبث أن صار يفاوض فى بيع حاصلات مزارع كبيرة أو غابات شاسعة ، وفى بناء المصانع أو تأسيس النقابات ، أو التعاقد لتوريد ما يلزم للجيش ، وغير ذلك .. وصارت السترة السوداء والنظارة المذهبة نشاهدان أكثر فأكثر فى أروقة دور الوزارات .. وبلغت ثروته نحو ربع مليون ريال ، وربما نصف مليون .. كل ذلك والناس ينظرون إليه نظرتهم إلى الوسيط البسيط ... حتى أتيح له أن يضرب الضربة الكبرى ، فيتحول من « ليوبولد كانيتز » النكرة المغمور ، إلى « هر فون كيكسفالفا » !

* * *

« .. وهذه المعلومات التى سردتها عليك وقفت عليها من غير صاحبها .. أما القصة التالية فقد رواها لى هو شخصيا ، على أثر إجراء جراحة خطيرة لزوجته ، أثناء انتظارنا للنتيجة واجفين فى إحدى غرف المستشفى ، بين الساعة العاشرة مساء ومشرق الفجر .. ومن ثم أستطيع أن أؤكد لك صحة كل حرف منها ، ففى مثل تلك الظروف ، فى مواجهة الموت ، لا يستطيع الإنسان أن يكذب ! » .

.. ورشف كوندور نبيذه فى بطء وتأمل ، ثم أشعل سيجارا آخر ، مضى يتابع دخانه بنظرات حالمة .. وأخيرا انتزع نفسه من شروده فى حدة ، واستطرد فقال : « تبدأ القصة فى قطار بطىء يسير من بودابست إلى فيينا .. وكان صاحبنا — برغم بلوغه الثانية والأربعين ، ودبيب المشيب فى سالفيه — ما يزال يقضى أكثر لياليه فى الأسفار ، ضنا بأوقاته النهارية الثمينة أن تضيع فى القطارات . ولست فى حاجة إلى القول بأنه كان يركب دائما فى عربات الدرجة الثالثة ! .. وكان له فى أسفاره برنامج لا يتغير ، فهو يفرش على المقعد الخشبى الصلب خرقة سميكة بالية ، ثم يخلع سترته ونظارته ، ويرتدى سترة من صوف (التريكو) ، ويدلى قبعته على عينيه كى تحجب عنهما النور .. ويقبع هكذا فى ركن العربة حتى يغلبه النعاس .. وكان قد تعلم منذ صباه أن الإنسان ليس فى حاجة إلى السرير كى يقضى الليلة ، أو إلى الراحة كى يستطيع أن ينام !

« لكنه فى هذه المرة لم ينم ، فقد نمى إلى سمعه حديث خافت يدور بين ثلاثة من جيرانه فى العربة .. حديث أطار النعاس من عينيه ، فقد كان ينصب على المال !.. كان أحد الثلاثة يقول لمرافقيه : « إن المحتال الماكر قد ربح من هذه الخدعة البسيطة ستين ألف ريال ، فى غمضة عين ! » .. وهنا راح « كانيتز » يحدث نفسه متسائلا : « ستون ألفا ؟.. من الذى ربحها ؟ وكيف وأين ؟ » .. وسرعان ما كان فى أتم يقظة ، وكان « دوشا » فى برودة الثلج قد بدد من حواسه

loolou www.dvd4arab.com

كل ميل إلى النوم ، فغدت مرهفة لسماع قصـــة الستين الف
ريال !.. ومن ثم جذب القبعة على عينيه اكثر من ذى قبل ،
كى لا يلحظ رفاقه أنه يقظان ، وانتهز فرصة كل ارتجاجة من
ارتجاجات القطار كى يدنو بجسمه من المتحدث تدريجا ، حتى
لا تفوته من حديثـه كلمة ، برغم ضجيج القـاطرة .. وكان
المتحدث ــ كما يبدو من كلامه ــ كاتبا فى مكتب محام بفيينا ،
يروى فى غيظ قصة مخدومه المحامى المحظوظ الذى ربح ذلك
المبلغ الضخم دون عنـاء .. وبرغم ان الحديث كان مبتـور
البداية ، فقد استـطاع « كانيتز » أن يفهم مضمونه بفضـل
انزلاق لسان المتحدث باسم الأميرة « أوروزفار » التى كانت
الصحف قد رددت اسمها كثيرا بصدد قضـية مشهورة كانت
بطلتها .. وسأحاول أن الخص لك وقائع تلك القضية فيمـا
يلى : « كانت » « أوروزفار » أميرة روسـية ثرية هاجرت من
أوكرانيـا على أثر وفاة زوجهـا .. ثم فجعت بوفاة طفليهـا
الاثنين فى ليلة واحدة بتأثير مرض السعال الديكى ، فامتـلأ
قلبها بالكراهية القاتلة لبقية اقربائها الذين يتطلعون إلى ساعة
موتها كى يقتسموا تركتها الضخمة ، فامتنعت عن مقابلة اى
فرد منهم أو فض اى خطاب يرسله إليها ــ ولعل حقدها على
هؤلاء، ورغبتها فى النكاية بهم ، كانا من العوامل النفسية التى
اعانت على إطالة عمرها حتى بلغت الرابعة والثمانين ! ــ ولم
تكن الأميرة ، بعد فواجعها الثلاث ، تطيق البقـاء فى قصرها
بضيعة « كيكسفالفا » اكثر من شهرين كل عام .. اما بقيـة
السنة فكانت تقضيها متنقلة بين مشـاتى أوربا ومصايفهـا
الفاخرة : (نيس) و (مونترو) و (كان) و (اكس ليبـان)

وغيرها ، حيث كانت تنفق عن سعة وبذخ ، وتستنفد كل المتع
التى يتيحها لها ثراؤها العريض . وكانت لها تابعة ــ بمثابة
وصيفة ــ تلازمها فى كل تنقلاتهـا ، فتطعمهـا ، وتزينهـا ،
وتعزف لها البيانو ، وتقرأ لها الروايات الفرنسية الشائقـة
... ثم تتحمل منها ، علاوة على كل هذه المتاعب ، توبيخها
وانتهارها ، بل وضربها إياها أحيانا ، كلما ادارت « الفودكا »
أو « الكونياك » رأسها !.. وكان اهالى تلك المصايف جميعـا
يعرفون الأميرة المتغطرسـة وتابعتها النحيـلة ذات العينين
الشاحبتين التى تتبعها كظلهـا ، وتسير خلفهـا مع كلابها ،
ولا تخفى خجلها من عجرفة مولاتهـا المبتـذلة .. وإن كانت
تخشاها كما تخشى الشيطان !

« وكانت الأميرة قـد أصيبت ــ فى سن الثامنة والسبعين
ــ بالتهاب رئوى حاد ، اثناء إقامتها بأحد فنادق (تيريتيه) ..
وتسرب النبـأ إلى اقاربهـا فهرعـوا من بلادهـم إلى حيث
احتشدوا فى الفنـدق يطـاردون الأطبـاء باستفساراتهم ،
ويتعجلون موت مورثتهم !.. لكن « الحيزبون » شفيت آخـر
الأمر ، فتفرق الأهل عائدين من حيث أتوا !.. ورشت الأميرة
بالمـال خدم الفندق وسعاته كى يعيدوا على مسمعها ما قاله
فيها اقاربها .. فأيدت روايتهم ظنونها فى مطامعهم الأشعبية ،
فقد قيل لها إنهم تشاجروا كعصـبة من الذئاب حول من يأخذ
ضيعة (كيكسفالفا) ، ومن يفوز بضيعة (أوروزفار) .. ومن
يسـتولى على الجواهر ، ومن تكون من نصيبه أملاكهـا فى
أوكرانيا ، وقصرها فى (أوفترشتراس) .. الخ .. فابرقت

Lalaloo www.dvd4arab.com

الأميرة على الأثر إلى محاميها فى بودابست كى يوافيها ، وبحضور طبيبين — شهدا بامتلاكها لقواها العقلية — حررت وصية جديدة ، ظلت فى حرز حريز بعد ذلك ستة اعوام كاملة ، حتى وافى الموت اخيرا صاحبتها ففتحت .. وإذا هى توصى فيها بجميع أملاكها لتابعتها الآنسة « انيت ديتزينوف » ، فيما عدا ضيعة (أوكرانيا) وأموالها النقدية فقد تركتها لمجلس بلدية المدينة التى ولدت فيها ، كى يبنى بها كنيسة .. وأوضحت الموصية فى ختام وصيتها انها قد حرمت اقرباءها جميعا « لأنهم لم يصبروا عليها حتى الموت ! » .

وصعقت الوصية اقرباء الأميرة ، فجندوا المحامين ، ورفعوا الدعاوى طالبين الحكم ببطلان الوصية ، باعتبار أنها كتبت أثناء « مرض الموت » ، فى وقت لم تكن صاحبتها فيه متمتعة بكامل وعيها .. إلى آخر الحجج القانونية والمزاعم المألوفة فى هذا الصدد .. ولكن دون جدوى ، فقد خسروا قضيتهم فى مرحلتيها الأوليين ، ولم يكن ثمة شك فى انهم سوف يخسرونها امام محكمة النقض ايضا !

« والآن نعود إلى « كانيتز » وهو يستمع — متناوما ! — للحديث الذى يجرى بجواره فى عربة القطار ، (فقد كان يعرف الكثير عن ضيعة (كيكسفالفا) منذ بدأ اشتغاله بأعمال الوساطة) ، فسمع كاتب المحامى يذكر ان أقرباء الأميرة انتهزوا فرصة غياب محامى الوراثة فى فيينا ، لحضور قضية اخرى صغيرة ، وزار وفد منهم غريمتهم الآنسة « آنيت » ، وافلحوا فى التأثير عليها ، والتلويح لها بالراحة وهدوء البال

والخلاص من مشكلات القضايا والمنازعات امام المحاكم ، فى مقابل عقد تسوية خاصة معهم قبل موعد نظر النزاع أمام محكمة النقض .. وقبلت الساذجة اقتراحهم فوقعت على التسوية المعروضة ، وبذلك فرطت بجرة قلم فى اكثر من نصف الثروة إلى ورثتها !.. وطبعا كان فى الامكان إثبات بطلان هذه التسوية التى لم تتم بحضور محضر قضائى مختص ، والتدليل على ان الوارثة حين وقعت عليها كانت تحت تأثير عصبة الاقرباء المدلسين ، لكن هؤلاء عرفوا من اين تؤكل الكتف ، فسارعوا إلى شراء سكوت محاميها عن اتخاذ اى إجراء ضدهم فى مقابل ذلك المبلغ الدسم ، الستين الف ريال !.. وهكذا لم يبق الآن للوارثة الحمقاء من الثروة الضخمة التى آلت إليها غير ضيعة كيكسفالفا ، وهى لن تلبث ان تفرط فيها بدورها فيما أعلم .. فان شخصا من رجال الأعمال يدعى « بتروفيك » يعتزم استئجارها منها بمبلغ زهيد ! » .

« .. وعند هذا الحد تشعب الحديث إلى موضوعات اخرى ، ولكن بعد ان سمع كانيتز ما فيه الكفاية لكى يسيل لعابه ، فقد كان أعرف الناس بالكنوز والتحف التى يحتوى عليها قصر كيكسفالفا ، منذ توسط فى التامين عليها لدى إحدى الشركات قبل عشرين عاما ، وكان بينها أوان من الخزف الصينى المزخرف والحرير المشغول خلفها جد الأميرة الذى كان سفيرا لروسيا فى (بكين) — وهى وحدها تساوى فى نظر عشاق التحف من الأمريكيين مبالغ طائلة .. فلو أمكنه الحصول

Loolo www.dvd4arab.com

عليها بثمن مناسب ، فى زحمة انتقال ملكيتها من مالك إلى آخر ، لكانت صفقة رابحة حقا ، سيما وهو يعرف «بتروفيك» الذى يقال إنه سوف يستأجر القصر .. وهكذا صح عزم صاحبنا على ان يتسلل من القطار فى اقرب محطة إلى الضيعة ــ وكان مقدرا ان يبلغها فى منتصف الساعة الثالثة صباحا ، اى بعد نحو نصف ساعة ! ــ وبالفعل، نفذ المغامر هذا الخاطر فورا ، فغادر القطار فى المحطة التالية .. وبعد ليلة قضاها مؤرقا ، مثل القائد المقدم على معركة لا يطمئن إلى نتيجتها ، غادر «كانيتز» غرفته بفندق القرية ، فى تمام الساعة السابعة صباحا ، متجها إلى القصر .. وتلاحقت دقات قلبه وهو يطرق باب الحديقة الرئيسى ، دون مجيب .. فمضى يطوف ببقية الأبواب التى تتخلل سور الحديقة ، ويدقها بيده ، ويصفق ، ويصيح .. ولكن دون جدوى !.. وضاعف من قلقه خشيته ان يكون « بتروفيك » اللعين قد هرع إلى (بودابست) ليعقد صفقته مع الوارثة الساذجة بغير إبطاء !.. واخيرا لمح امراة تسقى اصص النباتات داخل غرفة زجاجية تقع فى طرف الحديقة ، فطرق على الزجاج بيده ، واشار إلى المراة كى تفتح له احد الأبواب .. واقبلت هذه آخر الأمر ، تتعثر فى مشيتها ــ خجلا او ترددا ــ وكانت امراة نحيلة جاوزت طور الشباب الأول ، وترتدى قميصا بسيطا قاتما و (مريلة) قطنية ، وتمسك فى يدها مقص الحديقة الكبير نصف مفتوح .. فصاح بها ، نافد الصبر : « انكم تتركون الزائر ينتظر طويلا على الباب .. ولكن اين بتروفيك ؟ » .. فأجابت المراة فى تلعثم : « من ؟ آه ! ، تعنى بتروفيتش ؟..

إنى لم اره ، ولكنى احسب انه قد ذهب إلى فيينا ، وزوجته تأمل ان يعود إلى هنا فى المساء . » .

« وعز على كانيتز أن يقضى ليلة اخرى فى الفندق ، ينفق فيها نفقات اخرى ، دون وثوق من النتيجة .. ولعن سوء الحظ الذى جعل الرجل يختار هذا اليوم بالذات للتغيب عن البلدة !.. فعاد يسأل المراة : « هل استطيع ، فى انتظار ذلك ، ان القى نظرة على القصر من الداخل ، اليست المفاتيح معك ؟ .. هيا إذن ولا تخشى شيئا ، فلن اخطف منقولات من القصر والوذ بالفرار ! » .

« وبعد مناقشة سقيمة تثير الأعصاب ، سمحت المراة له بالدخول ، فتبعها إلى داخل القصر وهو ساخط على المحضر الذى ترك القصر فى حراسة مثل هؤلاء الخدم الأغبياء !.. وعند الباب الداخلى بدا على المراة التردد والارتباك ، من جديد .. فصاح بها وقد نفد صبره : « هيا اسرعى ، فليس عندى وقت اضيعه .. ماذا تصنعين انت هنا بربك ؟ » .. فوقفت المراة مذعورة فى مكانها بلا حراك ، ثم اجابت وقد احمر وجهها : « انى .. أعنى « كنت » تابعة الأميرة ! » .. فتراجع صاحبنا برغمه خطوة إلى الخلف ، وهتف بها مأخوذا : « اتقصدين انك انت الآنسة « أنيت ديتزينوف ؟ » ، فأجابت بلهجة الخائفة ، وكأنها اتهمت بجريمة : « نعم .. انا هى ! »

« ولأول مرة فى حياته ، احس كانيتز بالارتباك والبلبلة ، فخلع تبعته وغير لهجته ، وهو يردف قائلا : « ارجو المعذرة ، ارجو المعذرة يا آنسة .. ولكن لم يقل لى احد انك وصلت .

Loolooo www.dvd4arab.com

لم اكن اظن .. أرجو أن تغفرى لى .. إنى إنما جئت لكى » ، وتردد برهة .. كان عليه أن يختلق فورا سببا كاذبا لحضوره .. وما عتم أن استطرد : جئت بشأن التأمين ، كى أستوثق من أن كل شىء باق فى مكانه .. واجبنا يقتضينا ذلك .. ولكن لا داعى للاستعجال » .. فقالت له : « لا بأس ، فى وسعك أن ترى بنفسك أن كل شىء باق فى مكانه ! » .. فشكرها كانيتز بانحناءة مؤدبة ، ودلف كلاهما إلى الداخل . وتبين صاحبنا صدق قولها ، وفيما هما يطوفان بأنحاء القصر كان الماكر يحدث نفسه : « يجب أن أظفر بصداقتها ، ولا أدعها تفلت من يدى !.. فلأشغلها بالحديث المتواصل ! » .. وأثناء الحديث راح يستدرجها إلى الإفضاء بالمعلومات التى تهمه ، فقال لها وهو يبدى إعجابه بالمناظر المحيطة بالقصر : « لكنك ستقيمين بيننا هنا ، فيما أحسب ؟ » .. لكنها أجابته على الفور : « أنا ؟.. كلا ! وماذا أفعل وحدى فى قصر فسيح مثل هذا ؟.. إنى سأغادره توا عقب انتهاء الإجراءات الرسمية » .

« واختلس كانيتز نظرة إليها : كانت المليونيرة الساذجة أشبه بقشة ضئيلة وسط الحجرة الفسيحة ! وفيما عدا شحوبها الشديد ، وهيئتها المذعورة ، كان الناظر إليها يستطيع أن يقول إنها حسناء !.. وبحكم خبرة كانيتز بالطبائع البشرية ، أدرك توا أنه أمام مخلوقة ليس لها إرادة خاصة بها ، مخلوقة عاشت دهرا فى مركز التابعة لغيرها ، بحيث صار من المستحيل عليها أن تجد الشجاعة الكافية

لاتخاذ قرار ، بوحى من إرادتها المستقلة .. وبحيث أفزعها — أكثر مما سرها — أن ترث هذه الثروة الطائلة ، التى تجثم على قلبها كالحمل الثقيل !.. وبوحى خبرته — طيلة عشرين عاما — بوسائل الإغراء والإقناع ، فى المسائل المالية ، بادر كانيتز إلى الضرب على الوتر الذى لمس من المرأة ميلا إليه ، فقال لها : « لعلك محقة فيما اعتزمته .. فان ضيعة شاسعة مثل هذه لا تدع لمالكها لحظة واحدة يستريح فيها من متاعب المعاملات مع الزراع ، والجيران ، ومصلحة الضرائب ، والمحامين .. الخ .. كما أن إدارتها تتطلب يدا حازمة تحسن البطش بالطامعين ، وحتى لو كانت لك هذه اليد الحديدية فان الأمر يقتضيك كفاحا طويلا شاقا ! » .

« وأمنت هى على كلامه ، مقتنعة بصحته ، بينما كان عقله يفكر بلا توان فى أسلم السبل وأسرعها إلى تحقيق مطامعه ، والظفر باستئجار هذه الضيعة ، قبل أن يظفر بها « بتروفيك » !.. وهكذا أستمر فى ادخال الرعب إلى قلب المرأة ، كى تقبل أى مبلغ يعرضه عليها ، مستغلا قلة خبرتها باستثمار الأموال ، وعجزها عن أن تساومه أو تقاوم أحابيله .. وهكذا مضى فى ثرثرته ، متظاهرا بأنه يتحدث عن غير غرض شخصى ، بينما كان كل عصب وكل خلية فى مخه توازن ، وتدبر ، وتفكر بسرعة هائلة !.. وأصغت له المرأة مطرقة الرأس .. وفجأة رفعت عينيها وزفرت زفرة حارة ، بدا كأنها خرجت من أعماق قلبها ، ثم قالت كالحالمة : « نعم ، إن هذه الضيعة حمل ثقيل .. آه لو استطعت بيعها ! » .

Loolo0 www.dvd4arab.com

.. وهنا سكت الدكتور كوندور فجاة ، ثم استأنف كلامه بعد قليل فقال : « ينبغى أن أقطع حديثى يا سيدى الملازم كى أوضح لك ما كان لتلك العبارة الواحدة القصيرة التى فاهت بها المراة من صدى فى نفس صديقنا كانيتز !.. لقد ذكرت لك انه روى لى هذه القصة خلال اظلم ليلة فى حياته ، ليلة وفاة زوجته ، اى فى ساعة من تلك الساعات التى لا تمر بالإنسان أكثر من مرتين او ثلاث طيلة العمر ، والتى يتوق فيها أكثر الناس تحفظا إلى كشف دخيلة نفسه لشخص ما ! وإنى لأذكره — كما لو كان ذلك بالأمس — وهو يهمس لى بهذه القصة فى صوت منفعل ، دون توقف ، كانما يريد أن ينسى فى غمرة حديثه أن زوجته تموت فى غرفة أخرى من المصحة ، وليغرق حواسه فى طوفان لا ينتهى من الكلمات !.. لكنه لم يكد يبلغ من قصته هذا الجزء ، الذى نطقت فيه المراة بتلك العبارة ، حتى شحب وجهه وغص حلقه ، من انفعال الذكرى — برغم انقضاء نحو ستة عشر عاما على ذلك التاريخ ! — وراح يكرر عبارة المراة ، مرة بعد مرة ، باللهجة التى نطقتها بها : « آه لو استطعت بيعها ! » .. لقد أدرك كانيتز فى تلك اللحظة ان فرصة — و « صفقة » — العمر كله قد لاحت له ، بل القت بنفسها بين يديه ، بحيث لم يبق عليه غير ان يغلق عليها قبضته : نعم فى وسعه أن « يشترى » الضيعة الهائلة ، لا ان يستأجرها فقط !.. ومضت الأفكار تتسابق فى ذهنه وهو ماض فى ثرثرته المتعمدة ، قائلا لنفسه : « يجب أن اشتريها فورا ، قبل ان يصل « بترونيك » او سواه من المتنافسين .. ولن ابرح هذا المكان إلا وانا مالك (كيكسفالفا)

الأوحد المحظوظ .. فلأقطع على المراة خط الرجعة ، ولا أدعها تتملص من قبضتى ! » .

« وبتلك القدرة الغامضة التى تواتى المرء فى لحظات نادرة من اليقظة الذهنية ، المرهقة للأعصاب ، مضى الماكر يفكر فى مصلحته الخاصة ، فى الوقت الذى يتحدث فيه إلى المراة حديثا مضادا لتلك المصلحة ، قائلا لها : « تقولين انك تريدين بيعها .. إن البيع يا آنسة أمر سهل ، لكن البيع بسعر مرتفع فن قائم بذاته ، وهو النقطة الهامة فى الموضوع .. إنه يتطلب العثور على شخص امين يعرف المنطقة والأرض والأهالى .. لا واحد من أولئك المحامين الذين يورطونك فى إجراءات طويلة معقدة .. ثم ينبغى أن تجدى من يدفع لك الثمن نقدا ، وليس بسندات او أوراق مالية معرضة لتقلبات الأسواق .. » .

.. وفيما هو يتكلم هكذا ، كان يدير الحسبة فى رأسه : « فى وسعى أن أدفع فى الضيعة أربعمائة الف ريال ، او أربعمائة وخمسين الفا على الأكثر — فان الصور والتحف التى فى القصر تساوى وحدها نحو مائة الف ، هذا عدا القصر نفسه ، والمزرعة ! — ولكن يجب ان أستوثق أولا مما إذا كانت الضيعة محملة برهن ، وما إذا كانت المراة قد تلقت عرضا محدد الرقم ، كسعر لها ؟ » .. وفجأة ألقى كانيتز على محدثته هذا السؤال : « هل لديك — واغفرى لى يا آنسة هذا السؤال — فكرة تقريبية عن السعر ؟ » .. فأجابته فورا وهى ترمقة بعينين زائغتين : « كلا [illegible] هذا » ، فقد

looloo

كان يعلم ان الجهلة بقيمة ما يملكون هم اصعب الناس عادة فى التعامل ، لأنهم لا يكفون عن استشارة كل من هب ودب فى شأن السعر ، وبذلك يرتفعون به إلى أكثر مما يساوى عادة !.. لكن كانيتز لم ييئس ، بل واصل استفساراته فقال : « لكن لابد أنك تعرفين إذا كانت الضيعة مرهونة أم لا ، وبأى ثمن قدرت عند فرض الضرائب عليها .. أفلم يذكر لك محاميك شيئا فى هذا الصدد ؟ » .. فقالت له : « آه ! لقد ذكرتنى .. منذ أيام كتب لى المحامى شيئا له صلة بتقدير الثمن أو الضرائب .. نعم ، معك حق .. لكنه كتبه بالهنغارية ، التى لا أعرف منها حرفا .. وأذكر الآن أنه أوصانى بتكليف أحد بترجمتها ، لكنى نسيت الأمر كله من شدة انشغالى وارتباكى . لابد أن الأوراق كلها فى حقيبتى ، فلو تكرمت بالصعود معى إلى غرفتى فسأريك كل شىء .. هذا إلا .. إلا إذا كنت قد أثقلت عليك بمشكلاتى الخاصة ! ».

« وارتجف كانيتز من فرط الانفعال .. إن الثمرة تسقط فى حجره بسرعة لا تحدث إلا فى الأحلام !.. إن المراة توشك ان تعرض عليه مستنداتها التى تحوى تقدير ممتلكاتها ، وبذلك تعطيه الكلمة العليا فى الموضوع !.. وانحنى لها فى تواضع قائلا : « أؤكد لك يا آنسة أنه يكون من دواعى سرورى لو استطعت تقديم نصيحة نافعة لك فى هذا الشأن ، فان لى — ولا فخر — خبرة كبيرة بهذه المسائل .. وقد طالما لجأت الأميرة إلى ملتمسة منى إرشادها فى بعض الأمور المالية ! » .

« وصعدا إلى غرفتها ، حيث جعلت المراة تنبش أوراقها حتى عثرت على الورقة المطلوبة فأعطته إياها ، وكان المحامى يخطرها فيها بأنه قد نجح ، بوساطة صديق له من ذوى النفوذ ، فى الحصول من مصلحة الضرائب على تقدير استثنائى منخفض للضيعة ، يبلغ مائة وتسعين ألف ريال ، فى حين أنها تساوى أكثر من ثلاثة أو أربعة أضعاف هذا المبلغ!

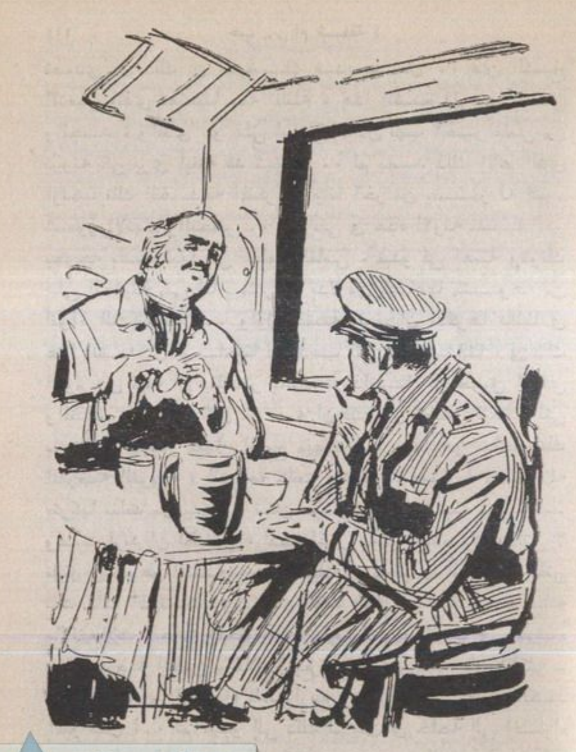
« وخفق قلب كانيتز ، واصفر وجهه .. هذا يؤيد تقديره هو لقيمة الضيعة بنحو ستمائة أو بسبعمائة الف ريال ، عدا التحف التى يجهل المحامى قيمتها الحقيقية !.. إذن كم ينبغى أن يعرض على المراة ؟.. تراقصت الأرقام وسبحت أمام عينيه . .بينما بلغ سمعه صوت المراة تسأل فى لهفة : « أليست هى الورقة المطلوبة ؟ » .. فقال لها : « إنها هى ، وفيها يخطرك المحامى بأن قيمة الضيعة مائة وتسعون الف ريال .. أعنى قيمتها الأسمية طبعا ! » .. فقالت : « قيمتها الأسمية ؟.. وماذا يعنى ذلك ؟ » .. ورأى صاحبنا أن فرصته لاقتناص الصفقة قد حانت ، فان لم ينتهزها ضاعت إلى الأبد !.. ووجد نفسه يجيبها وهو يقمع أنفاسه اللاهثة : « القيمة الأسمية هى القيمة الرسمية المشكوك فيها ، وهى تختلف دائما عن القيمة الحقيقية للمبيعات .. فالمرء لا يستطيع أن يجزم قط بإمكان تحصيل المبلغ الذى قدرت الضريبة على أساسه كاملا .. وقد يحدث هذا أحيانا ، بل قد يحصل المشترى على أكثر من المبلغ المذكور ، لكن ذلك أمر نادر لا يمكن الاعتماد عليه . إنه أشبه بالمقامرة ، كما فى البيع بالمزاد العلنى مثلا .. أعنى

Tooloo www.dvd4arab.com

انه فى حالة بيع هذه الضيعة يمكنك الحصول على ثمن فعلى لا يقل عن مائة وخمسين الف ريال ..! » .

« وجمد الدم فى عروق كانيتز ، حين التفتت إليه المراة تساله ، فى حدة جعلته يرتجف هلعا : « كم الف ريال ذكرت ؟ » .. ولعله خشى أن تكون قد فطنت إلى خدعته الكاذبة ، ولهذا فكر فى أن يرفع السعر خمسين الف اخرى ؟.. لكن صوتا داخليا اهاب به أن يصمد ، ويجرب حظه !.. فقال مكررا ، ونبضات قلبه تدق أذنيه بشدة : « مائة وخمسين الفا .. وأعتقد أن الثمن الفعلى ينبغى ألا يقل عن ذلك ! » .. قالها وقد كاد قلبه يكف عن الخفقان ، ونبضه يتوقف !.. وبعد لحظات — خالها دهرا — تساءلت المراة فى لهجة الماخوذة : « حقا ؟.. هل تعتقد بإمكان الحصول على كل هذا المبلغ ثمنا للضيعة ؟ » .. وكان على كانيتز أن يبذل جهدا للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يجيبها بلهجة المقتنع : « نعم يا آنسة .. استطيع أن اتعهد لك بذلك . ويجب الا تقبلى ثمنا اقل من هذا ؟ » .

.. ومرة أخرى قطع الدكتور كوندور حديثه ، فحسبته يتاهب لإشعال سيجارة .. لكنه بدلا من ذلك خلع نظارته ، ثم اعادها إلى مكانها فى انفعال .. وبعد أن مر بيده على شعره ، رمقنى بنظرة طويلة قلقة ، واضطجع فى مقعده ، ثم استانف كلامه : « قد أكون قد أفضيت إليك بأكثر مما ينبغى ، أو بأكثر مما كنت اريد على أية حال .. لكنى اعتقد انك لن تسىء فهمى ، فلئن كنت قد صارحتك بالحيلة التى خدع بها كيكسفالفا المراة الساذجة التى وثقت فيه ، فلم يكن



ومرة أخرى قطع الدكتور كوندور حديثه ، فحسبته يتاهب لإشعال سيجارة .. ولكنه بدل من ذلك خلع نظارته ..

Looloo www.dvd4arab.com

تصدى من ذلك ان أحرضك ضده بحال .. فان الشيخ التعس الذى تعشينا معه الليلة ، هذا الشيخ المريض النفس والجسد ، والذى هو على استعداد لأن يهب آخر فلس من ثروته كى يرى ابنته قد شفيت .. لم يعد ذلك الآثم الذى ارتكب تلك الخدعة المنكرة ، وانا آخر من يضمر له اليوم شعور الاتهام والتحقير .. بل إننى فى هذه الآونة نفسها التى يحوجه يأسه فيها إلى عطف الناس ، تبدو لى اهمية وقوفك على الحقيقة منى انا مباشرة ، بدلا من سماعها مشوهة من افواه الشائعات !.. وأول حقيقة ينبغى ان تذكرها دائما فى هذا الصدد أن صاحبنا لم يذهب إلى (كيكسفالفا) فى ذلك اليوم وفى نيته ان يظفر بالضيعة ذاتها عن طريق الغش والتدليس ، وإنما كان كل همه أن يشترى بعض التحف التى يستطيع الاتجار فيها والربح منها .. وإذا هو يفاجأ بتلك الفرصة الفريدة ، التى ما كانت عقليته التجارية لتسمح له بتركها تفلت من يده .. فكان طبيعيا أن يتشبث بها !..

ولست اريد ان اطيل ، لذلك اغفل بعض التفصيلات التى لا تؤثر فى جوهر القصة .. وحسبك أن تعلم ان الساعات التى تلت ذلك الموقف الذى رويته كانت احفل ساعات حياته بالانفعالات الحادة المختلفة .. كيف لا وقد لاحت فى سماء حياته فرصة الظفر ـ خلال أربع وعشرين ساعة على الأكثر ـ بثروة تفوق ما اقتناه طيلة اربع وعشرين سنة من الكد المتواصل !.. ثم هو إلى ذلك لم يكن فى حاجة إلى إغراء ضحيته او مطاردتها ، بل كانت ضحيته هى التى تسعى بملء إرادتها إلى براثنه ، وتلعق اليد التى تمسك لها السكين !..

وأدرك « كانيتز » أن الخطر الوحيد الذى يهدده بفشل الصفقة قد يأتى من جانب أى شخص اجنبى تلتقى به المرأة او تسأله النصح ، ومن ثم جعل همه ان يشدد عليها حصاره حتى يتم إجراءاته قبل ان يتدخل احد فى الأمر ، او يعود « بتروفيك » !.. وكان عليه اثناء ذلك الا يفضح اهتمامه باتمام الصفقة لمصلحته الشخصية .. وهكذا دبر خطته الجريئة « النابوليونية » لاغتصاب « قلعة » كيكسفالفا قبل وصول جيوش العدو !.. والحظ دائما شريك متطوع لخدمة المغامر الجسور ، فقد تدخل فى الموضوع عامل آخر يسر المهمة لكانيتز من حيث لا يشعر ، وهذا العامل هو رغبة الوارثة التعسة فى الخلاص من الضيعة بأسرع ما يمكن ، بسبب الجفاء الظاهر والبغض الشرير الذى استقبلها به كل من كانت له صلة بالقصر ، من الخدم والزراع والجيران الحاسدين !.. بحيث ادركت المسكينة من أول لحظة أنها لن تستمتع بساعة واحدة من السلام او الراحة فى القصر .. وهكذا لم يكد كانيتز يقترح عليها ـ واجفا ـ أن تصحبه فى اليوم نفسه إلى (فيينا) حيث يعرف شخصا يبحث عن صفقة مماثلة .. حتى تقبلت المرأة على الفور هذا العرض ، شاكرة لكانيتز ما بدا لها من أنه « تطوع » لمعاونتها ، تطوعا أملته المروءة والشهامة ، وبادرت إلى التماس نصائحه فى شأن افضل الوسائل لاستغلال المبلغ الذى سوف تقبضه ، ووجوب الابتعاد عن التعقيد الضار الذى يجلبه تدخل المحامين فى هذه المسائل !؟

Loolo
www.dvd4arab.com

« .. ولم يكد يقترب موعد قيام قطار الساعة الرابعة الذاهب إلى فيينا ، حتى غادر الاثنان القصر إلى المحطة ، نحجزا متعدين فى عربة الدرجة الأولى — لأول مرة فى حياة كانيتز ! — وفى فيينا قادها صاحبنا إلى فندق محترم احتل كل منهما غرفة منه . وكان عليه أن يهرع إلى محاميه وشريكه فى كثير من الصفقات المدعو « جولينجر » كى يدبر الأمر معه ، لكنه خشى أن تتصل فى غيبته بمحاميها أو تلقى من يبدل رأيها ، فاقترح عليها أن تقضى السهرة فى مشاهدة إحدى روايات الأوبرا .. وبعد أن أجلسها فى مقعدها واطمأن إلى أنها لن تبرحه قبل انقضاء أربع ساعات ، خف لزيارة محاميه .. لكنه لم يجده فى مكتبه ، ولا فى داره ، فمضى يبحث عنه حتى عثر عليه فى إحدى الحانات .. وهناك شرح الأمر له ، واعدا إياه بمكافأة قدرها ألفا ريال إذا أعد العدة للتوقيع على عقد الصفقة أمام الموثق الرسمى فى الساعة السابعة من مساء اليوم التالى .. ثم أسرع عائدا إلى الأوبرا ليصحب ضحيته إلى الفندق .. وفى مخدعه هناك عانى ليلة ثانية طويلة بلا نعاس ، فكلما اقترب من هدفه ازداد قلقه وخوفه من أن يتبدد حلمه فى آخر لحظة !.. وهكذا ظل طيلة الليل يدبر الإجراءات التى يعتزم اتخاذها فى الغد لاتمام محاصرة العدو : فأولا ينبغى الا يتركها وحدها لحظة واحدة ، أو يدعها تسير على قدميها فى الطريق ، أو تقع عينها على صحيفة من الصحف .. ولكن الذى حدث أن كل هذه المخاوف والاحتياطات كانت عقيمة ولا داعى لها ، فان الضحية نفسها لم تكن تريد الفرار ، فسارت وراءه كما

تسير النعجة الغبية إلى الذبح ، وحول عنقها شريط أحمر ! .. ومضى الاثنان يتنقلان بسيارة مأجورة بين مختلف الإدارات والبنوك ، وهى تطيعه طاعة عمياء ، كالطفلة ، وتوقع على كل ما يقدمه لها من أوراق ومستندات — دون أن تقرأ محتوياتها ! — وكأنها تبغى الإنتهاء من كل ما له صلة بالمال ومتاعبه ، كى تعود فتجلس فى غرفة هادئة لتقرأ ، أو تغزل الصوف ، أو تعزف البيانو !

« وفى الموعد المحدد ، اجتمعا بالمحامى والموثق الرسمى ، فوقع الطرفان على العقد ، وتبودل تسليم الثمن وصكوك ملكية الضيعة ، ثم أودعت ثروة المرأة النقدية أحد البنوك المشتغلة بتوظيف الأموال ، لاستغلالها فى عملية تدر عليها إيرادا سنويا منتظما قدره ستة آلاف ريال فى السنة .. فى الوقت الذى ضاعف فيه كانيتز ثروته ثلاثة أضعاف ، بجرة واحدة من قلمه ، وصار منذ تلك اللحظة مالك (كيكسفالفا) وسيدها الأوحد !

« وكان كانيتز قد علم من المرأة خلال النهار أنها تعتزم الرحيل عقب اتمام الإجراءات إلى حيث تقيم مع بعض أقربائها فى إقليم (وستفاليا) ، فاستفسر لها عن موعد القطار الذى يقلها إلى هناك ، وعلم أنه يغادر فيينا فى الساعة التاسعة والثلث من صباح اليوم التالى .. وهكذا استقر الرأى على أن تبيت المرأة ليلة أخرى فى الفندق .. فلما ودع الموثق والمحامى كانيتز على أثر التوقيع على العقد ، وخلا هو إلى ضحيته ، أحس رهبة خفية !.. لست أعنى أن ضميره قد استيقظ فجأة ، فندم على فعلته ، وإنما أقول إن

Loloo www.dvd4arab.com

شعوره نحو المرأة تبدل على حين غرة ، فلم تعد هى بالنسبة له بمثابة الخصم الذى يحتال عليه كى يجبره على التسليم .. بل انكمشت فى نظرة إلى امرأة ساذجة مسكينة ، تسير إلى جانبه فى هدوء ومسالمة !.. وصدقنى أن شيئا لم يثقل على قلب « نابليون كانيتز » فى ساعة انتصاره الأعظم السريع ، اكثر من ان ضحيته قد يسرت له سبيل الانتصار عليها ، فلم تقاومه مقاومة تذكر .. والمرء حين يظلم شخصا او يسىء إليه ، يلذ له ان يوحى إلى نفسه ، كى يريح ضميره ، بأن هذا المظلوم اخطأ فى حقه !.. لكن كانيتز لم يجد ما يتهم به ضحيته ، فقد سلمت نفسها له معصوبة العينين ، ولم تكف طيلة الوقت عن ان ترمقه بنظرات الثقة ، بل الشكر !.. فماذا يقول لها الآن ، وهو سائر إلى جانبها ؟.. ايهنئها على بيع الضيعة ، أو بعبارة اصح على « فقدانها » ؟.. وازداد احساسه بالحرج ، فجعل يمنى نفسه بقرب وصولهما إلى الفندق ، والخلاص من رفقتها .. إلى الأبد !

« وبعد أن سارا مسافة صامتين ، وقد بدت على كليهما سيماء التفكير .. سعلت المرأة قليلا ، ثم ابتدرته قائلة : « لا تؤاخذنى !.. لكنى أريد قبل سفرى أن اسوى كل الأمور التى بيننا ، فأشكرك أولا من أجل كل المتاعب التى تجشمتها بسببى .. ثم ارجو أن تصارحنى بالمبلغ الذى أنا مدينة به لك فى مقابل هذه المتاعب ! » . وكان ذلك اكثر مما يستطيع الرجل أن يحتمل .. فانتابه شعور المعتدى حين يضرب كلبا بقسوة ، فيعود الكلب بعد قليل وهو يهز ذيله كى يلعق —

فى توسل ومذلة — اليد التى ضربته !.. فشكرها محتجا ومعتذرا ، وقد أحس بعرق الخجل ينضح من جسمه ، وكانا قد بلغا الفندق ، ففكر كانيتز فى أن يدعوها إلى العشاء ، أو إلى سهرة فى احد المسارح .. لكنها قطعت عليه حبل تفكيره حين مدت إليه يدها قائلة : « أعتقد أننى ينبغى الا آخذ من وقتك اكثر مما اخذت . والواقع انه قد ساءنى أن تضيع يومين كاملين فى تصريف مشكلاتى ، فما من شخص آخر يقدم على التضحية بمصالحه الخاصة إلى هذا الحد .. ولم يحدث قط من قبل أن اظهر لى احد هذا العطف والمعونة ، ولا تصورت لحظة واحدة أن فى الإمكان تسوية كل تلك المسائل المعقدة بهذه السرعة وهذا التوفيق .. فأشكرك كل الشكر ! » .

« .. فأخذ كانيتز يدها الممدودة فى يده ، ولم يملك نفسه من النظر إلى وجهها . وكانت حرارة عاطفتها قد اذابت الكثير من خجلها وإجفالها ، واضرمت الحمرة فى قسماتها التى كانت فى العادة شاحبة متهيبة ، فبدت أشبه بالطفلة فى ابتسامتها الشاكرة ونظرة عينيها الزرقاوين المعبرتين .. وحاول كانيتز أن يجد شيئا يقوله .. ولكن قبل أن يتكلم ، كانت قد ودعته ومضت ، خفيفة الخطوة ، يحدوها الجلال والثقة ، شأن من القت عن كاهلها عبئا ثقيلا ، وتحررت من اغلالها ..!

« وهكذا خلف الحمل الوديع جزاره .. فأحس كانيتز بأنه كالمضروب على رأسه بفأس !.. ووقف ذاهلا بضع دقائق ، يحدق فى مدخل الفندق الذى اختفت وراءه المرأة ..

looloo www.lloyd4arab.com

واخيرا حمله تيار الزحام فى غمرته إلى حيث لا يدرى ، وعبارة الشكر الأخيرة التى وجهتها إليه ، تدوى كالطبل فى اذنيه !.. ولم يكن أحد قد وجه إليه مثل هذه العبارة من قبل ، ولا نظر إليه إنسان مثل نظرتها المنطوية على العرفان بالجميل !.. فى حين أنه خدعها وخانها أبشع خيانة !

« .. وتوقف فى طريقه مرارا ، ليمسح العرق عن جبينه .. وفجأة رأى صورته فى مرآة محل تجارى ، فحدق فى وجهه كما يحدق الإنسان فى صورة مجرم نشرتها إحدى الصحف ، ليرى أين يبدو الإجرام فى قسماته : أفى ذقنه الذى يمثل الميل إلى المشاكسة ، أو شفته القبيحة ، أو عينيه القاسيتين ؟.. وفجأة تذكر عينى المرأة التى تركها لتوه : أين من هاتين العينين الزرقاوين المضيئتين اللتين تشعان بالإيمان والاخلاص ، عيناه الشرهتان القلقتان ، المقرحة أجفانها ؟!.. وأين من شخصيتها الطاهرة المهذبة ، شخصيته الملتوية المعقدة ؟!.. ومضى يحدث نفسه : « إنها تخان ولا تخون !.. انها من ذلك الصنف الساذج الذى يباركه الله !.. وإن حيلى وخدعى كلها لم تجلب لى من السعادة والسلام عشر ما جلب لها استسلامها ! » .. وهكذا أحس كانيتز أنه ، فى يوم انتصاره الأعظم ، اكثرتعاسة منه فى أى يوم سابق !

« واخيرا شعر بالجوع ، فدخل مقهى وطلب شيئا ليأكله .. لكن كل قضمة صارت تثيره ، ومضى يحدث نفسه : « ماذا أصنع بهذه الضيعة وأنا لست من الزراع ؟.. وهل يعقل أن أعيش وحدى فى قصر يضم ثمانى عشرة حجرة ؟!..

ماذا افعل بكل هذا ؟.. كان غباء منى أن اشترى الصفقة لحسابى الخاص .. وماذا لو اكتشفت المرأة اننى لست الوسيط بل الشارى ؟.. فلأردها لها إذا شاءت ، واحتفظ لنفسى بعشرين أو عشرة فى المائة من قيمتها .. إن فى وسعها دائما أن تستردها إذا ندمت يوما على بيعها ! » .. وتمكنت الفكرة من رأسه ، فاعتزم أن يقابل المرأة فى صباح اليوم التالى - قبل موعد قيام القطار - كى يعرض عليها هذا الأمر. وإذ انتهى إلى هذا الحل ، خيل إليه أنه سوف ينعم بليلة ينامها ناعم البال ، بعد الليلتين اللتين قضاهما مؤرقا حتى الصباح .. لكن رجاءه خاب ، فقد بقى مسهدا ، تدوى فى اذنيه عبارتها « اشكرك كل الشكر ! » .. ولم تنتصف الساعة الثامنة من الصباح حتى كان فى ردهة الفندق ، يسأل عن الآنسة « ديتزمينوف » ، حاملا لها على ذراعه باقة فاخرة من الأزهار ، وصندوقا من الشيكولاته الغالية !

« وقيل له إنها فى حجرة الطعام تتناول الافطار .. فاتجه نحوها ، وكان ظهرها إلى الباب ، حتى بلغ مائدتها .. فوضع حمله أمامها ، قائلا فى شىء من الاضطراب : « تذكار بسيط ، لمناسبة سفرك » .. فأجفلت ، وصار وجهها فى حمرة القرمز ، فان أحدا قبل ذلك لم يفكر فى إهدائها مثل هذه الباقة .. وقالت فى حياء عذب : « أوه !.. ما لزم كل هذا ؟.. إنها أجمل من أن استحقها ! » .. ورمقته بنظرة تفيض شكرا . ولم يدر هو هل انعكاس الورود الحمراء ، أم صعود الدم إلى وجهها ، هو الذى لون وجنتيها بصبغة ثانية جعلتها تبدو حسناء ، برغم أنها خلعت نظرة الشباب ؟

looloo www.dvd4arab.com

« ودعته إلى الجلوس، فلبى دعوتها وهو يقول : « إذن .. أنت ذاهبة حقا ؟ » .. وكان فى صوته رنين الأسف ، فأجابت وهى تخفض رأسها فى لهجة التسليم الذى لا ينطوى على فرح أو أسى : « نعم » .. وعلم أن أقرباءها الذين تزمع الإقامة معهم هما امرأة فى حكم ابنة العم ، وزوجها — الذى لم تره قط — وكانا قد كتبا إليها يرحبان باقامتها معهما فى مزرعتهما الريفية الصغيرة !.. فسألها : « ماذا اعتزمت أن تفعلى فى تلك البقعة النائية ؟ » .. فأجابته بأنها لا تدرى !.. وكان فى جوابها فتور ، وحيرة ، وعدم استقرار .. ذكرته كلها بحاله هو ، وحياة « التشرد » التى يحياها ، بلا بيت ، ولا أسرة ، ولا هدف !.. فقال لها : « لكن الإنسان ينبغى أن يتجنب السكنى مع الأقرباء .. وأنت فى غير حاجة الآن إلى أن تدفنى نفسك فى بقعة مثل تلك البقعة النائية ! » .. فقالت : « إنى لأنظر إلى الأمر حقا فى شىء من القلق .. ولكن ماذا عساى أن أفعل ؟ » .. وتنهدت ، ثم رفعت إليه عينيها الزرقاوين كمن تلتمس عنده النصيحة .. هاتان هما العينان الصافيتان اللتان ينبغى أن تكونا للمرء !.. وفجاة ، اقتحمت الطريق إلى لسانه فكرة ، أو لعلها رغبة ، فقال لها : « لم لا تبقين إذن هنا ؟ » .. ثم أضاف بصوت خافت : « معى ! » .

« فأجفلت المرأة ، وحدقت فيه .. وعندئذ فقط أدرك أنه فاه بقول ما كان ينبغى أن يفوه به !.. لقد أفلتت العبارة منه دون أن يزنها كعادته ويمحصها .. بل دون أن يعترف لنفسه بأنه يريد النتيجة التى تترتب عليها !.. وصعد الدم

دافقا إلى وجنتى المرأة ، فخشى أن تكون قد أساءت فهم قصده ، ففسرته بأنه يريدها « خليلة » له .. ومن ثم سارع ينفى عن ذهنها شبهة الإهانة ، فقال لها موضحا : « أعنى تبقين ... كزوجة لى ؟ » .. واختلجت شفتاها ، وخيل إليه أنها توشك أن تنفجر باكية أو غاضبة !.. ثم نهضت فجأة وغادرت القاعة لا تلوى على شىء !.. وكانت تلك أحرج لحظة فى حياة صاحبنا ، فقد أدرك فيها مدى الحماقة الجنونية التى ورط نفسه فيها !.. لقد أهان ، وأذل ، وخدش إحساس المخلوق الوحيد الذى وثق به ثقة عمياء ، وشكره من صميم قلبه .. وإلا فكيف يجرؤ — وهو الجشع الرث الهيئة — أن يطلب يد مثل هذه المخلوقة المهذبة التى نشأت وعاشت فى أكرم بيئة ؟.. إنها إذن لعلى حق فى أن تنفر هكذا اشمئزازا !.. ومن عجب أنه أحس إزاء ذلك بالارتياح !.. وقال لنفسه : « لقد عرفت حقيقتى أخيرا ، وعاملتنى بالاحتقار الذى أنا جدير به ، وهذا خير من أن تشكرنى على خدعتى الدنيئة . لقد تلقيت عقابى العادل .. فانه لمن العدل أن تفكر فى منذ الآن بمثل الاحتقار الذى أكنه لنفسى ! » .

« ولكن لم تمض لحظات حتى ظهرت على عتبة الباب من جديد ، وعيناها مغرورقتان بالدموع .. وأقبلت نحوه وهى فريسة للانفعال الشديد ، بحيث أنها تشبثت بظهر الكرسى لحظة قبل أن تستطيع الجلوس ، ثم تنهدت فى هدوء وقالت دون أن ترفع عينيها : « أغفر لى .. أغفر لى خشونتى ..

Looloo
www.dvd4arab.com

لكنى فى الواقع فوجئت بكلامك .. كيف أستطيع ان ؟.. انك لا تعرفنى.. لا تعرفنى بتاتا ! ».. وكان هو من الارتباك بحيث لم يجد جوابا حاضرا فى ذهنه .. وإن سره ان قرارها المفاجىء لم يكن عن غضب واستنكار ، بل عن خوف ودهشة !.. ومضت دقائق لم يجد أحدهما خلالها الشجاعة على ان يكلم صاحبه ، أو ينظر إليه .. لكنها لم تغادر (فيينا) فى ذلك الصباح ، فقد بقيا معا من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل .. وبعد ثلاثة ايام كرر على مسمعها العرض .. ولم ينقض شهران حتى كانا زوجين ! » .

* * *

وسكت الدكتور كوندور قليلا ، ثم استطرد : « فلنتناول كأسا اخيرة ، لقد أوشكت القصة أن تنتهى ، وأنت ترى مما سلف ظلم الشائعات التى تنسب إلى صديقنا انه اغرى الوارثة بالزواج منه كى يظفر بالضيعة والقصر ، فالواقع أنه ظفر بهما قبل ان تخطر بباله فكرة الزواج ، ولم يكن قرانه بها صادرا عن اية مصلحة ذاتية .. ولعل هذا ما جعله قرانا سعيدا غاية السعادة ، برغم أن الزوجين كانا ضدين فى الطباع — بل ربما بسبب ذلك ، كما يقول علماء النفس !

« وكان رد الفعل المباشر للاتفاق على الزواج ان خشى كانيتز أن تقف خطيئته على ماضيه القذر ، فصفى جميع اعماله التى يشوبها اى زيف ، وحاول تنقية صفحته بكل ماوسعه من جهد .. ثم ابتاع بالمال لقب « فون كيكسفالفا » الارستقراطى العريق ، وخلع عنه اسم المرابى اليهودى

الممقوت « كانيتز » . وكأنما خلع عليه الاسم الجديد نبلا حقيقيا ، فقد عاش بعد الزواج يعامل زوجته بكل احترام وتوقير وتلطف ، محاولا أن يمحو من الوجود شخصيته القديمة .. وكان لهذه المعاملة الكريمة — التى لم تألفها « آنيت » طيلة سنوات عبوديتها لسيدتها السابقة الثرية — أجمل الأثر فى نفسها وصحتها ، فأينع شبابها من جديد ، وتفتح حسنها الذى كان ذابلا .. وإن لبثت عاما كاملا ، بل ربما اثنين ، عاجزة عن أن تصدق الواقع الملموس وتنسى الماضى الطويل البغيض .. عاجزة عن أن تقنع نفسها بأن المرأة المضطهدة المنبوذة التى كانتها قد صارت موضع الحب والاحترام والاعزاز ، كبقية السيدات !.. وهكذا لم يتذوق الزوجان السعادة الحقة الخالصة إلا بعد أن ولدت لهما طفلتهما « اديث » .

« وعاشا خمسة عشر عاما أو نحوها ، معيشة قوامها البساطة والعزلة عن الناس . وخلال تلك الحقبة عكف «كيكسفالفا» على إدارة الضيعة ، والمطحن ، ومصنعى السكر والكحول — الملحقة بها — بهمة حازمة ونشاط لا يفتر .. إلى ان اصيب بالكارثة الأولى القاصمة للظهر : مرضت زوجته بالسرطان ، وماتت على منضدة الجراحة فى إحدى مصحات فيينا ، وهناك عرفته انا وعرفتها لأول مرة !.. ولن أستطيع ان اصف او اصور لك اليأس الذى اعتراه حين عرف أن لا امل فى شفائها !.. كما لن انسى نظرته المجنونة وهو ينعتنا صارخا ، على اثر موتها ، باننا قتلة سفاحون !

Looloo www.dvd4arab.com

« وكانت تلك هى نقطة التحول فى حياته .. فمنـذ ذلك اليوم تغيرت نظرته إلى الأمور ، وكفر بالمـال ــ الإله الوحيد الذى عبده منذ طفولته ! ــ ولم يعد يعنيه من دنيـاه غير شىء واحد هو ابنته !.. فجلب لهـا المربيات والخـدم ، واعاد تجديد قصره وتزويده بجميع وسائل الترف . وصـار يأخذ « اديث » ــ وهى فى التاسعة أو العاشرة من عمرها ــ إلى (نيس) و (باريس) و (فيينا) ، ويغدق عليها المـال بغير حساب ، ويغلو فى ذلك غلوه من قبل فى جمع المال وادخاره .. لهذا لم يكن غريبا أن يبدو لك اليوم ارستقراطيا كريما ، فمنذ سنوات كف عن أن يلقى بالا إلى الكسب أو الخسارة .. ومنذ اكتشف أن ملايينه كلها لم تستطع أن تشفى له زوجته ، تعلم أن يحتقر المـال !

« ومهمـا أطنب ، فلن أستطيع أن أصـف لك بالتفصيل كيف عبد الرجل ابنته ودللهـا .. وكانت فى الواقع تستحق ذلك ، فقد شبت فتاة رائعة الحسن ، حميدة الخلق ، أخذت عن أمها عذوبتها وعن أبيها ذكاءه .. ومن ثم اترك لك أن تقدر مبلغ الصدمة التى أصابت « كيكسفالفا » حين دهمته الكارثة الثانية ، فسقطت اديث من فوق ظهـر جوادهـا وأصيبت بالشلل !.. ولكن يكفى أن أذكر لك أنه لم يدع طبيبا من أطباء العالم المشهورين فى هـذا الباب إلا استقدمه وأغدق عليـه المال بغير حسـاب ، لعله يفلح فى شفائها !.. وقد روى لى زميل منـذ أيام أن المسكين يتردد كل أسـبوع على مكتـبة الجامعة حيث ينفق السـاعات فى الإطـلاع على كتب الطب

والتنقيب فيهـا ، عسى أن يجد فى أحدها شيئا ذا فائدة نكون قد نسيناه أو أهملناه !.. بل إنه خصص منحـا وهبـات سخية لرجال الدين وصناديق النذور ، فى حالة شفاء الفتاة !

« لست اذكر لك كل هـذه التفصيلات السخيفة حبـا فى الثرثرة ، وإنما رغبة فى أن تفهم إلى أى حد يجـد الشـيخ التعس بعض العزاء عن كارثته كلما عثر على شخص يستمع إليه ويفهم أحزانه وأشجانه ، أو على الأقل يحاول أن يفهمها .. والواقع أنك يا عزيزى الملازم تفعل خيرا حين تدخل شيئا من المرح والبهجة والشباب إلى ذلك البيت الحزين .. وقـد رويت لك الآن ما رويت من أسرار الرجل الخاصـة ، خشية أن تسمع من أفواه النـاس شائعات خاطئة ومحزنة تؤثر فى صلتك بالأسرة المنكوبة !.. ووثوقـا منى فى كتمانك الأمر ، واعتباره سرا بيننا ! » .

* * *

لم اجد ما اقول تعليقا على هـذه القصـة المؤثرة اكثر من كلمة واحدة نطقتها مغمغما ، فقلت له : « نعم . بلا شك ! » ، ولم اكن قد تفوهت قبلهـا بحـرف منـذ بدأ الدكتور كوندور يسرد قصته ، التى لم يقتصر اثرها فى نفسى على إثارة دهشتى البالغة ، وقلب فكرتى عن كيكسفالفا رأسا على عقب ، أو كما يقلب القفاز ظهـرا لبطن .. بل تعدى ذلك إلى إظهارى على مبلغ غفلتى وسذاجتى ، انا الذى ترددت على قصره عشرات المرات دون أن اسـأل عن مصدر ثروته ، ودون أن ادرك أن عينيه الذكيتين البراقتين ليسـتا عينى نبيل هنغارى ، بل أن نظرتهما الحادة المتعبة ــ فى آن واحد ــ تمثل الكادح الفجع

Loolaa www.dvd4arab.com

الطويل ، كفاح الجشع والأطمـاع ، الذى هو طابع الجنس اليهودى !.. اما الآن ، ففى اقل من لحظة ومضت فى ذاكرتى مئات الملاحظات والوقائع أنصغيرة التى تتفق مع هذه الرواية .. والتى فاتنى ان افهم مدلولها فى حينها !

وكأنما ادرك الدكتور كوندور مايدور فى خاطـرى ، فمال على وقال وهو يربت على يدى بيده الصغيرة الناعمة : « انك ما كان يمكن أن تعرف الحقيقة يا سيدى الملازم ، فقد نشأت فى بيئة مختلفة تماما .. عدا انك الآن فى السن التى لا يكون المرء قد تعلم فيها بعـد ان يرتاب فى كل شيء مخالف للمألوف — وليس عيبا ان تخدعك الحيـاة فى هـذه السن بين حين وآخر ! — بل إنها لنعمة كبرى الا تكون قد صارت لك ، بعد ، تلك العين الفاحصة المتشككة ، وأن تسـتطيع ان تنظر إلى الأشياء والناس لأول وهلة نظرة بريئة واثقة .. ولولا ذلك ما امكنك أن تقدم للشيخ البائس وابنتـه الكسيحة ما قدمت من معونة رائعة .. كلا ، لا داعى لأن تندم أو تخجل ، فقـد تصرفت — بوحى الغريزة — احسن تصرف واسلمه ! » .

وكان موعد القطار الراحل إلى فيينـا قد اقترب ، فنهض الطبيب .. ونهضت أنا معه وانـا أحس إحساسا غامضا ان هنـاك امرا كنت اود لو احـدثه فى شأنه وهو ماض فى سرد قصته ، لولا انى لم اشأ أن اقاطعه .. ثم نسـيته تماما !.. وحين خرجنا إلى الطـريق رفع كوندور بصره إلى السـماء وقال : « كيف فاتنى أن أستنتج ذلك حين رأيت القمر متالقـا اكثر من المألوف ؟.. سوف تهب بعـد قليل عاصـفة رعدية

شديدة .. فلنسرع بالمسير وإلا فاجأتك قبل عودتك . اما انا ففى وسعى أن أصل إلى المحطة قبل هبوبها ! » .

وكان على حق ، فان الهواء برغم سكونه كان قاتما معفرا ، والسحب الآتية من الشرق تتسابق فوق المساكن الهاجعة ، وتحجب القمر الشاحب المحتضر بين الحين والحين .. وفى الأفق البعيد تومض سهام من البرق الخاطف ، يعقبها فى كل مرة دوى خافت مكتوم ، كزمجرة الحيـوان الغاضب !.. وعاد كوندور يستحثنى قائـلا : « فلنسرع ، ففى العجـلة النجـاة ، لقـد تصلبت ساقاى من طـول الجلوس ! » .. وذكرتنى عبارته هذه عن تصلب ساقيه بما كنت أريد ان اسأله بشأنه ، وكأن ضوءا مفاجئا قد غمر وعيى فبـدد منـه ظلام النسيان !.. إنها المهمة التى كلفنى بهـا كيكسفالفا ، والتى من اجلها حرصت على الخروج فى رفقة الطبيب . إنه السؤال الخالد : « هل ينتظر للفتاة الكسيحة شفاء فى يوم من الأيام ؟ » .. وهكذا ابتـدرت مرافقى ونحن نذرع الشـارع المقفر ، متسـائلا : « لا تؤاخذنى يا سـيدى الطبيب إذا عدت إلى الموضوع الذى كنا نتحدث فيه ، كى القى عليك سؤالا يلح على خاطرى منذ زمن ، وفى وسعك انت دون غيرك ان تجيبنى عنه .. اريد ان اسألك : هل هـذا الشلل الذى اصاب اديث مرض مؤقت ، أم داء عضال لا شفاء منه ؟ » .

ورفع الدكتور كوندور راسه فى شىء من الحـدة ، ولمعت نظارته فى وجهى — حتى انى أجفلت من قوة نظرته التى خلتها تتغلغل فى إلى ما تحت الجلد — ثم قال وهو يخفض راسـه

Looloo www.dvd4arab.com

ويستأنف خطاه السريعة : « كان يجدر بى ان أتوقع منك هذا السؤال ، فهو دائما يأتى فى النهاية .. مرض يشفى أو لا يشفى ، أبيض أو أسود .. كأنما الأمر بهذه البساطة !.. إن اى طبيب يحترم نفسه ينبغى الا ينطق حتى بكلمتى « سليم » أو « مريض » ، لأنه لا يوجد حد فاصل تنتهى عنده الصحة ويبدأ المرض .. ولن تستطيع ان تسمع منى يوما كلمة « غير قابل للشفاء » !.. ولقد أخطأ « نيتشه » كل الخطأ حين قال : « إن الطبيب يجب الا يحاول شفاء الذى لا يشفى! » ، فان العكس تماما هو الصواب، لأنى ارى ان أهم واجب على الطبيب ان يسعى إلى شفاء المرض الذى جرى الناس على الاعتقاد بأنه لا يشفى .. والطبيب الذى يسلم مقدما بعجزه عن تحطيم مثل ذلك الاعتقاد السائد هو طبيب يتنصل من واجبات مهنته ، ويرفع راية الاستسلام قبل ان تبدأ المعركة !.. وطبيعى انه من الأسهل بالنسبة لكل طبيب أن يختص بمعالجة الأمراض القابلة للشفاء ، والتى لا يقتضيه الأمر فيها أكثر من أن يصف دواء أو علاجا قراه فى كتاب أو سمعه فى درس. أما أنا فارى أن هذا الطبيب مثل الكاتب الذى لا يكتب غير الكلام المعاد ، بدلا من ان يخضع للكلمة المكتوبة افكارا ساد الاعتقاد بأنها غير قابلة لأن تكتب !.. او مثل الفيلسوف الذى يردد افكارا سبق ترديدها مائة مرة ، بدلا من أن يستكشف مناطق الأفكار غير المعروفة ، أو غير القابلة لأن تعرف !.. وبالنسبة لعلم يتطور ويتقدم كل يوم — كالطب — لا يليق أن يقال عن أى مرض: إنه غير قابل للشفاء. وإنما الصواب أن يقال : إنه مرض لم يعرف له شفاء حتى

الآن ، فى نطاق معلوماتنا الحالية المحدودة !.. ففى كل يوم تكتشف وسائل لعلاج أمراض كانت حتى الأمس القريب — بل حتى اليوم السابق — مستعصية على العلاج . ولا شك ان مئات من الحالات التى نعجز اليوم عن شفائها قد يعرف لها غدا ، أو بعد غد ، دواء !.. لذلك لا توجد فى نظرى أمراض لا تشفى ، وليس من عادتى ان اياس قط من شفاء حالة ما أو مريض من المرضى ، ولا أن انطق بهذه الكلمة الخاطئة « غير قابل للشفاء » .. مهما تكن الظروف !

« ولتقريب الأمر إلى ذهنك ، أسرد عليك مثلا واقعيا حدث لى أنا نفسى ، وما زالت ذكراه تؤلمنى حتى اليوم : فمنذ اثنين وعشرين عاما ، وأنا طالب فى السنة الثانية بكلية الطب ، وفى مثل سنك الآن ، مرض أبى ذات يوم — وكان طيلة حياته صحيحا قويا موفور النشاط — وكنت أحبه إلى درجة تقرب من العبادة . واتفق الأطباء على تشخيص مرضه بأنه (البول السكرى) ، وهو من أخبث الأمراض التى يمكن أن تصيب إنسانا ففيه يتوقف الجسم — لسبب غير مفهوم — عن امتصاص الغذاء ، ولا سيما الدهن والسكر ، فيذبل الإنسان ويموت موتا بطيئا ، من الجوع !.. وفى تلك الأيام لم يكن الطب يعرف علاجا لهذا المرض ، فكان المريض يتعرض لعذاب المنع من أكثر المأكولات ، ولمشقة وزن كل قدر من الألوان الباقية المباحة ، فى الميزان ، بالجرام !.. ومع ذلك لم يكن يجنى من ذلك كله غير تأجيل النهاية المحتومة عامين او ثلاثة على الأكثر . ولك أن تتصور مبلغ جزعى وقتئذ على أبى ، ولجوئى إلى كل طبيب وكل كتاب طبى فى متناولى ، بحثا عن

Looloo www.dvd4arab.com

علاج لحالته .. ولكن دون جدوى ، فقد خرجت من أبحاثى
كلها بأن مرضه « غير قابل للشفاء ! » .. ومنذ تلك اللحظة
ابغضت هذه الكلمة اللعينة ، التى كان معناها أن أقف مكتوف
اليدين وأنا أشهد أعز إنسان على فى هذه الدنيا يموت ميتة
أدعى للرثاء من ميتة الحيوان الفاقد الإدراك .. وقد مات
أبى فعلا قبل تخرجى فى كلية الطب بثلاثة أشهر !

« والآن اصغ إلى : أول من أمس أعلن أحد علمائنا فى
اجتماع الجمعية الطبية نجاح التجارب التى أجريت فى معامل
أمريكا ، وقطر أو قطرين آخرين، بغية اكتشاف خلاصة لإحدى
الغدد تشفى من البول السكرى .. وقد أكد العالم المذكور فى
ختام كلمته أنه لن تمر عشرة أعوام حتى يصبح هذا المرض
« قابلا للشفاء » !.. ومثل آخر أسوقه لك : ففى أيام
دراستنا الطب وزعت علينا نشرة مطبوعة تحذرنا من مرض
الزهرى ، على أساس أنه « غير قابل للشفاء » .. أما الآن
فقد صار هو بدوره من الأمراض التى تشفى .. وإذن فان
« نيتشه » و « شومان » و « شوبرت » وغيرهم من ضحاياه
التعساء لم يموتوا بمرض لا يشفى ، بل بمرض لم يكن يشفى
فى العصر الذى عاشوا فيه !.. لذلك تجدنى فى كل مرة تعرض
لى فيها حالة ييئس منها الأطباء الآخرون وهم يهزون أكتافهم ،
يشتعل قلبى غضبا لجهلى بعلاج قد يكتشف غدا أو بعد
غد !.. وفى الوقت نفسه يفيض قلبى أملا فى أن أستطيع أنا ،
أو غيرى ، كشف ذلك العلاج فى الوقت المناسب لإنقاذ مريضى !
.. ولم لا ؟.. إن كل شىء ممكن ، حتى المستحيل .. وحيثما
يقف الطب اليوم أمام باب مغلق ، يفتح له أحيانا باب آخر

على غير انتظار ! وحينما تفشل وسائلنا الحالية ، ينبغى أن
تبذل المحاولات لاستكشاف وسائل جديدة .. بل حيثما
يفشل العلم ، توجد دائما فرصة حدوث معجزة !.. نعم ،
فالمعجزات تحدث حتى اليوم فى عالم الطب ، متحدية كل
منطق وتجربة ، وأحيانا يستطيع المرء أن يصنعها بنفسه ..
وإلا ، فهل تعتقد أنى كنت لأعذب هذه الفتاة — وأعذب
نفسى — لو لم يخامرنى الأمل فى إمكان أن أصنع لها شيئا ،
وأشفيها فى النهاية ؟.. أعترف بأن حالتها عسيرة عنيدة ،
وأننى استغرقت حتى الآن سنوات عديدة دون أن أصل بعد
إلى النتيجة التى أرجوها ، لكنى لن أيأس أو أتخلى عن
النضال ! » .

أصغيت إليه بانتباه ، وفهمت كل ما قال ، لكنى — وكأنما
أصبت بعدوى الالحاح من كيكسفالفا — وجدتنى أطلب جوابا
أكثر دقة وإيضاحا ، فسألته : « إذن ، أنت ترى احتمال
حدوث تحسين .. أعنى أنك قد حققت شيئا من التحسين ،
أليس كذلك ؟ » .. وهنا سكت الدكتور كوندور ، وكأنما
ضايقه سؤالى ، ثم توقف عن المسير ، والتفت إلى قائلا :
« لعل الأفضل أن أصارحك بحقيقة الموقف .. كلا !.. إنى
لم أصل إلى تحقيق شىء البتة مما رجوت ، وقد جربت معها
أنواعا شتى من العلاج ، لم تأت بنتيجة حتى الآن . وإذا
كانت الفتاة قد شعرت أحيانا بتحسن فى حالتها فما ذلك إلا
نتيجة للايحاء الذاتى الذى هو خير معين لنا نحن الأطباء على
كسب الوقت ، وتمكين المريض من الصبر على مرضه حتى

Loolob
www.dvd4arab.com

نهتدى إلى العلاج الشافى له .. وصدقنى أنها ليست مهمة سهلة ان أبتكر كل حين وسيلة جديدة لتخدير أعصاب المريضة وإيهامها بأنها فى تحسن مطرد ، طيلة خمس سنوات كاملة !.. ولكن لا تحسب انى فى أعماق نفسى قد يئست من حالتها .. كلا !.. بل إنى ارفض الاستسلام للفشل حتى لو استمر سنة اخرى ، بل خمس سنوات .. !.. وقد حدث انى قرات امس فقط مقالا فى صحيفة طبية باريسية عن حالة شلل مماثلة أصيب بها غلام فى الرابعة عشرة ، وبقى طريح الفراش، عاجزا تماما عن الحركة ، عامين كاملين .. حتى تمكن البروفيسور « فيينو » من معالجته خلال اربعة اشهر علاجا ادى إلى استطاعته صعود السلالم بكل سهولة ويسر ! .. وقد كتبت فورا إلى البروفيسور اساله مزيدا من الإيضاحات عن الطريقة التى وصل بها إلى هذه النتيجة ، كى ارى ما يمكن تطبيقه منها على اديث !.. ومن هذا ترى انى ابعد ما اكون عن اليأس ، بل انى ما زلت اتعلق بكل قشة يحملها التيار . وقد يكون لنا بعض الأمل فى هذا العلاج الجديد .. وعلى كل حال احسبنى قد ثرثرت اكثر مما ينبغى » .

وكنا قد اقتربنا من المحطة ، فرايت أن القى على محدثى سؤالا واحدا اخيرا ، فقلت له: « إذن .. أنت تعتقد أن .. » .. لكنه قطع كلامى قائلا : « لست أعتقد شيئا .. وليس فى الأمر ما يحتمل اى استنتاج ! ماذا تريد منى اكثر مما قلت ، إنى لست على اتصال تليفونى بالله سبحانه وتعالى .. فاعتبر انى لم اقل لك شيئا البتة ، ولا ابديت اى راى فى الموضوع .. ولست أعدك بشىء على الإطلاق .. والآن كفى نقاشا فى هذا الأمر ، وشكرا لك على مرافقتك إياى ، ولتعد مسرعا قبل ان يغرقك سيل المطر الذى ينذر بالهطول » .. ثم تركنى ومضى مهرولا إلى داخل المحطة ، دون أن يصافحنى !

الفصل السابع

أكسير الأمل

صح ما تنبأ به الدكتور كوندور عن الحالة الجوية ، فسرعان ما بدت نذر العاصفة ، وبدات السحب السوداء تتلاطم فوق قمم الأشجار ، والبرق يومض بين حين وآخر ، فاغلقت أبواب المتاجر والدور ، وجميع النوافذ ، وخلت الطرقات من المارة ، فحثثت السير كى أصل إلى غرفتى قبل ان ينهمر المطر !

وما كدت أصل إلى باب المعسكر ، حتى لمحت شبحا يبرز من ظل إحدى الأشجار ، فحسبته شبح امراة من نساء الليل اللواتى اعتدن انتظار الجنود فى الظلام ، ثم فطنت إلى ان خطوات ذلك الشبح المجهول تتبعنى مسرعة فالتفت إلى الوراء حانقا ، وفى تلك اللحظة ومض البرق فجاة ، فتبينت على ضوئه وجه الشبح ، وكدت لفرط دهشتى الا اصدق عينى ، فهتفت به : « عجبا !.. هر فون كيكسفالفا هنا ؟.. ماذا اتى بك يا سيدى ؟.. الم اتركك على اهبة النوم منذ ثلاث ساعات ؟! » .. فأجابنى : « هذا صحيح ، لكنى لم أستطع أن أنام قبل أن .. » .. فادركت

Looloo www.dvd4arab.com



ثم فطنت الى أن خطـــوات ذلك الشبح المجهـول تتبعنى مسرعـة فالتفت الى الوراء حانقا ..

ما يريد ، وقلت له : « ينبغى أن تعــود إلى البيت على عجل .. الا ترى بوادر العاصفة المخيفة يا سيدى ؟ » .

فقـــال : « إن معى ســيارتى ، وهى تنتظــرنى وراء المعكسر » .

فقلت : « حسنا !.. إذن اسرع .. اسرع قبل أن يعوقك سيل الأمطار » .

وإذ رأيت تردده ، جذبتـــه من ذراعـــه فى غير توقير لأقوده إلى سيارته .. لكنه أفلت ذراعـــه منى وهو يقول : « انتظر لحظة .. لحظة فقط . ماذا قال لك ؟ » .. وتحققت أن لهفته على معرفة النتيجة هى التى دفعتـــه إلى الترصد لى عنـــد باب المعسكر منذ ثلاث ساعات ، برغم سوء حالة الجو ، كى يسألنى عن رأى الطبيب .. فقلت له مطمئنـــا : « كل شىء على ما يرام .. كل شىء سوف يعود سيرته الأولى .. وغدا أقص عليك ما قاله الطبيب .. أما الآن فيجب أن تســـارع إلى سيارتك كى تنجو من العاصـــفة ! » .. فغمغم قائلا : « حسنا ! » ، وتركنى أقوده وأستحثه مسافة عشر خطوات ، أو عشرين على الأكثر ، ثم جذب ذراعـــه بقوة من يدى وعاد يقول : « لحظة واحدة !.. هناك على ذلك المقعد ! لســت استطيع السير ! » .

.. وكان يترنح حقـــا كالثمل ، بحيث لم أر بدا من تركـــه يستريح ، فتهالك على المقعد الخشبى وهو يلهث ! لقد أضنى الانفعال وطول الوقوف قلبه الضـــعيف ، فاستند إلى ظهر المقعد فى حالة انهيار .. وادركت انه سوف يتعذر على تقويته

Looloo www.dvd4arab.com

على النهوض من مكانه ، ما لم ابادر بتقوية روحه المعنوية وإدخال الطمانينة على قلبه المفزع .. ولكن ، بماذا أطمئنه والحقيقة التى صارحنى بها الطبيب موجعة لا تبعث على الأمل ؟!.. وفى غمرة حيرتى ، لم أجد غير ان اجمع شتات العبارات المشجعة التى تضمنها حديث الطبيب ، واعدتها على سمعه موجزة ، وختمتها بذلك العلاج الجديد الذى شفى صبيا كسيحا فى مثل حالة « اديث » خلال أشهر معدودات . وكان لكلامى من الوقع السحرى على الأب المنكوب ما أغرانى بالمغالاة فى تطمينه ، فأخذت أعزز توكيدى وأسرف فى الوعود ، وهو يردد فى لهفة قوله : « أتعتقد ذلك ؟.. هل قال الطبيب هذا ؟! » .. فقلت فى لهجة المقتنع : « نعم ، إنها ستشفى قريبا .. تمام الشفاء ! » .. فتنفس الصعداء وقال : « شكرا لله !.. شكرا لله ! » .

.. وخلال ذلك كانت العاصفة تزداد عتوا وشدة ، حتى بدأت الأشجار ترزح تحت وطأتها وهى تئن وتتقصف ، فقلت له وأنا ادفعه إلى النهوض : « هيا .. يجب أن تعود إلى بيتك حالا » . وفى هذه المرة أطاعنى بلا مقاومة ، فسار معى إلى السيارة فى نشاط ملحوظ ، وكأنما أمدته كلماتى بالقوة .. وأحسست بالارتياح وهو يبلغ سيارته فى أمان واطمئنان ، فقلت أحدث نفسى : « أخيرا سوف ينعم المسكين بنعاس شهى عميق ، لا يشوبه كابوس .. ولا أرق .. ولا انزعاج ! » . وفيما أنا انشر الغطاء على ركبتى الشيخ المحطم ، فى السيارة ، خشية أن يصيبه برد ، إذا هو

يفاجئنى بامساك كلتا يدى ، وقبل أن انتبه أو استطيع منعه ، كان قد انحنى بفمه على كل يد يقبلها ، قبلة منعمة بالشكر والامتنان .. ثم هتف والسيارة تنطلق به : « إلى غد !.. إلى غد ! » .

.. وبقيت هنيهة جامدا فى مكانى ، لكن بوادر المطر كانت قد بدأت تتساقط وتشتد .. فانطلقت اقطع الأمتار الباقية التى تفصلنى عن باب المعسكر عدوا ، ثم هرعت إلى غرفتى وأنا أنفض الماء عن ثيابى !

* * *

وفى عصر اليوم التالى توجهت إلى القصر كعادتى ، فاستقبلنى « جوزيف » كبير الخدم قائلا فى حماسة : « هل اقود سيدى الملازم إلى البرج توا ؟ إن الآنستين تنتظران هناك ! » .. ولحظت فى لهجته لهفة غير عادية ، فمضيت إلى السلم وأنا أسائل نفسى عما هناك ؟ وحين اقتربت من السطح سمعت أنغام موسيقى عذبة ، يصاحبها غناء من أصوات نسائية جميلة .. فلما ارهفت أذنى تبينت أن الموسيقى صادرة من «جراموفون » عادى ، أما الغناء فكان بعضه بصوت « ايلونا » الرائع الشجى ، الناعم كذراعيها .. وبعضه بصوت فتاة أخرى حسبتها صديقة دعتها « اديث » لتناول الشاى معنا .. وشد ما كانت دهشتى حين وصلت إلى الشرفة فلم أجد فيها غير الفتاتين ، وإذا الصوت الغض العذب هو صوت اديث نفسها !.. وتسمرت بالباب ذاهلا ، وكأنى فاجأت الفتاتين عاريتين !

Looloo www.dvd4arab.com

من كان يصدق ؟!.. اديث العليلة ، اليائسة من حياتها ، تغنى بذلك الصوت القوى الجميل الذى لا يصدر إلا عن الأصحاء الاقوياء ؟!.. ترى ما الذى اسكرها بخمرة هذا الانشراح العجيب ، والبهجة العاتية !؟.. وزاد فى دهشتى أن واحدة منهما لم تبد اى ارتباك حين وقع بصرهما على ، بل هتفت اديث ببساطة : « تعال » ، ثم أشارت إلى ايلونا أن تغلق الجراموفون ، وعادت تخاطبنى فى شوق ظاهر : « أخيرا ؟ أخيرا ؟.. لكأنى انتظرك منذ أجيال !.. والآن اسرع وقص على كل شىء ، بالحرف الواحد ، فلقد كان أبى منفعلا من فرط فرحته إلى درجة أنه تخبط فى سرد القصة .. تصور أنه جاء إلى غرفتى حوالى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا — وكنت يقظى بسبب العاصفة — فعجبت إذ وجدته يضحك ويقهقه ، ويكاد يرقص وسط الحجرة كتلميذ المدرسة حين يستخفه السرور بالنجاح ! وحين روى لى الحديث حسبته يحلم ، أو انا التى تحلم !.. ثم جاءت « ايلونا » ولبثنا نثرثر ونضحك حتى الصباح .. ولكن دعنا من ذلك وتعال قص علينا القصة بحذافيرها ، قل لنا ماذا يكون هذا العلاج الجديد ؟! » .

.. وكما تداهم أحدنا موجة عاتية من أمواج البحر ، فيحاول عبثا تثبيت قدمه على الأرض ، حاولت أنا أن اكافح أمواج الحيرة الشديدة التى تولتنى على الأثر !.. أدركت توا أننى انا وحدى كنت المصدر الموحى للفتاة بهذا الإيمان بالشفاء !.. وفيما أنا أفكر فى جواب ، مضت الفتاة

تستحثنى : « ما بالك تتردد ؟.. الا تقدر أهمية كل حرف من هذا الحديث بالنسبة لى ؟.. والآن قل لى : ماذا قال لك كوندور ؟ » .. فأجبتها مكررا ، كى اكسب الوقت : « ماذا قال لى ؟.. إنه .. كان متفائلا جدا .. وهو يأمل أن يحصل فى الوقت المناسب على نتائج مرضية .. وإذا كنت لم أخطىء الفهم فهو يقترح تجربة علاج جديد يقوم الآن بالتحرى عن تفصيلاته .. وعلى أى حال يمكنك أن تستفهمى منه عن حقيقة الأمر .. » .

وبدا أنها لم تلحظ محاولتى التنصل من الموضوع ، أو لعل لهفتها أعمت بصيرتها ، فقد قالت معلقة : « لقد قلت منذ زمن إن العلاج الحالى لا جدوى منه ، إن المريض يعرف حالته أكثر من سواه .. أتذكر ما قلته لك يوما عن عقم كل هذه الوسائل ، من تدليك وحمامات كهربائية وجهاز جراحى ؟ إنها بطيئة جدا . فكيف أستطيع الانتظار هكذا دهرا ؟ لقد نزعت الجهاز هذا الصباح ، بغير ان أستأذنه ! ولن تصدق مبلغ الارتياح الذى شعرت به . لقد أمكننى السير بسهولة أكثر .. ولكن قل لى بسرعة : ما هو علاج هذا البروفيسور الفرنسى ؟ وهل سوف أسافر إلى هناك ، أم يمكن إجراء العلاج هنا ؟ إنى أمقت تلك المصحات المزدحمة بالمرضى والعجزة .. ثم كم من الزمن يستغرق الأمر ؟ هل صحيح ما قاله أبى عن ذلك الغلام الذى شفاه البروفيسور فى أربعة أشهر فقط ، بحيث صار بعدها يصعد السلم ويهبطه ويتحرك بملء حريته ؟.. تكلم ، ما بالك تجلس هكذا كالدمية

Looloo www.dvd4arab.com

المحنطة ؟.. اسرد لى الحديث باكمله . متى يبدأ الدكتور كوندور هذا العلاج ، وكم من الزمن يستغرق ؟ » .

.. وفى دوامة حيرتى المرة ، إزاء هذه الورطة الجديدة ، وسوء الفهم ، رايت الا ادعها تستسلم لهذا اليقين المضلل ، فقلت فى أسلوب حذر : « ما من طبيب يستطيع ان يجزم سلفا بمدة العلاج ، ولست اعتقد ان فى الإمكان تحديد شىء من ذلك الآن .. ثم إن الدكتور كوندور لم يتحدث فى الامر إلا بصفة عامة . قال إن المفروض ان ذلك العلاج يؤدى إلى نتائج باهرة ، لكن لكل حالة فردية ظروفها .. وعلى اية حال يجب أن ننتظر حتى يحضر هو .. » .

ولكن الفتاة من فورة حماستها تجاهلت « ضعف » لهجتى ، فاستطردت : « يا فتاى العزيز ، انك لا تعرف كوندور .. إنه لا يجزم عادة بشىء ، من فرط حذره الشديد وتحوطه فى الكلام .. لكنه إذا وعد « نصف وعد » فكن على ثقة من انه سوف يفى به !.. وانت لا تعلم مبلغ حاجتى إلى الارتكان على قرار نهائى فى هذا الشان ، فلقد ضقت ذرعا بالصبر الذى اوصونى به ، إلى اجل غير مسمى ! ولو قيل لى اليوم إن على ان اصبر ستة اشهر اخرى ، او حتى سنة كاملة ، فانى استطيع ان اوطن نفسى على ذلك .. ولكن شكرا لله من اجل وصولنا إلى هذه المرحلة .. إنك لا تستطيع تصور مدى الارتياح الذى احسه منذ أمس .. لكانى لم ابدأ حياتى إلا الآن !.. وقد خرجنا هذا الصباح إلى المدينة بالسيارة — لا تدهش — فما دمت قد قطعت اكثر المرحلة ولم يبق أمامى غير القليل فلن اخجل بعد اليوم من أن يرانى

الناس أو يرثوا لحالى ، بل سأخرج للنزهة كل صباح .. وقد دبرنا لغد — الأحد — نزهة ممتازة ، وطبعا ستكون لديك عطلة فتذهب معنا إلى المزرعة .. اننى لم أرها منذ أربع سنوات أو خمس ، وسوف تدهشك المفاجأة التى اعددناها لك ! » .

ثم التفتت إلى ايلونا وسألتها ضاحكة : « هل ابوح له بالسر الآن ؟ » .. فضحكت هذه واجابت : « نعم فلنكف عن أن تكون بيننا أسرار منذ اليوم ! » .. فقالت اديث : « حسنا ! أصغ إلى إذن أيها الصديق العزيز .. كان أبى يريد أن نذهب بالسيارة ، لكنى تذكرت ما قاله لى جوزيف يوما من أن الأميرة العجوز الحمقاء التى كانت تملك القصر قبلنا كانت تخرج دائما فى عربتها التى تجرها الجياد ، عربة السفر الجميلة ذات اللون الزاهى .. وكانت تحرص على أن تسرج فيها جيادها الأربعة حتى لو خرجت إلى مكان قريب ، لا لشىء إلا لكى يعلم كل من يراها أنها الأميرة ، فإن أحدا غيرها لم يكن يجرؤ على الخروج « بمظاهرة » كهذه !.. وكم سيكون طريفا أن نخرج فيها نحن مرة ، على تلك الصورة ، سيما وان الذى سيقودها هو حوذى الأميرة القديم بعينه !.. إننا مازلنا نحتفظ بالشيخ المسن ، وإن بقى بلا عمل منذ ابتعنا السيارة .. وقد كاد يطير فرحا حين أوصيناه أمس باعداد العربة للخروج !.. وهكذا ترى أننا دبرنا كل شىء ، وسوف نستيقظ مبكرين ، وانت سوف تقضى الليلة هنا بطبيعة الحال — لا تحاول أن ترفض ، فسنعطيك حجرة مناسبة ونحضر لك حاجاتك اللازمة لك من المعسكر .. كن ظريفا ولا تحرمنا هذه المتعة !.. » .

Lobloo www.dvd4arab.com

.. وهكذا اندفعت اديث فى الثرثرة بلا حساب ، وأنا أصغى إليها متعجبا من التغير الذى طرأ على نفسيتها ، وصوتها ، وحديثها ، ووجهها !.. كانت الفتاة التى أمامى مخلوقة أخرى ـ كالثملة ! ـ ذات عينين وضاءتين ضاحكتين ، وفم جذاب مرح .. وكأنما سرت عدوى مرحها إلى فأحسست بمثل ثملها ونشوتها المحمومة : ولم لا ينجح فى حالتها العلاج الذى نجح فى حالة غيرها ، فتشفى هذه الصبية الغريرة ، الظريفة المشرقة ، التى فاض قلبها حبورا لمجرد تفكيرها فى الشفاء ؟.. وهل من اللياقة ان ابدد نشوتها التى غمرت كيانها كله ، لأعذبها بالشكوك من جديد ؟.. لقد تعذبت المسكينة بما فيه الكفاية !.. وكما يتحمس الخطيب لسماع العبارات الجوفاء التى نطق بها هو نفسه ، وجدتنى أتأثر بشعور الثقة الذى ولدته فى نفوس الجميع مغالاتى فى تطمينهم !.. فلما انضم كيكسفالفا إلينا بعد حين ، ألفانا فى أبهج حال ، نضحك ونثرثر وندبر أمور المستقبل كما لو كانت اديث قد شفيت فعلا .. حتى لقد تحدثنا فى اختيار المدرب الذى سوف يعلم الفتاة ركوب الخيل من جديد بعد شفائها !

.. لكنى لم اكد اخلو إلى نفسى فى غرفتى ، بعد انتهاء السهرة ، حتى سمعت طرقة خفيفة على جدار قلبى ، طرقة تحذير كأنها تقول : « أليست آمال الفتاة كلها من وحى المغالاة ؟ أو لا يجدر بى أن أصد تيار هذا التفاؤل الخطر ؟.. لكنى أبيت أن اعترف لوعيى بهذه الحقائق ، وقلت لنفسى : « لم اشغل نفسى بالتفكير فى هذا الأمر ؟ وماذا لو أسرفت فى إحياء

موات الآمال ؟ إن أكاذيبى التى ولدتها الشفقة قد أسعدت الفتاة إلى حد كبير ، وما إسعاد مخلوق شقى بالأمر الذى يعد جريمة ، بأية حال ! » .

***

واستيقظت فى صباح اليوم التالى على صوت ضحكات مرحة تنبعث من الخارج ، فتطلعت من النافذة لأجد الجمع كله قد التف حول العربة العتيقة الفاخرة ، التى صنعها لجد الأميرة أوروزفار ـ منذ أكثر من مائة سنة ـ صانع عربات البلاط الإمبراطورى ، فجاءت تحفة فى الصناعة والزركشة ، محلاة باللوحات الزيتية على جانبيها ، والستائر الحريرية على نوافذها ، والمرايا الصغيرة ، والمناضد التى تطوى وتقام ، وقوارير العطور المثبتة على جدرانها من الداخل .. إلى آخر هذه الكماليات ووسائل الراحة اللائقة بالأمراء !.. ورأيت الخدم يضعون فى مخزن العربة أدوات المائدة الفضية ومفارشها الأنيقة ـ وكلها تحمل شعار أسرة أوروزفار ـ ثم ألوان الطعام والشراب المختلفة المعدة للأكل فى أى مكان ، بعد تسخينها بهمة مساعد الطاهى الذى اتخذ مكانه إلى جوار الحوذى، وكان هذا قد ارتدى ثيابه التقليدية المحلاة بالقصب !

وسرى نبأ الرحلة « التاريخية » فى المنطقة كلها ، فخرج القرويون فى ثياب يوم الأحد الزاهية إلى الطريق العام كى يروا تلك المظاهرة العجيبة .. وهكذا ، بعد أن تناولنا الإفطار، اتخذنا مقاعدنا فى العربة ، ثم نفخ الحوذى فى البوق، بالطريقة التقليدية ، وضرب الهواء بسوطه محدثا صوتا مثل صوت الطلق النارى .. وانطلقت العربة بنا إلى الطريق العام ،

Looloo www.dvd4arab.com

حيث استقبلنا طيلة المسافة بتحيات الاحتـــرام والتبجيل من الكبار ، وصيحات التهليل والغبطـــة من الصغار .. وثملت الفتاتان ــ اديث وايلونا ــ بخمر المغامرة الجديدة ، والشمس المشرقة ، والهــواء النقى العذب .. وعلى الجانبين ترامت حقول الحنطة الذهبية ، المتماوجة الهامات مع تموجات الهواء .. حتى وصلنا إلى أول قرية على الطريق ، وكانت أجراس كنيستها تدق معلنة بـــدء الخدمة الدينية ، فاقترحت اديث أن نتوقف لنحضر « القداس » .

ورحب بنا القوم ترحيبـــا كبيرا ، وقـــد رأوا فى دخولنـــا كنيستهم الصغيرة المتواضعة تشريفا لهم . وحين رأوا اديث تتوكا على ذراعى ايلونا وجوزيف ، بدا عليهم التأثر الشديد ، الذى يصيب البسطاء دائما كلما رأوا أن الكوارث لا تحجم عن أن تضع قبضتها الثقيلة على الأغنيـــاء أحيـــانا !.. وسرت الهمسات بين عجائز النساء ، وخف البعض إلى إحضار عدد من الوسائد المريحة كى تستند إليها اديث حيث جلست ، فى أحد مقـــاعد الصف الأول ! وهزت يقينى بســـاطة القوم ، وتقواهم الظـــاهرة ، وإيمانهم الخالص .. لكنى لم ألبث أن شردت بذهنى عن جو العبادة إلى تأمل اديث الجالسة بجانبى، فقد كانت تصلى بحرارة غير عادية ، وهى تكاد تنتفض انفعالا .. وحين عدنا إلى العربة واستأنفنا رحلتنـــا ، ظلت اديث مستغرقة فى التفكير ، فلذنا جميعا بالصمت ، احتراما لصمتها ورعاية لمشاعرها .. حتى وصلنا إلى المزرعة ، وهناك أعد لنا القوم استقبالا خاصا ، فاقبلوا يركضون بجيـــادهم فى سرعة

عنيفة ، مثل قبيلة من البدو والأعراب تغير على غيرها .. ثم أطلق قائدهم صفارة خاصـــة ، فلانت قبضاتهم على أعنـــة جيادهم واصطفوا حولنا فى صفين منتظمين ، رافقا عربتنـــا حتى بلغنا جميعا دار «العمدة» . وبعد أن طفنا بأنحاء المزرعة ورأينا حظائر الجياد الحديثة الولادة ، العاجزة عن قضم قطع السكر التى تقدم لها ، أعد الغداء لنا فى الخلاء ، وأعاننا النبيذ المعتق على أن نسترد مرحنا السابق بل نمعن فيه .. وكانت اديث أكثرنا مرحا وضحكا وانشراحا ، بحيث كدت أنسى أنى عرفتها من قبل فتاة كسيحة تعسة !.. وحين أدخلت هى بعد الغداء إلى دار العمدة لتستريح ، انطلقت أجرب جياد المزرعة واركض بها واحدا بعد الآخر فى الفضاء الفسيح ، وقد تولانى شعور « بالحرية » لم يكن لى به عهد من قبل !

واختار لنا الحوذى ــ للعودة ــ طريقا آخر يخترق غابة صغيرة رطبة منعشة الهواء . وفى إحدى القرى التى مررنا بها فوجئنا بأكثر من عشر عربـــات قد ســـدت الطريق تماما فى وجهنا ، ولم يكن فى داخلها أو حولها شخص واحـــد من أهل القرية ، ولكن لم يكد الحوذى ينفخ فى بوقه حتى أقبل بعضهم على صوته .. وعلمنا أن أغنى الزراع فى القرية يحتفل بزواج ابنه ، وأن الأهالى جميعـــا قد ذهبوا إلى ساحة الاحتفـــال للمشاركة فيه بالرقص والغناء والهرج .. وسرعان ما سرى نبأ وصول « هر كيكسفالفا » وأسرته ، فجاءنا والد العريس يلهث ويرجونا ملحا أن نقبل دعوته إلى تنـــاول كأس من نبيذ مزرعته الخاص، نخب صحة العروسين .. ولم نجد ما يدعونا

إلى رفض دعوته ، فسرنا إلى ساحة الرقص بين نظرات الاحترام من الأهلين جميعا ، وأفسح لنا أقارب العروسين طريقا إلى المائدة الرئيسية ، حيث شربنا نخبهما وسط مظاهرة من التهليل .. ثم قدم لنا العروسان ، وانحنت العروس تحيى كيكسفالفا فى ارتباك ظاهر ، ثم قبلت يد اديث فى احترام .. وجو العرس يثير دائما مشاعر العذارى ، وينعش روح « التضامن » الغامض بينهن وبين بنت جنسهن التى تزوجت .. وهكذا رأينا اديث تجذب العروس إليها وتعانقها فى تأثر ، ثم خطر لها خاطر مفاجىء فنزعت من أحد أصابعها خاتما غير باهظ الثمن ووضعته فى أصبع العروس ، التى اضطربت لهذه الهدية غير المنتظرة فلمعت فى عينيها دموع الفرح والعرفان .. ومرة أخرى أحاطنا أهل العروسين ومدعووهم بمظاهرة من التحيات الشاكرة الحماسية ، وراحت أم « العريس » تتنقل فى أرجاء المكان ثملة بالشرف الكبير الذى حظى به عرس ابنها ! وعلى أثر ذلك صافح كيكسفالفا أصحاب العرس ورجاهم الا يجعلوا وجودنا يعطل برنامج احتفالهم ، ثم أومأ إلى رئيس جوقة « الغجر » الموسيقية كى يبدأ العزف .. ولم يكد يستهل عازف الكمان المقطوعة الأولى بنغم كمانه حتى ذرت الموسيقى كل تحفظ فى مهب الرياح ، وانطلق الشباب إلى حلبة الرقص فى نشوة نارية ضارية !.. ونظرت اديث إلى الجمهور الصاخب السعيد بعينين تلمعان ببريق الانفعال ، ثم أحسست بيدها على ذراعى ، وقالت بلهجة آمرة : « يجب أن ترقص أنت أيضا » .. ولحسن الحظ لم تكن العروس قد اندمجت بعد فى زحمة الراقصين ، بل كانت

ما تزال تختلس النظرات إلى الخاتم المهدى إليها !.. فأومأت إليها داعيا إلى الرقص ، وإذ ذاك احمر وجهها حياء وزهوا بهذا « الشرف » ، وتركتنى أخاصرها مرحبة .. وحذا « العريس » حذونا فدعا ايلونا إلى مراقصته .. واحتدم الرقص حاميا عنيفا بهيجا ، كما لم يحتدم فى القرية الوادعة من قبل ! .. لكن جعبة المفاجآت التى انطوى عليها ذلك اليوم لم تكن قد فرغت بعد ، إذ لم تلبث أن أقبلت إحدى عجائز الغجر ، مدفوعة بسخاء هدية اديث إلى العروس ، فعرضت على الضيفة الكريمة أن تكشف لها طالع مستقبلها . وأغرى الفضول هذه بالقبول ، فركعت الغجرية أمامها وتناولت كفها تفحصه . وكل من زار (هنغاريا) يعرف أن أولئك الغجريات يبشرن دائما من يرين طالعه بأشياء سارة مفرحة ، كى يظفرن بأجر سخى .. لذلك أدهشنى أن الحظ على وجه الفتاة وهى تصغى إلى همس محدثتها سحابة من القلق والكآبة .. وحين فرغت المرأة من كلامها أومأت اديث إلى أبيها كى يقترب ، فلما فعل أسرت إليه ببضع كلمات ، أخرج الرجل على أثرها من جيبه مبلغا — يبدو أنه كان سخيا — وقدمه للمرأة .. فركعت هذه على الأرض ولثمت طرف ثوب اديث كالمأخوذة ثم جعلت تغمغم ببضع تمائم وأدعية غامضة ، وهى تمسح قدمى المشلولة بيديها .. وحين فرغت ابتعدت مسرعة كمن تخشى أن يؤخذ منها المال الذى أعطيته !.. وأقلقنى أن أرى مسحة الشحوب الذى كسا وجه اديث ، ثم سمعتها تهمس لأبيها على الفور : « يحسن بنا أن نذهب » .. ونهضنا على الأثر ، فتوقفت جوقة الموسيقيين عن العزف ، واشترك

Loolbo www.

أفرادها فى توديعنا مع جميع الحاضرين .. وفى العربة جلست اديث فى مواجهتى ، وكانت ما تزال ترتجف من رأسها إلى قدمها ، شأن من وقعت تحت تأثير نوبة انفعال عاطفى شديد .. وفجأة أخذت تنشج نشيجا عصبيا عنيفا ، ينم عن الفرح الطاغى . كانت تبكى ثم تضحك على التوالى .. إذن فلابد أن الفجرية الخبيثة قد بشرتها بشفاء قريب ! وحين حاولنا تهدئتها ، عارضت فى إصرار وقالت : « دعونى ! .. دعونى ! .. انى أعلم أن المرأة دجالة .. ولكن لم لا أخدع نفسى ؟.. لم لا أتعلق بالوهم ، ولو مرة ؟ » .

الفصل الثامن

اليقظة .. من حلم !

كان الليل قد هبط حين وصلنا إلى القصر عائدين من رحلتنا ، فدعانى القوم إلى البقاء لتناول العشاء ، لكنى اعتذرت ! .. لقد شعرت بأننى نلت كفايتى من السعادة طيلة اليوم ، وخشيت — إن بقيت — من حدوث أى شىء ينتقص من سعادتى هذه .. وهكذا انصرفت مبكرا ، وسرت فى طريق المعسكر وقد خلت نجوم السماء ترنو إلى بنظرات حانية ، ونسمات المساء العذبة تشدو فى أذنى ! كنت فى تلك الحال من النشوة النفسية التى يود المرء فيها لو يعانق كل شجرة من أشجار الطريق ويتحسس جذعها ، وكأنه يتحسس جسم محبوبته .. ويدخل كل بيت فيجلس إلى قاطنيه الغرباء كى يفضى إليهم بذات نفسه ، ويلقى عن صدره وقلبه بعض ما يفيضان به من سعادة عارمة !.. وحين وصلت إلى

المعسكر وجدت تابعى واقفا ينتظرنى أمام باب غرفتى ، فرأيت أن أشركه بدوره فى سعادتى ، فنفحته بشىء من المال يشرب به هو وفتاته بضعة أقداح من البيرة ويقضيان سهرة لطيفة ! لكنى لم أكد أمد يدى إلى جيبى حتى رفع يده إلى رأسه بالتحية العسكرية وابتدرنى بقوله : « توجد برقية باسم سيدى الملازم » !.. وشعرت بانقباض لا علم لى بسببه ، وساءلت نفسى : « ترى من يكون على ظهر البسيطة ذلك الذى يريد منى شيئا عاجلا يستدعى إرسال برقية ؟ » .. وفضضت المظروف بأصابع مرتعشة ، فاذا فيه : « طلب منى أن أزور كيكسفالفا غدا . قابلنى فى الحانة الساعة الخامسة — كوندور » .

لم أكد ألتهم السطور ببصرى حتى أفقت من نشوتى بسرعة البرق ، وتبدد هنائى الحالم فى لمح البصر .. وفى أقل من ثانية أدركت ما لبثت ساعات طويلة أرفض الاعتراف به لنفسى : هو أن سرورى وطربى لم يكونا غير سكرة ولدتها أكذوبة !.. واننى بفعل ضعفى ومغالاتى فى شفقتى قد أثمت فخدعت نفسى وغيرى .. وها هو ذا الدكتور كوندور قادم ليناقشنى الحساب ، وسوف أدفع ثمن الساعات الهنيئة التى استمتعنا بها جميعا !.. وفى دقة الملهوف وجدتنى أصل إلى باب الحانة قبل الموعد الذى حدده لى الطبيب ، ولم يلبث قليلا حتى وصل قادما من المحطة فى عربة يجرها جوادان ، فاتجه من فوره نحوى وابتدرنى قائلا : « كنت أعلم أنى أستطيع الاعتماد على مراعاتك للميعاد .. ولعله يحسن بنا

Loolaa www.dvd4arab.com

ان نجلس فى الركن الذى اجتمعنا فيه تلك المدة ، فان الأمور التى سنتناقش فيها ينبغى الا يسمعها احد ! » .

وبدا لى الطبيب رجلا غير الرجل الهادىء « البليد » الذى عرفته فى المرة السابقة ! كان يعروه شىء من الانفعال المكظوم وهو يتقدمنى إلى المقصورة المنعزلة ، ويخاطب الساقية التى هرعت إلينا ، قائلا فى جفاء ملحوظ : « اعطينا لترا من النبيذ ، مثل تلك الليلة ، ودعينا فى خلوة تامة حتى نطلبك ! » .. ثم التفت إلى عقب جلوسنا مباشرة ، وقبل ان تحضر الساقية ما طلب ، قائلا : « ينبغى أن أدخل فى الموضوع راسا ، وبسرعة ، وإلا توهم القوم فى (كيكسفالفا) اننا ندبر كل صنوف المؤامرات ! لقد لقيت عناء كبيرا فى التخلص من سائقهم الذى كان مصرا على أن يأخذنى إليهم فورا .. ولكن ، فلأبدأ من البداية : لقد فوجئت صباح أمس ببرقية هذا نصها : « أرجو ايها الصديق العزيز أن تحضر فى اقرب فرصة . كلنا ننتظرك بفارغ الصبر . لك ثقتنا الكاملة وشكرنا العميق ـ كيكسفالفا » .. ولم افهم سببا واضحا لهذا الاستدعاء الفجائى ـ ولما يمض على فحصى للمريضة غير بضعة ايام ـ وكذلك لم افهم سر توكيد الرجل لثقته فى بالبرق ، أو الداعى إلى شكره العميق لى !.. لكنى برغم ذلك اهملت الأمر ، حاسبا انها نزوة جديدة من نزوات الأب الملهوف .. اما الذى صدمنى حقا فهو الخطاب الطويل الذى تلقيته من اديث بالبريد العاجل هذا الصباح ، وفيه تذكر لى بلهجة النشوة المجنونة أنها احست منذ البداية اننى الإنسان

الوحيد على الأرض الذى يستطيع إنقاذها .. وأنها تعجز عن وصف السعادة التى غمرتها حين عرفت أننا قد بلغنا اخيرا هذه المرحلة .. لذلك فهى تكتب لى كى تطمئننى إلى أنى استطيع الاعتماد على حسن استعدادها لتنفيذ اى علاج اصفه بغير إبطاء ، مهما تكن صعوبته .. وإن كانت ترجونى ان ابدا باستعمال العلاج الجديد فورا ، لأنها شديدة اللهفة على بلوغ نتيجته المرجوة !.. وكلاما كثيرا آخر لا يخرج عن هذا المعنى ! .. وقد القت هذه الرسالة ما يكفى من الضوء على الموضوع كله ، فأدركت توا أن « شخصا ما » لابد قد ثرثر على مسمع من الفتاة أو أبيها بحديث العلاج الجديد الذى استنبطه البروفيسور « فيينو » .. وهذا الشخص لا يمكن ان يكون غيرك انت يا سيدى الملازم ! » ..

.. ويبدو اننى اجفلت ، بالرغم منى ، حين واجهنى الطبيب بهذا القول ، فقد استطرد فى لهجة حازمة : « كلا ! ارجو الا تدعنا نطيل المناقشة فى هذه النقطة ، فانى لم افه لإنسان غيرك بحرف واحد عن علاج البروفيسور فيينو .. فاذا كان آل كيكسفالفا قد باتوا يعتقدون أن شلل ساقى اديث سوف يشفى بقدرة قادر خلال بضعة اشهر ، فأنت وحدك المسئول عن اعتقادهم هذا ! .. لكنى لست بسبيل لومك او تحميلك المسئوليات ، فقد اخطأت انا بدورى إذ لم اتخذ جانب الحذر فى حديثى معك ، سيما وانه لم يكن فى وسعك طبعا ان تعرف ما عرفته انا ـ بالخبرة ـ من أن للمرضى واقربائهم لغة خاصة ينبغى أن يخاطبوا بها ، وأنهم

Loolo
www.dvd4arab.com

كثيرا ما يترجمون كلمة « ربما » بكلمة « يقينا » ، بحيث يجب أن « يقطر » المرء لهم الأمل تقطيرا ، بمنتهى الحذر ، وإلا صعد التفاؤل إلى رؤوسهم فورا ــ كالخمر الرديئة ــ وأصابهم بما يشبه الجنون !.. ولكن ما حدث قد حدث ، فلنغلق باب الحديث فى تحديد المسئولية ، فما طلبت مقابلتك اليوم كى ألقى عليك محاضرة فى هذا الشأن .. وإنما كل ما فى الأمر أننى رأيت من واجبى ــ وقد تدخلت فى عملى ــ أن أوضح لك حقيقة الموقف الراهن ، ولهذا سألتك أن نلتقى ! » .

ورفع كوندور رأسه ، لأول مرة ، وحدجنى بنظرة مباشرة .. لكن نظرته كانت خالية من التحامل ، بل إنها ــ على العكس ــ كانت مفعمة بالشفقة والرثاء !.. حتى لكأن صوته قد لان ، وازداد رقة ، حين استطرد فقال : « فلتعلم يا عزيزى الملازم أن ما سأقوله لك الآن سوف يؤلمك .. ولكن ، لا وقت لدينا للعواطف ، كما قلت لك !.. لقد تلقيت اليوم رد البروفيسور فيينو على استفسارى عن علاجه الجديد ، فاذا هو يؤكد نجاحه فى نحو ثلاث حالات حتى الآن ، لكنها جميعا ــ لسوء الحظ ــ لا يمكن مقارنتها بحالة اديث .. فالعلاج المذكور ناجح فى شفاء امراض النخاع الشوكى الناشئة عن السل ، وفيها يمكن إعادة اعصاب الحركة إلى القيام بوظائفها الأولى على خير ما يرام .. اما فى حالتنا ، حيث الجهاز العصبى الرئيسى متأثر بالإصابة ، فإن جميع طرائق البروفيسور فيينو ــ كالرقاد

بلا حركة داخل مشد من الصلب ، واستخدام اشعة الشمس ، والتمرينات الخاصة التى ابتدعها ــ كل ذلك لا يجدى فتيلا !.. هذا ما اردت أن أوضحه لك ، كى تفهم الموقف الراهن على حقيقته . ولعلك الآن تقدر مدى تهورك حين بعثت فى صدر الفتاة التعسة ذلك الأمل الكاذب فى أنها ستشفى خلال أشهر ، وسوف تستطيع أن ترقص وتجرى ، وتتحرك ، مثل سائر الناس !.. أو بعبارة أخرى انك قد وعدتها بالشمس والقمر والنجوم ، وما أحسب إلا أنها ستناقشك الحساب بصدد تحقيق هذه الوعود ! »

.. واحسست كأنى تلقيت ضربة حادة بفأس ، على رأسى !.. وطبيعى أننى شعرت بحافز يدفعنى إلى الدفاع عن نفسى ، والتنصل ولو من بعض المسئولية على الأقل ، لكن الكلمات التى خرجت من فمى جاءت متخاذلة ، وكأنها دفاع تلميذ مذنب !.. قلت : « لكنى إن كنت قد تفوهت بحرف لكيكسفالفا ، فان ذلك لم يكن إلا بدافع .. بدافع .. » .. فقطع الدكتور كوندور كلامى قائلا : « أعلم ذلك .. لقد اغتصب الكلام منك ، انتزعه انتزاعا !.. إننى أعرف الناس بإلحاحه اليائس الذى يحطم جميع خطوط دفاع محدثه ! نعم ، انا أعلم انك لم تضعف إلا بتأثير شفقتك عليه ، وهى انبل الدوافع .. ولكن احسبنى حذرتك من هذا الخطر من قبل ، فالشفقة سلاح ذو حدين : وكل من لا يتقن استعماله يجب ان يكف يديه ــ وقبل كل شىء : قلبه ــ عن لمسه .. فى البداية فقط تكون الشفقة كالمورفين ، يمكن يخفف

Loolog www.dvd4arab.com

آلام المريض ، ولكن ما لم تعرف بالضبط مقدار الجرعة التى تعطيه إياها منه ، ومتى تكف عن إعطائها ، فان المسكن ينقلب سما قاتلا !.. وكما يدمن الجهاز العصبى « المورفين » ، فيظل يصرخ فى طلب المزيد منه كل حين ، كذلك تدمن النفس « الشفقة » فتصرخ فى طلب المزيد منها يوما بعد يوم ، حتى تطلب فى النهاية أكثر مما يمكن للانسان ان يعطى !.. وحين تأتى تلك اللحظة ، ينبغى للمرء أن يتوقع من المريض مقتا وكراهية يفوقان ما كان يناله منهما لو لم يمد لمريضه يد المساعدة على الاطلاق ، منذ البداية !.. نعم يا عزيزى الملازم ، يجب ان يزن الشخص شفقته بالقسطاس ، وإلا احدثت من الضرر اضعاف ما كان يحدثه عدم المبالاة !.. هذه حقيقة نعلمها جيدا نحن الأطباء ، كما يعلمها القضاء والمرابون وغيرهم ، فلو اطلق الجميع العنان لشفقتهم لانقلب نظام الكون .. وها انت ذا ترى بنفسك ما احدثه ضعفك من اضرار ! » .

وكان على ان أدافع عن نفسى ، فقلت : « لكن .. لا يستطيع الإنسان أن يترك غيره فريسة لليأس . وعلى اية حال فما كان هناك ضرر فى محاولتى أن .. » .. لكن الطبيب قطع كلامى قائلا فى حدة : « لا تنس يا عزيزى أن العبرة بالنتائج وليست بالدوافع ، فما جدوى أن تكون الدوافع نبيلة والنتائج سيئة ؟.. إن الشفقة ذاتها لا غبار عليها ، ولكن هناك نوعين من الشفقة : الأول هو النوع الضعيف العاطفى ، الذى لا يزيد على كونه لهفة القلب على التخلص

بأسرع ما يمكن من الشعور الأليم الذى تخلفه رؤية شقاء إنسان آخر .. وهذا النوع من الشفقة هو بمثابة رغبة غريزية فى تحصين النفس ضد آلام الغير .. والنوع الثانى ـ الذى يعتد به ـ هو النوع العاطفى ، الذى يعرف ما هو منصب عليه ، ويغرى صاحبه بأن يصمد ـ فى صبر واحتمال ـ إلى أقصى حدود طاقته ، وربما إلى ابعد من ذلك ! .. ولا يستطيع المرء أن يعين احدا بشفقة ، ما لم يمض فى الشوط إلى نهايته القصوى المريرة ، مستعينا بمعين لا ينضب من الصبر .. بل ما لم يوطن النفس على التضحية بذاته فى هذا السبيل ! » .

وشابت صوت محدثى مرارة ظاهرة ، ذكرتنى فجأة بما قاله لى كيكسفالفا يوما عن زوجة كوندور العمياء ، التى وعدها برد بصرها إليها ، فلما عجز عن ذلك .. تزوجها ، بدافع التكفير ! .. لكنها بدلا من أن تعيش مقدرة لجميله ، نغصت عيشه وجحدت فضله !.. غير أن الطبيب ايقظنى من أفكارى بوضع يده على ذراعى فى رقة ، ثم قال لى : « عفوا ، لم اقصد أن اقسو عليك ، فان استسلامك لعواطفك امر يحدث لكل إنسان .. فلننتقل من هذه الأبحاث النفسية إلى الحلول العملية ، وعلينا ان نعمل فى هذا السبيل متضامنين : واول مهمة تواجهنا الآن هى ان ننتزع من اذهان القوم كل امل فى علاج البروفيسور فيينو ، وكلما اسرعنا فى ذلك كان افضل .. لا انكر انها ستكون صدمة قاسية عليهم ، لكنا لا نستطيع ان ندع وهما مثل هذا ينتعش ويتعمق

Looloo
www.dvd4arab.com

جذوره فى نفوسهم .. وفى استطاعتك ان تترك لى مهمة
معالجة الموضوع بكل ما فى وسعى من لباقة وحكمة .. اما
بالنسبة لك ، فلعلك تقدر ان اسهل تخلص يبرىء ساحتى
هو أن أوقع اللوم كله عليك — وبحق — فأذكر انك قد اسات
الفهم ، أو غاليت فى التخيل !.. لكنى لن افعل ذلك ، وإنما
افضل أن آخذ المسئولية كلها على عاتقى .. وإن كنت
اصارحك بأنك لن تسلم تماما من التعرض لذكرك ، فأنت
تعرف كيكسفالفا وإلحاحه الرهيب ، وما لم اتخذك بمثابة
شاهد فى « القضية » فانى لن افلح فى إقناعه بالحقيقة ،
لأنه سيظل يحاورنى ويداورنى بطريقته المعهودة ، وبمثل
هذا الجدل ، فيقول لى : « لكنك وعدت صديقك الملازم
بكيت ؟ » .. او يقول : « لكن صديقنا الملازم قال كذا ! » ،
كيما يخدع نفسه بتصور أن هناك بقية من أمل ! .. والآن
علينا أن نبادر بهدم القصر الذى شيده القوم فى الهواء ،
باسرع ما يمكن ، وإلا كانت الطامة الكبرى ! » .

وأطرق الدكتور كوندور هنيهة ، كمن ينتظر موافقتى ..
لكنى لم أجرؤ على مواجهة نظرته ، فان ذكريات اليوم
السابق جعلت تتسابق فى مخيلتى : تذكرت التغير الذى
طرأ على اديث ، والسعادة التى أشرقت من محياها ،
وضحكاتها ودعاباتها .. كيف ابدد كل ذلك بضربة قاصمة ؟!
كيف اعيدها إلى اليأس القاتل الذى لم يكد يمضى يوم واحد
على نجاتها من قبضته ؟.. كلا ، لن أستطيع ان اساهم فى
هذا الإثم !.. ومن ثم قلت لمحدثى ، فى تخاذل : « اليس فى

وسعنا ان .. أن ننتظر بعض الوقت قبل أن نفتح باب
الحديث فى الموضوع مرة اخرى ؟.. ولو بضعة أيام ؟..
فانى لاحظت أمس أن الفتاة قد وطنت نفسها على تجربة
ذلك العلاج الجديد ، وأن هذا الأمل قد أمدها بالقوة النفسية
التى كنت تتحدث عن احتياجها إليها .. بل لقد خيل
إلى انها استطاعت السير بسهولة أكثر من ذى قبل .. فلو
تركنا الأمر على هذه الصورة فى البداية ، لربما غنمت الفتاة
بعض الفائدة ! » .

فقال مقاطعا : « صه !.. إنك تكاد تزج بنفسك فى
صميم الطب .. ولو أن الفكرة التى تقترحها ليست خرقاء
من اساسها — أعنى من وجهة النظر الطبية طبعا ! — بل لقد
فكرت فيها أنا نفسى بالفعل ، على أثر تلاوتى لرسالة اديث ..
فكرت فى ان نستغل هذا الإيمان الوطيد بالشفاء ، الذى
غرسته انت دون قصد فى اعماق الفتاة ، فنرسلها مثلا إلى
مصحة طبيب من اصدقائى .. وهناك نوهمها بأننا نستخدم
معها العلاج المستحدث ، وعندئذ لابد أن يحدث الأمل ،
وتغيير الهواء والمناظر ، أثرا وقتيا قد يغرى الفتاة بأن
تمطرنا حينا برسائل الشكر والامتنان !.. ولكنى — كطبيب —
ينبغى أن افكر فى النهاية لا فى البداية فحسب ، وان احسب
حساب « رد الفعل » الذى لا بد أن يعقب مثل هذه الآمال
العارمة ، المغالى فيها ! » .. فقلت له : « لكنك تبدو مقتنعا
بأن ذلك سوف يحدث تحسينا جوهريا فى حالة الفتاة ؟! »
.. فقال : « بلا شك .. فى البداية سوف يحدث تقدم

Loolou
www.dvd4arab.com

ملحوظ ، سيما وان النساء فى العادة يستجبن سريعا للمؤثرات العاطفية ، والأوهام .. ولكن فكر فيما عساه أن يحدث بعد بضعة أشهر ، حين تستنفد القوى النفسية طاقتها ، وتفقد أثرها ، فتحس المريضة انها بعد كل ذلك الانتظار ، والاجهاد ، والانفعال المتواصل ، والضغط على الأعصاب .. لم تكد تقترب خطوة من الشفاء ، الشفاء الصحيح الكامل الذى انتظرته حقيقة آتية لا ريب فيها !.. تخيل الكارثة التى تحدثها خيبة الأمل هذه ، ولا سيما لفتاة مرهفة الاحساس !.. وكيف يمكن أن تعطى اديث ثقتها لى ، أو لأى طبيب آخر ، بل لأى إنسان فى الوجود ، بعد أن تتبين اننا خدعناها على هذه الصورة المؤلمة ؟.. كلا يا عزيزى ، إن الحقيقة — مهما تكن قاسية — لأرحم من ذلك المصير ! وفى الطب ، كثيرا ما يكون استخدام السكين اكثر الوسائل رافة بالمريض ! .. كلا ، لن أستطيع تحمل مسئولية هذه الخطة بضمير خالص .. وتستطيع أن تدبر الأمر بنفسك .. فهل تواتيك الجراة على سلوك هذا السبيل لو كنت مكانى ؟ » .

فأجبته دون تردد : « نعم » . لكنى تبينت فى اللحظة التالية مبلغ تهورى فى هذا الجواب ، فأردفت حذرا : « اعنى لو أنى كنت مكانك لأرجأت المصارحة بالحقيقة حتى تتحسن حالة الفتاة بعض الشىء .. اغفر لى يا سيدى الطبيب ، قد يبدو ذلك فى نظرك جراة أو غطرسة ووقاحة منى ، ولكن لو أتيح لك أن تلمس — كما لمست أنا خلال الأسابيع الأخيرة —

مدى حاجة مثل هؤلاء المرضى إلى عون وسند يقوى من عزائمهم ونفسياتهم ، لوافقتنى على رأيى .. نعم ، ينبغى أن تعرف الفتاة الحقيقة ، ولكن ليس الآن .. بل عندما تصبح قادرة على تحملها !.. أتوسل إليك يا سيدى الطبيب .. ليس الآن .. ليس الآن ! » .. فقال الدكتور كوندور : « ومتى إذن ؟.. ثم من الذى يتولى هذه المهمة ؟ إنها لا بد أن تعرف الحقيقة يوما ، واخشى ان تكون خيبة املها حين تعرفها فيما بعد اقسى واخطر مائة مرة منها لو عرفتها الآن .. فهل تود حقا ان تأخذ على عاتقك مثل هذه المسئولية ؟ » .

فقلت : « نعم ! » .. قلتها فى لهجة حازمة ، متأثرا بإشفاقى من الحرج الذى أواجهه لو وافقت الطبيب على رأيه فاضطررنا للذهاب من فورنا كى نصارح القوم بالموقف !.. ثم أردفت قائلا : « سآخذ هذه المسئولية على عاتقى إلى النهاية ، فأنا واثق من الفائدة العظمى التى سوف تجنيها اديث لو تركناها فترة من الوقت تنعم بأملها القوى فى الشفاء .. وإذا اقتضى الأمر فى النهاية ان اصارحها بأنى غاليت فى وعودى ، فأنا على أتم استعداد للاعتراف بنصيبى الكامل من مسئولية هذه المغالاة .. وأنا على ثقة من أنها سوف تفهم عذرى وتقدر موقفى ..!

فقال متعجبا : « لكنك تحمل نفسك مسئولية فادحة ، والغريب فى الأمر حقا أنك تصيب الناس بعدوى ثقتك العمياء هذه ، الشبيهة فى قوتها بالإيمان الدينى !.. فلقد أصبت بها فى أول الأمر آل كيكسفالفا ، وها أنت ذا الآن تصيبنى بها أنا

Looloo www.dvd4arab.com

الآخر تدريجا !.. حسنا ، إذا كنت مستعدا حقا للاضطلاع بعبء هذه المسئولية الخطيرة ، فأنت وشأنك. وفى هذه الحالة قد نستطيع المغامرة بإمهال الفتاة أياما أخرى حتى تهدأ سورة انفعالها ، ولكن دعنى أذكرك يا سيدى الملازم بأنك لو فعلت ذلك الآن فلن يكون من حقك ــ بل لن تستطيع ــ التراجع !.. ومن ثم أستحلفك أن تتدبر الأمر فى روية ، فان من أعسر الأشياء أن تسترد ثقة إنسان بعد أن يكتشف انك خدعته !.. والآن ، قبل أن أعدل عن مصارحة القوم توا بالحقيقية ، هل تعاهدنى وتعدنى بأنك لن تخذلنى فيما بعد ، وبأننى استطيع الاعتماد عليك ؟ » .

.. فلما عاهدته على ذلك ، بدا عليه الارتياح وقال : « حسنا ، فلنؤمل خيرا ، وإن كنت شديد القلق من جراء هذا التأجيل . والآن سأذكر لك إلى اى حد سوف أتمشى معك . إنى سأنصح للفتاة بالذهاب إلى مصحة (انجادين) التى يديرها صديق لى ، لكنى سأصارحها بأن علاج البروفيسور فيينو لم تثبت فائدته المحتمة بعد ، وان عليها الا تنتظر معجزة من ورائه .. فان شاء القوم بعد ذلك ان يتعلقوا بالآمال الكاذبة ــ اعتمادا على وعودى ! ــ فعليك أنت ان تواجه الموقف .. والآن ينبغى أن أسرع اليهم قبل ان يزعجهم إبطائى ! » .

وخرجنا من الحانة إلى حيث كانت العربة تنتظره امام الباب . وحين اتخذ مقعده ، وتأهبت العربة للمسير ، تحركت شفتاى .. هممت بأن اناديه ، كى يعود !.. لكن الجياد سبقت صوتى إلى الانطلاق !

وبعد ثلاث ساعات ، وجدت فى غرفتى بالمعسكر رسالة كتبت على عجل بخط مضطرب ، وقد أحضرها سائق سيارة كيكسفالفا .. وكان فيها : « أحضر غدا مبكرا بقدر ما تستطيع . عندى انباء مهمة لك . لقد حضر الدكتور كوندور الليلة ، وسوف نسافر خلال عشرة أيام .. إنى سعيدة غاية السعادة ــ أديث » .

الفصل التاسع

حطام معركة !

ما الذى أوقع فى يدى ذلك الكتاب بالذات ، فى تلك الليلة بالذات ؟.. كنت قد تبينت أننى متعب مجهد ، بحيث يغلب الا أستطيع النوم سريعا ، ولا التفكير فى صفاء .. فرايت ان أستعين على النعاس بواحد من تلك الكتب القليلة التى أقتنيها فى مناسبات متفرقة ، بدافع الشفقة على بائعيها الجائلين ، وأحملها معى كلما نقلت من معسكر إلى معسكر دون أن اقرأ منها شيئا .. ووقع اختيارى على كتاب « ألف ليلة وليلة » ، لأن قصصه الساذجة التى احتفظ بذكرى مشوهة لها منذ صباى ، لها اثر منوم اكثر من سواها ... وهكذا تمددت فى فراشى وبدأت اقرأ فى تكاسل : قرأت أولا قصة « شهر زاد » والملك الذى عشقها .. ثم مضيت فى قراءة القصة بعد القصة ، حتى استرعت انتباهى قصة الشيخ الأعرج الذى كان راقدا فى عرض الطريق حين مر به شاب ، فناشده أن يحمله على كتفه لأنه كسيح لا يستطيع

www.dvd4arab.com

السير على قدميه . واخذت الشفقة ذلك الشاب فحمله على كتفه ومضى به ، وسرعان ما تبين له ان ذلك المقعد المسكين ليس سوى جنى شرير لا يكاد يستقر فوق كتف حامله حتى يعقد فخذيه العاريتين حول رقبته فيسلبه إرادته ، ويجعل منه عبدا خاضعا له يحمله إلى كل مكان يقصده ، ولا يكون له حق فى ساعة واحدة يستريح فيها ، مهما تخذله ساقاه او يجف حلقه من الظمأ !.. وهكذا يغدو الأحمق ضحية تعسة لشفقته ، ويفرض عليه قدره أن يحمل سيده الماكر الشرير على ظهره .. إلى الأبد !

وتوقفت عن القراءة ، إذ شعرت بأن قلبى يخفق بشدة كأنما يوشك ان يقفز من صدرى .. وتراءت لى صورة الساحر الشرير وقد اتخذ هيئة « هر فون كيكسفالفا » ، بشعره الأشيب ووجهه النحيل ، ونظارته ذات الإطار المذهب !.. وخلت نفسى ذلك الشاب الأحمق الذى استجاب لداعى الشفقة فحمل الجنى على كتفيه ، بل لقد احسست ضغط فخذى « الجنى » فوق رقبتى ، إلى حد ضاقت معه انفاسى .. فسقط الكتاب من يدى ، وصارت أطرافى فى برودة الثلج ، وشعرت بقلبى يدق بين ضلوعى كأنه يدق داخل صندوق من الخشب الصلب !.. وحين غلبنى النعاس آخر الأمر ، زارنى الشبح فى منامى وظل يستحثنى على المسير .. فلما صحوت فى الصباح ، وقد بلل العرق شعرى ، كنت مضنى من التعب والاجهاد وكأنى سرت عشرات الأميال !

وعبثا حاولت ان استعين بعملى ورفقة زملائى على

نسيان تلك القصة اللعينة ! وحين أخذت طريقى بعد الظهر إلى قصر كيكسفالفا ، كان ذلك الحمل المرذول ما يزال يثقل كاهلى ، فانى فى أعماق ضميرى المبلبل كنت أدرك جيدا أنى منذ ذلك اليوم قد اضطلعت بمسئولية ذات طابع مبتكر ، لكنه جد مرهق ، كما أدركت ان واجبى صار يقتضينى ان اؤدى فى كل مناسبة — فى إصرار وإلحاح — دورا تمثيليا معتدا ، واضع على وجهى قناعا زائفا صفيقا .. واكذب فى كل حين ، فى هدوء المجرم المحنك الذى يفكر فى كل تفصيلات جريمته ، ووقائعها ، ويحضر دفاعه عن كل حركة او سكنة من تصرفاته ، قبل أن يسأل ويستجوب باسابيع ، وشهور !.. ولأول مرة فى حياتى بدأت أتبين ان الضعف — لا الشر ، ولا الوحشية — هو المسئول عن اسوأ الكوارث التى تقع فى هذه الدنيا !

.. وفى القصر جرى كل شىء كما توقعت ، أو خشيت ، تماما . لم اكد اظهر فى شرفة البرج حتى استقبلت فى حفاوة وترحيب ، وكنت قد حملت معى باقة من الورد كى اشغل بها انتباه القوم عنى ، فابتدرتنى اديث متسائلة : « ما الذى دفعك إلى ان تحضر لى وردا .. إنى لست ممثلة أولى فى مسرح ؟ » .. ثم انتقلت على الفور إلى سرد ما عندها من انباء : فذكرت كيف أمدها كوندور — ذلك الطبيب المدهش العجيب — بشجاعة جديدة على تحمل آلامها ، وكيف يعتزم إدخالها مصحة فى جهة (انجادين) بعد عشرة أيام .. ثم اخذت تبدى عجبها لإضاعة يوم واحد بعد ان اهتدوا إلى العلاج الشافى !

www.dvd4arab.com



وكنت قد حملت معى باقة من الورد كى أشغل بهـا انتبـاه القوم عنى ، فابدرتنى اديث متسائلة : ما الذى دفعك الى أن تحضر لى وردا ..

كما ذكرت أنها حاولت الانتحار مرتين من قبل ، كى تضع حدا لحياتها العقيمة ، لكنها فشلت فى المرتين !.. وكيف أنهـا لا ترى معنى أو فائدة من التحسن البسيط المؤقت الذى كانت تجنيه من أساليب العلاج السابقة ، لأن المريض إما أن يشفى، وإما لا يكون ثمة رجاء فى أدنى تحسن على الاطلاق !.. ومضت فى ثرثرتها النشوانة على هذا النحو ، حتى خيل إلى انى طبيب اصغى إلى هذيان متهوس محموم !.. وكلما سمعتها تضحك ، لمناسبة ما ، كنت أرتجف فرقا ، فقد كنت أعرف ما لا تعـرف هى ! أعرف أنها تخدع نفسها ، ونحن نخدعهـا !.. وحين سكتت فى النهاية ، انتابنى شعور المسافر الذى يفيق من نومه عندما تتوقف عجلات القطـار فجـأة عن الضجيج !.. لكنى انتبهت لأسمعها تخاطبنى : « ماذا ؟ أليس عندك ما تقوله ؟.. ما بالك جامدا هكذا فى مكانك ، وعلى وجهك هذه النظـرة الغبية ؟.. عفوا !. أعنى نظرتك الشاردة ؟.. لم لا تقـول شيئا ؟.. ألست تشاركنى سعادتى ؟ » .

فأجبتها وأنا أنتهـز الفرصـة كى أرضيها بعبـارة ودية حارة تزيل كل أثر لجمودى : « كيف تتصورين شيئا كهذا ؟.. كل ما فى الأمر أنى فوجئت على حين غـرة ، وأنت تقدرين ذلك بالطبع . والواقع أنى مسرور لهذه الأنباء ! » .. وأحنقنى أن أسمع الصدى المتكلف البارد لكلماتى !.. ولا بد أنها لحظت تحرجى ، فقد تغير مسلكها على الفور ، فاختفى انشراحهـا تحت سحابة من الكآبة المفـاجئة ، كمن أوقظت فجأة ـ فى عنف ـ من حلم بهيج .. وقالت عاتبة : « ألست أرى أنك

Looloo www.dvd4arab.com

اظهرت سرورا كثيرا ! » .. وادركت الإهانة التى ينطوى عليها قولها ، فحاولت استرضاءها بقولى : « يا طفلتى العزيزة .. » ، لكنها انفجرت تقاطعنى فى حدة : « فلتكف عن مخاطبتى بهذا الوصف .. انت تعلم انى لا اطيقه ، فانك لا تكبرنى كثيرا !.. ولعله يحق لى أن ادهش لعدم اهتمامك بالانباء التى اطلعتك عليها ، بينما كان ينبغى ان تسر بالعطلة الطويلة التى سوف تحظى بها ، فان هذا البيت سوف يغلق لبضعة شهور ، وهكذا يغدو فى وسعك أن تعود فتجلس مع اصدقائك فى المقهى وتشاركهم اللعب .. وبذلك تعتق من جلساتك المملة معنا كل ليلة !.. نعم ، استطيع أن افهم جيدا اكثر من سبب لسرورك ، فامامك أيام ممتعة تتطلع إليها ! » .. وكانت لهجتها لاذعة ، بحيث رأيت ان اتقى إغضابها بتكلف المزاح فى جوابى ، فقلت : « أيام ممتعة ؟!.. هذا ما يدور عادة فى أذهان المدنيين ، أما نحن العسكريين ــ ضباط سلاح الفرسان ــ فنعد شهور : يوليو ، واغسطس ، وسبتمبر ، اكثر شهور السنة إرهاقا لنا فى العمل ، بسبب المناورات السنوية التى لا تنتهى إلا فى آخر سبتمبر ! » .. فأخذت هى تكرر « آخر سبتمبر » مثنى وثلاث ورباع ، ثم تساءلت كأنما تخاطب نفسها ، وقد بدا عليها الاستغراق فجاة فى التفكير : « متى إذن .. تحضر إلينا ؟ » .

ولم أفهم قصدها ، فسألتها فى بساطة : « أين احضر إليكم ؟ » .. وعندئذ عقدت ما بين حاجبيها وقالت : « اما تكف عن هذه الأسئلة السخيفة ؟.. تحضر كى ترانا ، كى

ترانى انا ! » .. فقلت : « تعنين فى (انجادين) ؟ » .. فقالت : « نعم » . وعندئذ فقط ادركت قصدها ، فضحكت سخرية من نفسى ! كانت الفتاة الساذجة تجهل انها تخاطب رجلا تعتبر الرحلة القريبة إلى فيينا ترفا لا تتحمله ميزانيته ، برغم التخفيض الذى يمنح للضابط ، بنسبة خمسين فى المائة !.. فضلا عن انها تطلب إليه أن يقضى اجازته كلها فى جهة نائية ، باهظة النفقات مثل (انجادين) ؟

كانت الفكرة ابعد احتمالا من أن يفكر فيها مثلى ! ومن ثم اجبتها ضاحكا : « يا لطرافة فكرتكم عن الحياة العسكرية ، انتم معشر المدنيين !.. إنكم تتصورونها تجوالا بين المقاهى ، ونوادى البلياردو ، ونزهات فى الطرقات ، بحيث إذا ما شعر المرء بالملل من عمله فما عليه إلا أن يرفع أصابعه إلى قبعته ويقول لرئيسه : « إلى اللقاء يا كولونيل ، فلست احس ميلا إلى العمل ، وسوف اعود حين اجد فى نفسى هذا الميل ! » .. الا تعلمون ان احدنا إذا اراد التغيب ساعة واحدة كان عليه ان يقف امام رئيسه متصلب القامة وقتا طويلا ، كى يمن عليه بهذا الفضل ؟.. اما إذا اراد اجازة ليوم كامل ، فلا بد فى هذه الحالة من أن تموت له عمة ، أو تقام جنازة لفرد ما من افراد عائلته !.. وبودى لو ارى ما يلوح على وجه رئيسى لو وقفت أمامه ذات يوم لأخبره بأنى مشوق إلى السفر فى اجازة إلى سويسرا !.. احسب انه لا بد منهال على يومئذ بوابل من الالفاظ والنعوت التى لا توجد فى اى قاموس يصلح لأن يقراه الجنس اللطيف !.. كلا يا آنستى العزيزة ، إنك تغالين فى تبسيط الأمور ! » .

Loolob www.dvd4arab.com

.. غير أن اديث لم يبد عليها انها اقتنعت بحججى هذه ، فقد أجابتنى بقولها : « هذا الذى تقوله هراء !.. إن كل شىء يغدو ممكنا إذا وضعت تنفيذه نصب عينيك ! فلا تصور لنفسك أنك شخص لا يمكن للفرقة الاستغناء عنه !.. ولهذه المناسبة ، يستطيع ابى ان يدبر الأمر مع رؤسائك المختصين فى وزارة الحرب فى خلال نصف ساعة .. والواقع انك سوف تستمتع برؤية العالم الخارجى ، وتستريح من عملك الممل المألوف فترة من الزمن .. والآن كفى أعذارا ، وعدنى بانك ستحضر ! » .. وغاظنى أن تتكلم اديث بهذه اللهجة ، مؤكدة استطاعة ابيها ان يملى أوامره على رجال وزارة الحرب ، كأنهم خدم عنده ، فى حين ننظر نحن إليهم كانهم انصاف آلهة ! .. لكنى آثرت الاحتفاظ بلهجتى المازحة ، فقلت : « حسن جدا أن امنح الاجازة بهذه السهولة — وعلى طبق من الفضة ! — كما تتخيلين ، ولكن أباك سوف يضطر ايضا إلى ان يحصل لى على استمارة سفر ايضا ، علاوة على الإجازة ! » .. وحين بدا على الفتاة انها لم تفهم قصدى ، رايت ان اكون صريحا معها ، فقلت جادا : « هل فكرت حقا يا آنسة اديث فيما عسى ان تكلفنى إياه رحلة كهذه ؟ » .. وعندئذ هتفت من فورها : « أوه ، إذن فهذا ما تعنيه ؟.. إن الأمر لن يكلفك اكثر من بضع مئات من الريالات ! » .

وهنا لم أستطع قمع غيظى ، فقد كان موضوع النقود « عاهتى » المستعصية ، أو « وترى الحساس » الذى لا أتحمل لمسه إلا برفق .. كنت فى صدده أحس شعورا

بالنقص يعادل شعورها هى بالنقص بسبب شللها ! ومن هنا أجبت ، فى شىء من الحدة : « بضع مئات من الريالات فقط ؟ .. إنها مسألة تافهة ، اليس كذلك ؟.. ولعلك ترين من غير اللائق أن افكر فيها أو أتحدث فى شأنها !.. ولكن هل فكرت فى مستوى المعيشة الذى تسمح به لنا مرتباتنا نحن الضباط ؟ » .

وبدا لى ان الفتاة ترمقنى بتلك النظرة نفسها التى حسبتها نظرة احتقار ، فتملكنى ميل جارف إلى ان اكاشفها بفقرى وحقيقة حالتى المالية .. تماما مثلما وجدت هى — من قبل — لذة فى التشفى فينا وتحدى مشاعرنا نحن الأصحاء ، بعرض عاهتها المؤلمة علينا فى أبشع صورها والسير وسط الحجرة بعكازيها دون معاونة احد !.. وهكذا وجدتنى استطرد قائلا : هل فكرت يوما فى معرفة المرتب الذى يدفع للازم مثلى ؟ فلأصارحك أنا به : إنه مائتا ريال ، مفروض أن تكفى صاحبها ثلاثين يوما ، فيدفع منها اجر الطعام واللباس ومقابل اجر السكن ، ثم يشترى منها الكماليات التى تناسب رتبته العسكرية .. هذا إذا لم يصب جواده بسوء يقتضى علاجا ! .. فإذا بقى له شىء بعد ذلك فقد يستطيع أن يجلس فى المقهى بين حين وحين ، وأقصى ما يمكن ان يطلبه فى هذه الحالة : قدح متواضع من القهوة ! » .

.. على اننى لم اكد أتفوه بهذه العبارات ، حتى شعرت لتوى بأننى ارتكبت حماقة إذ اطلقت العنان لمرارة نفسى كى تنفجر وتفيض على هذه الصورة ، فى مواجهة طفلة عزيزة لم

Lolo www.dvd4arab.com

تسمح لها ظروفها بأن نقدر يوما اية قيمة للمال !.. وما كدت أرفع عينى إليها حتى أدركت مبلغ إثمى وقسوتى ، فقد صعد الدم فجأة إلى وجنتيها ، فحجبت وجهها بكفيها ، وقالت فى استحياء : « ومع ذلك فأنت تذهب وتشترى لى كل هذه الزهور الغالية ؟! » .. وتلت ذلك لحظات عصيبة ، خيل لى انها لن تنقضى ! شعرت أنا بالخجل امامها ، وشعرت هى بالخجل أمامى !.. كان كلانا قد جرح إحساس الآخر ، وخشى ان ينطق بكلمة أخرى ! وبعد حين استطاعت الفتاة أن تقول : « يا لى من غبية حمقاء ، كيف جاريتك فى كل هذا الهراء ؟.. إنك إذا حضرت لزياراتنا فستكون ضيفنا . وهل تحسب ان أبى سيسمح لك بان تتكلف نفقات الرحلة ، علاوة على مشقة السفر للسؤال عنا ؟.. اى هراء هذا ..! والآن كفى حديثا فى هذا الموضوع وحذار ان تنطق فيه بكلمة أخرى ! » .. ولكنى قلت لها : « بل هناك كلمة أخرى لا بد أن تقال ، تجنبا لأى سوء تفاهم بيننا : فلتعلمى بأنى لن أسمح لأحد بان يحصل لى على رعاية أو امتياز خاص لا يتاح لزملائى . أنا أعلم أن نيتك حسنة وكذلك نية أبيك ، لكن هناك أناسا لا يقبلون كل خيرات هذه الدنيا .. فلا تدعينا نتكلم فى هذا الموضوع مرة أخرى ! »

فنظرت إلى مليا وقالت : « إذن ، انت لا تريد ان تحضر لزيارتنا ؟ » .. فقلت على الفور : « أنا لم أقل ذلك ، لكنى شرحت لك لماذا لن أستطيع الذهاب ! » .. فقالت : « حتى لو الح عليك أبى ، راجيا قبول دعوته ؟ » .. فقلت دون

تردد : « نعم .. لن أستطيع ذلك حتى فى هذه الحالة ! » .. فسكتت هنيهة ثم قالت : « وإذا سألتك انا ان تحضر .. باعتبارك صديقا عزيزا ؟ » .. فقلت لها : « أرجو الا تفعلى ، فالمسألة فى حكم المفروغ منها ! » .

ولاذت الفتاة بالصمت ، لكنى لمحت فى اختلاج شفتيها بوادر العاصفة !.. إن الطفلة المدللة لم تألف من قبل أن يتصدى لها إنسان برفض طلب لها !.. وما هى إلا لحظة حتى مدت بصرها فاختطفت باقة ازهارى من فوق المنضدة وقذفت بها بعيدا فى حنق ، ثم قالت وهى تصر على أسنانها منفعلة : « حسنا ! .. على الأقل قد عرفت الآن مدى صداقتك . إنه اختبار لها ، جاء فى اوانه !.. فلأنك تخشى السنة زملائك ، تدمر متعة صديقة لك .. فليكن !.. لن أفاتحك فى الأمر مرة أخرى .. أنت لا تريد الحضور .. كما تشاء إذن ! » .. ولبثت تكرر العبارة الأخيرة وهى تضغط بأصابعها المتقلصة على ذراعى المقعد فى عصبية شديدة .. ثم استطردت قائلة : « حسنا ! إن المسألة قد انتهت عند هذا الحد ، ورجاؤنا الذليل قد رفض !.. إنك ترفض أن تحضر لترانا ، حسنا ! سوف نتحمل ذلك ، وقد عشنا على ما يرام قبل أن نعرفك .. لكن هناك سؤالا واحدا اريد أن تجيبنى عليه بصراحة ، فهل تعدنى بشرفك أن تفعل ؟ » .

فقلت : « نعم ، اعدك بشرفى ! » .

فقالت : « حسنا ! لا تخشى أن ألح على « [illegible] » فى شأن السفر !.. إنما أريد أن أعرف [illegible] لا تريد الحضور

Loolee www.liilas.com

لزيارتنا هناك — لأى سبب من الأسباب — فما الذى يدفعك
إلى ان تزورنا على الاطلاق .. اعنى : هنا ؟! » .

وقد كنت مستعدا لأى سؤال منها ، عدا هذا السؤال ..
فجعلت اردده كالذاهل !.. ثم قلت لها اخيرا : « هذا امـر
بسـيط ، بسيط يا سـيدتى ، ومـا كان ليحـوجك إلى أن
تستحلفينى بشرفى ! » .. ثم لذت بالسكوت ، لكنهـا هى لم
تسكت ، وإنما مضت تقول : « إذن .. أجب على السؤال فى
الحال ! » .

ولم يكن ثمة سبيل امامى لمواصـلة السـكوت أو تسويف
الجواب ، على انى حرصت على أن التزم الحـذر واللبـاقة
ما استطعت ، ومن ثم قلت لهـا : « يا عزيزتى .. لا تبحثى
عن دوافع خفية وراء ذلك ، ولعلك تعلمين انى لست بالشخص
الذى يفكر كثيرا فى دوافعه الخاصـة ، فلم يحدث أن سالت
نفسى يوما : لمـاذا ازور هذا الشخص او ذاك ، ولمـاذا احب
هؤلاء الناس ولا احب آخرين غيرهم .. ولست أستطيع ان
أعطيك سببا لمجيئى إلى هنا يوما بعد يوم سوى هذا السبب
البسيط وهو انى افعل ذلك لانه يروقنى ، ولانى احس هنـا
انى أسعد مائة مرة منى فى اى مكان آخر ، إذ لا اكاد استرسل
فى الحديث معكم حتى .. » .

ووقفت عنـد هـذا الحد ، ولكنها راحت تستحثنى على
اتمام عبارتى ، قائلة فى اهتمام : « حتى ماذا ؟.. تكلم ! » .

فقلت : « .. حتى أقول لنفسى — واغفرى لى صراحتى —
انكم ترحبون بوجودى بينكم ، وإن مكانى هنا .. فانى اشعر
هنا — اكثر من شعورى فى اى مكان آخر — كأنى فى بيتى ..
وكلما نظرت إليك اشعر بأنى .. بأنى إزاء شخص لست فى
نظره « كمية مجهولة » مثلما انا فى نظـر زملائى فى الفرقة !
.. واحيـانا اتساءل متعجبـا : كيف لم تضـايقك زياراتى
بعد .. بل كثيرا ما ينتابنى الخـوف من أن تكونى قـد مللت
عشرتى ، لكنى لا البث ان اذكر نفسى بانك وحيـدة فى هذا
البيت الكبير الفارغ ، وانه يمتعك أن تجدى شخصا يأتى
لزيارتك ، وهـذا ما يمدنى دائما بالشجاعة .. فكلما رايتك
فى هـذه الشرفة او فى غرفتك ، اقول لنفسى : انى احسنت
صنعا بالمجيء ، بدلا من تركك تقضين اليوم كله وحـدك ..
الست تفهمين هذا الشعور ؟ ! » .

كان رد الفعل الذى أحدثه كلامى فى نفسها غير ما توقعت ،
فقد جمدت عينـاها الغبراوان ، وكأن كلمـاتى قد حولت
انسانيها إلى كرتين من الزجاج او الحجر الأصـم .. وبدأت
اصابعها تروح وتجيء على ذراعى المقعد ، وتنقر على خشبهما
اللامع نقرات عصبية سريعة .. ثم خرجت عن صمتها اخيرا
فقالت على حين غرة : « انى افهم شعورك هذا جيدا ، واعتقد
انك الآن قد ذكرت الحقيقة ، وعبرت عن إحساسك فى عبارات
مهذبة ، وإن كانت معذبة لى فى الوقت نفسه ! .. لكنى فهمتك
تماما ، فانت تحضر لأنى وحيـدة .. او بعبارة اخرى لأنى
مقيدة إلى هذا الكرسى . هذا هو السبب الوحيد لمجيئك إلى

Loo loo www.dvd4arab.com

هنا كل يوم : أن تمثل دور « فاعل الخير » الذى يرأف بحال فتاة كسيحة مسكينة ـ كما تطلقون على ولا شك، وراء ظهرى! ـ فأنت إنما تحضر بدافع الشفقة وحدها .. نعم ، إنى اصدقك ، وما الداعى إلى الإنكار الآن ؟ إنك احد اولئك « الناس الطيبين » كما يسميهم ابى ، الذين يذوبون شفقة على كل مصاب !.. فشكرا لك على اى حال ، لكنى فى غنى عن صداقتك التى تظهرها نحوى لا لشىء سوى أنى كسيحة .. لقد أرتبت فى الأمر منذ زمن ، لكنى لم أستوثق منه غير الآن ، حين اعترفت به دون ان تشعر بأسلوبك اللبق الملتوى .. ولعلك تغبط نفسك وتنتظر ان يحمد الناس لك هذا الانكار النبيل للذات ، ولكن يؤسفنى ان اصارحك بانى ارفض ان أسمح لأحد بتضحية نفسه من اجلى !.. ارفض ان احتمل ذلك من اى إنسان ، فكم بالأحرى منك ؟!. بل انا امنعك من ان تفعل ذلك ، اتسمعنى ؟.. انى امنعك !.. انى فى غنى عن نظراتك المفعمة بالعطف ، وحديثك اللبق المنمق ، وفى وسعى ان اعيش من غيرهما كما كنت اعيش .. ويوم اعجز عن تحمل عيشتى هذه فانا اعرف كيف اتخلص منكم جميعا .. انظر ! ـ ومدت إلى فجاة راحة يدها ـ انظر إلى هذه الندبة ! لقد حاولت مرة ، لكنى فشلت !.. كان المقص الذى استخدمته تنقصه الحدة ، فلحقوا بى واسعفونى قبل ان احقق غايتى ، ولكن ثق بانى فى المرة القادمة سوف اتقن فعلتى !.. فانى افضل الموت على حياة اكون فيها موضع شفقة من احد ! .. ضاحكة ضحكة حادة كالمنشار) .. لقد جعله ابى منخفضا هناك مثلا .. اترى سور هذه الشرفة ؟ (وانفجرت فجاة

كيلا يحرمنى من رؤية المناظر الجميلة المحيطة بى ، ولم يخطر ببـاله ، او ببال الطبيب ، او المهندس ، أننى قد استطيع استخدامه يوما لغرض آخر .. تأمل جيدا ! » .. وتحاملت بغتة على نفسها فرفعت جسمها واندفعت بثقله كله نحو السور فأمسكت بحافته بيديها كلتيهما ، ثم اردفت : « نحن هنا فى الطابق الخامس ، وتحتنا فى القاع ساحة من الخرسانة المسلحة فيها اكثر من الكفاية .. وبى والحمد لله بقية من عافية تعيننى على تخطى هذا السور .. نعم ، فان التوكؤ على العكازين يقوى العضلات !.. وهكذا لن احتاج إلى أكثر من حركة واحدة ، أتحرر بعدها إلى الأبد ، منك ومن شفقتك اللعينة ! وأريحكم جميعا من عبئى ، انت وابى وايلونا .. انظر ، لن يكون على غير ان اتكىء على السور ، وانحنى قليلا هكذا ! » .

وهنا لمحت فى عينيها الغبراوين بريقا خطرا ، فقفزت من مقعدى منزعجا وأمسكتها من ذراعها ، لكنها انتفضت مجفلة ـ كأن نارا قد لسعتها ! ـ وصاحت بى : « إليك عنى !.. كيف تجرؤ على أن تلمسنى ؟ اذهب بعيدا .. إن من حقى ان افعل ما اشاء !.. دعنى .. دعنى واغرب فورا عن وجهى! ».

وإذا ابيت ان اطيعها ورحت اجذبها بعيدا عن السور ، بالقوة ، استدارت بالجزء العلوى من جذعها ولكمتنى بقوة فى صدرى ، بقبضتها .. لكن الحركة افقدتها توازنها ، فخارت ركبتاها وانهارت بثقل جسمها كله على الأرض ، قبل ان يستطيع ذراعاى أن يتلقياها !.. واثناء سقوطها جذبت

Loolooo www.dvd4arab.com

معها منضدة الشاى التى حاولت التشبث بها ، فسقطت معها بجميع ما عليها من أدوات واطباق ، تحطم أكثرها محدثا دويا ورنينا عاليين .. وتدحرج الجرس البرونزى الكبير على أرض الشرفة حتى آخرها ، فضاعف من صوت الضجيج .. بينما رقدت اديث على الأرض مثل كومة تعسة لا حول لها ولا طول ، وهى تشهق باكية فى حرقة ، من فرط الحنق والخجل !.. وكلما حاولت رفعها ضربتنى صائحة : « اغرب عن وجهى .. اذهب بعيدا .. أيها الوحش ! » .. ثم راحت تبذل كل جهدها كى تنهض بغير معاونتى ، وهى تكرر صياحها فى كل مرة أحاول فيها الاقتراب منها !

وكان الضجيج قد بلغ مسمع « جوزيف » ، فاستقل المصعد إلى حيث كنا .. ولم يكد يرى المنظر حتى غض من بصره فى تأدب وخف إلى سيدته المنتفضة المنتحبة يقيل عثرتها فى رفق — دون أن ينظر إلى — ثم يحملها عائدا إلى المصعد الذى هبط بهما على الأثر .. وبقيت وحدى فى الشرفة ، وحولى الأوانى المحطمة ، مبعثرة فى كل مكان .. كأنها حطام متخلف عن معركة !

* * *

الفصل العاشر

قبلة ظامئة !

لست أدرى كم بقيت واقفا فى ذلك الوضع ، حائرا فى فهم علة تلك الثورة المفاجئة !.. أى قول أحمق نطقت به يستحق هذه الغضبة الشنعاء ؟!.. وفيما أنا أقلب الأمر على وجوهه سمعت « أزيز » المصعد عائدا إلى السطح .. ولم يلبث أن برز منه جوزيف ، واقترب منى قائلا فى أدبه المعهود : « فليسمح لى سيدى الملازم أن أجفف سترته المبتلة .. » .. وعندئذ فقط تنبهت إلى بقعتين كبيرتين من سترتى وبنطلونى مبللتين بآثار الشاى الذى انسكب أثناء سقوط المائدة .. وبعد أن انهمك الرجل فترة من الوقت فى محاولة تنظيف ثيابى وتجفيفها بمنشفة ، قال يائسا : « لا فائدة .. لعله يحسن أن أرسل السائق بالسيارة إلى المعسكر كى يحضر لسيدى الملازم سترة أخرى ريثما أنظف هذه وأكويها .. » .

وكانت لهجته تنطق بالعطف البالغ ، فقلت له فى بساطة : « لا داعى لكل هذا لأنى ذاهب من فورى إلى المعسكر » . وطلبت منه أن يرسل فى طلب عربة تقلنى إلى هناك .. وعندئذ رفع إلى عينيه المتعبتين فى حركة توسل ، وهو يقول : « هلا بقى سيدى الملازم بعض الوقت ؟. إنى أعلم عن يقين أن سيدتى سوف تستاء جدا لو أنك انصرفت الآن !.. إنها قد أوت إلى مخدعها ومعها الآنسة ايلونا ،

www.dvd4arab.com

وقد طلبت منى الآنسة ايلونا ان ارجو سيدى الملازم ان يتفضل بانتظارها هنا ، فانها قادمة بعد لحظة ! » .. وشعرت بتأثر عميق ، فربت بيدى فى رفق على كتف الخادم الوفى قائلا له : « دع هذه البقع حتى تجف فى الشمس ، واجمع حطام الأوانى المبعثرة .. ولسوف انتظر الآنسة ايلونا حتى تحضر » ، فاطلق جوزيف تنهدة ارتياح وقال : « ما اجمل ان يبقى سيدى الملازم !.. إن سيدى هر فون كيكسفالفا لن يلبث قليلا حتى يعود ، ولسوف يسر حين يرى سيدى الملازم . لقد ارادنى ان .. » .

وقبل ان يتم عبارته ، اقبلت ايلونا نحونا وهى تغض من بصرها ، وقالت لى : « كلفتنى اديث ان اسالك الذهاب إليها فى مخدعها لبضع دقائق فقط . وهى تؤكد انك تؤدى لها بذلك صنيعا كبيرا ! » .

وهبطنا السلم معا ، ثم سرنا صامتين خلال ممر طويل يؤدى إلى مخدع اديث .. وحين بلغنا الباب همست فى اذنى على عجل : « كن لطيفا معها .. لست اعلم ما حدث فى الشرفة ، لكنى الفت نوباتها هذه من قبل !.. وصدقنى انها اول من يندم عليها ويشقى بسببها ، من تأثير الخجل وتوبيخ الضمير .. ولعلنا نعذرها لو قدرنا كم تقاسى فى محنتها ! » .

ولم اجب بشىء ، بينما طرقت ايلونا الباب ، وإذ ذاك سمعنا صوتا واهنا من الداخل يقول : « ادخل » .. وكانت الغرفة غارقة فى ضوء برتقالى خافت ، وفى نهايتها فراش

رقدت فيه اديث ، وقد ابتدرتنى قائلة فى استحياء : « تعال وأجلس هنا بجانبى .. لن اعوقك غير لحظات ! » . ولما جلست بجانبها ، أردفت قائلة وهى تغض بصرها خجلا : « اغفر لى انى استقبلك هنا ، فقد شعرت بهزال ودوار شديدين ، ربما لأنى مكثت طويلا فى الشمس .. والواقع انى لم اكن فى كامل وعيى .. ولكنك ستنسى كل ما حدث ، وستغفر لى خشونتى معك ، اليس كذلك » .. وكان فى صوتها من التوسل ما جعلنى ابادر باجابتها فورا : « ما هذا! الذى تقولين ؟.. انا الذى استحق اللوم !.. ما كان ينبغى أن أدعك تطيلين البقاء فى الشمس ! » .

— أتعنى أنك لست غاضبا ؟ وسوف تحضر ثانية ؟!

— نعم ، هذا ما أعنيه ، ولكن بشرط واحد !

فسالتنى فى لهفة : « ما هو ؟ » .. فقلت : « أن تثقى بى ، وتكفى عن توهم الإساءة المزعومة لى .. إن ما بين الأصدقاء لأقوى كثيرا من أن يؤثر فيه أمر تافه كهذا !.. وليتك تعلمين مدى تغيرك حين تدعين نفسك على سجيتك فتضحكين وتمرحين ، كما فعلت يوم رحلتنا الأخيرة ! لقد قضيت تلك الليلة بأكملها أفكر فى التغير الذى طرأ عليك ، ولن ... » .. فقطعت كلامى قائلة : « ؟.. هل قضيت ليلة كاملة تفكر فى أمرى ؟ » .. فقلت : « نعم ، ولن أنسى ذلك اليوم قط .. كان رائعا بهيجا ! » .. فقالت : « نعم ، هذا صحيح ، وقد كان يوما رائعا حقا !.. ولعله ينبغى لى ان اكثر من الخروج فى رحلات كهذه .. فان البقاء داخل

Looloo
www.dvd4arab.com

جدران هذا « السجن » البغيض يرهق اعصابى .. آه لو ينتهى هذا السجن واسترد حريتى ..؟! » .. فقلت : « سينتهى قريبا ، فتذرعى بالشجاعة والصبر فترة اخرى من الزمن ! » .

وعندئذ رفعت جسمها قليلا فى الفراش وقالت : « أتعتقد مخلصا ، اعنى اتعتقد حقا أن هذا العلاج الجديد سوف يشفينى ؟.. لقد كنت واثقة من الأمر حين جاء أبى إلى غرفتى فى منتصف الليل اول من أمس ليبشرنى !.. لكن مخاوفى وشكوكى عاودتنى أمس من جديد ، فقد خيل إلى أثناء فحص الدكتور كوندور إياى أنه يذر الرماد فى عينى ، وأن الأمر كله خدعة !.. بل لقد بدا لى كأنه يروغ من مواجهتى ، وتنقصه الثقة بنفسه !.. إنه لم يكن صريحا صادقا كعادته ، ولست ادرى لماذا شعرت — فى موضع أو موضعين من حديثه — أن شيئا ما يخجله فى حضرتى !.. إنى اصارحك وحدك بهذا الشعور ، بصفة خاصة ، فلا تذكر له حرفا مما أقول .. فلعل الأمر كله محض شكوك مبعثها خيبة أملى المتكررة فيما طالما منونى به من شفاء قريب .. كلا !.. ما عدت أستطيع تحمل هذا الانتظار الرهيب ! » .

وكانت — فى انفعالها — قد رفعت جسمها فى فراشها إلى وضع يقرب من الجلوس ، وقد اخذت يداها ترتجفان ، فهتفت بها مناشدا : « كفى ، كفى !.. لا تعودى إلى انفعالك .. واذكرى انك وعدتنى ! » .. فقالت : « نعم ، هذا صحيح !.. ولا فائدة من تعذيب نفسى على هذه

الصورة !.. والواقع أنى لم أكن أعتزم التحدث فى هذا الأمر ، وإنما أردت أن أشكرك لكونك لم تغضب منى بسبب ثوراتى الحمقاء !.. ومن أجل لطفك معى الذى لا أستحقه .. وكلما فكرت فى انى .. ولكن دعنا ننسى هذا كله ! » .. فقلت لها : « هذا أفضل بالفعل !.. والآن يجب أن تنالى قسطا وافرا من الراحة » .

ثم نهضت لأصافحها وأنصرف ، فوقع بصرها على سترتى المبللة بآثار الشاى .. وكأنما أدركت أن الفعلة فعلتها ، فغضت من بصرها فى خجل وندم . وتأثرت لمسلكها ، فقلت لها مازحا : « إنه أمر تافه !.. طفلة شقية سكبت على الشاى ! » .

فقالت : « وهل أعطيت الطفلة الشقية « علقة » طيبة ؟ »

— كلا !.. فانها أحسنت التصرف بعد ذلك !

— إذن .. لم تعد غاضبا منها ؟

— البتة !.. وليتك رأيت طرفها وهى تسالنى الصفح ؟!

— وهل صفحت عنها ؟

— كل الصفح !.. ولكن عليها أن تبقى دائما طفلة مرحة ، طيبة ، مطيعة !.. فتصبر حين يقال لها « اصبرى » ، ولا تطيل الجلوس فى الشمس ، وتطيع تعليمات الطبيب بدقة .. كما أن عليها قبل كل شىء أن تنام فورا ، ولا تشغل ذهنها بشىء .. طابت ليلتك !

ومددت إليها يدى ، فبدت فى عي[illegible] إشراقة

Looloo
www.dvd4arab.com

السعادة الغامرة وهى تصافحنى ، لكنى لم أكد أضع يدى
على مقبض الباب حتى لاحقتنى ضحكتها المرحة ، الشبيهة
بضحكة طفلة عابثة ، وقالت لى « أنسيت ما تحصل عليه
الطفلة عادة قبل أن تنام ؟ » .. فوقفت والتفت إليها مغمغما
فى حيرة : « ما هو ؟ » .. فقالت : « إن الطفلة حسنة السلوك
تحصل عادة على « قبلة » قبل النوم ! » .

.. وكانت مفاجأة !.. لكنى برغم عدم ارتياحى لها ،
لم أشأ المخاطرة بتكدير صفو الفتاة وهى على أهبة النعاس ،
فقلت فى بساطة وعدم مبالاة : « بلا شك ! كدت أنسى ذلك ! »
.. وفيما أنا أخطو إلى فراشها ، أدركت من صمتها أنها
تحبس أنفاسها ، وكانت عيناها مثبتتين على وأنا أقترب ،
ورأسها جامد على الوسادة لا يتحرك .. فانحنيت فوقها
على عجل وطبعت على جبينها — فى رفق وخفة — قبلة
« طائرة » ، لم تكد شفتاى فيها تلمسان بشرتها ، بينما ملأ
خياشيمى من بعيد عطر شعرها الخفيف !.. لكنى فوجئت
بيديها تنطبقان على عنقى بكل قوتهما ، قبل أن أملك إبعاد
رأسى ، ثم فوجئت مرة أخرى بشفتيها تطبقان على شفتى
فى حرارة وشراهة ، حتى تلامست أسناننا .. بينما رفعت
صدرها حتى التصق بصدرى .. وكانت قبلة ضارية ،
يائسة ، ظامئة ، لم أذق مثلها فى حياتى !

وبقيت أديث متشبثة بعنقى وصدرى ، حتى خانتها
قوتها فخفت حدة عناقها لى ، وتحولت يداها فى نشوة محمومة
عن عنقى إلى شعرى ، وهى تحدق فى عينى كالمسحورة ، دون

أن تخلى سبيلى !.. وبعد أن استراحت هنيهة ، جذبتنى
إليها من جديد وأخذت تنثر قبلات حارة عمياء على وجنتى
.. وجبينى .. وعينى .. وشفتى ، فى شبق وحشى ، شأن
العاجز الذى يبغى التعويض عن عجزه ! وكانت وهى تجذب
رأسى نحوها تغمغم ملهوفة : « يا لك من غبى !.. لكم أنت غبى
كبير ! » ، بينما تزداد قبلاتها حرارة وعنفا وضراوة .. وأخيرا
هزت جسدها رعشة مفاجئة ، فتراخت يداها وسقط رأسها
إلى الخلف على الوسادة .. لكن عينيها لبثتا ترقبانى ببريق
الانتصار !

وفى النهاية ارتدت عنى وأخلت سبيلى وهى تهمس لى ،
فى إعياء وخجل : « والآن اذهب ، اذهب .. أيها الغبى
الكبير .. اذهب ! » .

وذهبت .. وأنا أترنح كالثمل !.. وقبل أن أبلغ
نهاية الممر المعتم ، خذلتنى البقية الباقية من قواى ، وأصابنى
دوار جعلنى أستند إلى الجدار ! إذن .. كان هذا سرها ..
سر قلقها ومسلكها المتناقض غير المفهوم ! وانتابنى إحساس
من انحنى فى غير ارتياب فوق زهرة زكية الرائحة ، فلدغته من
تحتها أفعى !.. فلقد كنت متأهبا لكل شىء إلا أن أرى هذه
الكسيحة التعسة قديرة على أن تحب ، راغبة فى أن يحبها
الرجال !.. وكنت على استعداد لأن أصدق كل شىء إلا أن
هذه المخلوقة العاجزة التى لم تنضج بعد ، تملك الجرأة — بل
النزق ! — على أن تحب وتشتهى ، بمثل تلك العاطفة المشبوبة
العارمة ! ولهذا توقعت كل احتمال إلا هذا الاحتمال !.. لكنى

Looloo www.dvd4arab.com

حين قلبت الأمر على وجوهه أصبت بصدمة جديدة ، إذ تبينت أن زياراتى المتكررة للفتـاة ، بدافع الشفقة وحدهـا ، هى المسئولة عن توهم المسكينة — القابعة فى سجنها المنعزل عن العالم الخارجى — إننى أكن لها عاطفة خاصة .. فى حين كنت — أنا الغبى الساذج — انظر إليها نظرتى إلى كسيحة معذبة ، أو بعبارة أخرى إلى طفلة ، لا امراة !.. وما خطر ببالى قط أن تحت غطائها وثيابها يتنفس ، ويشعر ، وينتظر ، جسد ظامىء مشتعل ، يشتهى ويتوق إلى ان يشتهيه الرجال ! وقد يكون جمال جسم ايلونا قد أستثارنى فى بعض الأحيان ، لكنى لم افكر قط فى اديث باعتبـارها انثى كاملة الأنوثة مثلها .. حتى فطنت اخيرا إلى الحقيقة التى اغفلها اكثر الكتاب الذين صوروا الحب فى قصصهم : وهى ان المنبوذين ، والمشبوهين ، والأشقياء فى حياتهم عامة ، يشتهون ملذات الجسد بشراهة اعنف وأخطر مما يشتهيها السعداء !.. وانهم حين يحبون ، يكون حبهم عنيفا ، يائسا ، مهلكـا ، « اسود » .. كأنمـا يشعرون بأن ليس هنـاك ما يبرر وجودهم إلا أن يحبـوا ، ويحبهم الناس !

نعم ، وهكذا ترتفع من أعمق أعماق هاوية اليأس ، اشد تأوهات الظامئين إلى الحب ؟.. ذلك هو السر الرهيب الذى حجبته عن إدراكى — فيما مضى — سذاجتى ونقص تجاربى ، ثم شعـرت به اخيرا يخترق وعيى مثل سكين حـادة !.. وأدركت لم تقنز لفظ « غبى » إلى شفتى الفتاة فى غمرة ثورتها العاطفية ، وهى تضغط صدرى بصدرها ! لقد كانت محقة فى

ان تطلق على هذا الوصف .. وهل انا غير غبى ؟!.. اكبر الظن ان أهل الفتاة جميعا : أباها ، وايلونا ، وجوزيف ، وبقية الخدم ، قد لاحظوا تعلقها بى وراقبوا شغفها المكتوم فى كثير من القلق ، وانا وحدى الذى أعمتنى شفقتى الحمقاء عن إدراك الحقيقة ، فمضيت فى تعذيب هذه الروح الرقيقة .. دون ان أدرى !

وكما تضىء ومضة النور الخاطفة عشرات الأشياء التى تقع عليها ، فى آن واحد ، أضاءت قبلات الفتـاة المحمومة عشرات من الأمور الصغيرة ، كانت غامضة على طيلة الأسابيع السابقة : أدركت فجاة علة استيائها كلما ناديتهـا بقولى : « يا طفلتى العزيزة » ، فقد كانت تتوق إلى ان أعتبرها امراة ، واهفو إليها كمعشوقة !.. كذلك فهمت سبب ثورتها كلمـا لمست منى تصرفا ينم عن الشفقة ، فقـد ادركت المسكينة بغريزة المراة ان الشـفقة شعور أقرب إلى الأخوة منـه إلى الحب الحقيقى !.. وكـم تاقت المسـكينة ولا ريب إلى ان تسمع منى كلمة أو إشـارة رقيقة تنبىء عن اسـتجابتى لعاطفتها ، او إحساسى بها على الأقل .. ولكن دون جدوى ! .. وكم الهبها القلق واللهفة ، واضناها الانتظار .. ولكن بدلا من ان اروى ظماها الطويل ، او ابتعد من طريقها فادع لهـا فرصة النسيان ، بقيت أغذى عاطفتها — من حيث لا أشعر — واضاعف من قلقها وعذابها ، بزياراتى اليومية المتكررة !.. إذن لم يكن عجبا ان تنهار أخيرا أعصابها ، وتنفجر عواطفهـا الكظيمة على تلك الصورة التى فوجئت بها ..

Loolo
www.dvd4arab.com

وتتابعت مئات الصور والخواطر والكلمات ، متسابقة إلى ذهنى فى غير انتظام ، وأنا أجر ساقى عبر الممر الطويل المعتم المؤدى إلى الردهة الكبرى ، حيث تركت سيفى وقبعتى .. وخطر ببالى أن الوذ بالفرار قبل أن يتنبه أحد إلى خروجى من مخدع الفتاة ، خشية أن ترى على وجهى آثار الاضطراب .. لكن ما خشيته وقع ، فقد خرجت إلى « ايلونا » من الصالون ــ وكأنما كانت تنتظرنى هناك ! ــ ولم يكد بصرها يقع على حتى ابتدرتنى فى جزع :

ــ ماذا حدث ؟.. هل أصيبت اديث بمكروه ؟

فأجبتها بما وسعنى من جهد : « كلا ! بل هى الآن على ما يرام ، ولعلها قد نامت » ، ثم أردفت قائلا : « لا تؤاخذينى! .. يجب أن أنصرف دون إبطاء ! » .. لكنها لاحظت على ولا ريب ما ازعجها ، فقد استوقفتنى فى حزم ودفعتنى إلى اقرب مقعد مريح ، وهى تقول : « اجلس قليلا حتى تسترد هدوءك .. وتصلح من هيئتك .. الا ترى شعرك المشعث ؟ .. سأحضر لك كأسا من الكونياك ! » .

واتجهت إلى البار فملأت لى منه كأسا ، جرعت ما فيها مرة واحدة ثم وضعتها جانبا بيد مرتعشة .. وبقينا هنيهة صامتين ، وايلونا تختلس النظر إلى فى حذر وقلق ، كما لو كنت مريضا ! ثم قالت أخيرا : « هل ذكرت لك اديث شيئا .. أعنى شيئا يتصل بك ؟ » .. وادركت من لهجتها انها فهمت كل شىء ، فغمغمت : « نعم ! » . وعادت تسألنى بعد تفكير : « الم تلحظ ذلك حقا قبل الآن ؟ » .. فاندفعت اجيبها :

« وكيف كان يمكن أن تكون لدى ادنى فكرة عن شىء مثل هذا ؟ .. شىء جنونى ، لا يقبله العقل ؟.. كيف أمكنها أن ..؟.. ولم أكون أنا .. دون الناس جميعا ؟ » .

وعندئذ تنهدت ايلونا وقالت : « يا إلهى !.. لقد طالما ظنت المسكينة انك تأتى خصيصا من اجلها .. وكنت انا ارجح انها على خطأ ، واستنتج من تصرفاتك معنا ، فى بساطة وغير كلفة ، انك لا تحس نحوها غير الشفقة . ولكنى ما كنت لأقوى على ان اقسو على طفلة مثلها فأحرمها من الوهم الجميل الذى يسعدها ، فى الوقت الذى خلت فيه حياتها من أسباب السعادة ! » .. وهنا وجدتنى اقول لها وقد بدأت أقدر خطورة الأمر : « ينبغى ان تبددى هذا الوهم قبل أن يستفحل! .. إنه جنون منها ، حمى ، نزوة صبيانية !.. ولعله لا يعدو أن يكون شغفا بالسترة العسكرية.. ولو أنها صادفت غدا ضابطا آخر فسوف تتكرر القصة .. أوضحى لها ذلك .. وفى مثل سنها يمكن التغلب على هذه الأزمات فى وقت وجيز ! » .

لكن ايلونا هزت رأسها فى اكتئاب وأسى قائلة : « كلا يا صديقى العزيز !.. لا تخدع نفسك !.. إن الأمر بالنسبة لاديث جد خطير ، وهو يزداد خطرا كل يوم .. ولو عرفت ما يجرى فى هذا البيت منذ حين لآمنت برأيى : إنها توقظنا بجرسها مرات كل ليلة ، لكى تسألنا فى لهفة : « ألا تعتقدون انه يحبنى ، ولو قليلا ؟ » .. ثم تطلب أن نأتى لها بالمرآة لترى وجهها !.. لكنها لا تلبث أن تلقيها بعيدا .. وكأنها تنبهت فجأة

Looloo www.dvd4arab.com

إلى مدى حماقتها .. ومع ذلك لا تنقضى ساعتان ، حتى تتكرر القصة !.. وفى نوبات يأسها تستجوب اباها ، وجوزيف ، والخادمات .. وأمس ارسلت فى طلب تلك « العرافة » الدجالة التى قابلناها فى عرس القرية ، كى تستمع لاكاذيبها مرة بعد مرة .. بل لقد كتبت إليك خمسة خطابات ، ثم مزقتها قبل أن ترسلها !.. وكم من مرة كلفتنى أن اذهب فابحث عنك وأسالك : « هل تحبها ، وإلى أى مدى ؟ » .. ولم اكد افرغ من ارتداء ثيابى ، ويعد السائق السيارة للخروج ، حتى أسمع جرسها اللحوح يدعونى مرة أخرى لتستحلفنى بكل عزيز الا أذهب !.. وفى كل ليلة ، لم تكن انت تنصرف حتى تعيد هى على مسمعى كل كلمة قلتها لها ، وكل إشارة بدرت منك ، وتسألنى رأيى فى مدلول هذه ، ومغزى تلك .. فاذا ايدت ظنونها الطيبة ، صرخت فى وجهى: « انت كاذبة ! هذا غير صحيح ! إنه لم يوجه إلى اليوم اية عبارة رقيقة ! » .. ثم تتكرر اسئلتها وإجاباتى ، وثوراتها ورضاها ، ويأسها وأملها .. كل ساعة من ساعات يقظتها فى النهار أو الليل !.. ومنذ « أصيبت » بهذه الحالة بات « مرضها الجديد » شغل أبيها الشاغل ، وصار يصحبها كل ليلة إلى مخدعها كى يجلس إلى فراشها ساعات ، يهدئها ويلاطفها ، حتى يغلبها النعاس آخر الأمر .. وعندئذ يمضى إلى غرفته ، كى يذرعها حائرا مفكرا اكثر الليل !.. آه لو علمت كم يحبك التعس ؟! إنه يكاد يعبدك !.. فهل تريد ان تقول إن هذا كله جرى دون ان تلحظ منه شيئا ؟! » .

وهنا صحت قائلا فى نوبة يأسى البالغ : « كلا !.. إنى لم احس شيئا من ذلك مطلقا !.. والا فهل تحسبيننى كنت أواصل زياراتى فى غير كلفة ، لو كانت فى ذهنى أدنى فكرة عن شىء كهذا يجرى فى البيت ؟.. وكيف كان يمكن لمثلى ان يفكر فى « جنون » من هذا القبيل ؟.. كلا !.. كلا !.. واقسم لك ! » .. وكدت اقفز من مقعدى حيرة واضطرابا ، لولا ان امسكت ايلونا ذراعى قائلة : « ارجو أن تهدأ ، واخفض صوتك ، فان لاديث آذانا تخترق الجدران .. ثم عدنى بأن تكون رحيما بها .. لقد تفاءلت المسكينة بكونك انت الذى جلبت نبأ العلاج الجديد .. وليتك رايتها وأباها وهما يجهشان بالبكاء والشكر لله من اجل شفائها المرتقب ، ونهاية ايامها السوداء !.. لقد كان أول ما فكرت فيه انك — حين تشفى هى — لن تتردد فى .. انك تفهم قصدى !.. لذلك ينبغى الا تلقى بالتعسة فى هاوية اليأس ، فى هذا الظرف الذى هى محتاجة فيه إلى كل قوتها النفسية كى تباشر العلاج الجديد ! » .

.. لكنى صحت فى جنون اليائس ، وانا اضرب ذراع المقعد بقوة : « كلا .. كلا! لا استطيع!.. لن ادعها تحبنى على هذه الصورة ، ولن أستطيع تجاهل الأمر والمضى فى مسلكى القديم .. هذا مستحيل !.. إنك لا تعرفين ما حدث فى غرفتها ، إنها واقعة تحت تاثير خطأ شنيع فيما يتصل بى ! إنى لم أشعر نحوها بغير الشفقة .. الشفقة وحدها ولا شىء غيرها ! »

.. فتنهدت ايلونا ثم قالت : « هذا ما خشيته منذ البداية ! ولكن ، رباه !.. ماذا عساه يحدث الآن ؟.. كيف ننهى إليها الحقيقة ؟ » .

وساد الصمت بيننا فترة ، وقد أدرك كلانا حرج الموقف .. وفجاة سمعنا صوت سيارة كيكسفالفا تقف امام الباب ، فهتفت ايلونا : « يحسن الا تقابله الآن وأنت منفعل .. سأحضر لك سيفك وقبعتك كى تخرج من الباب الخلفى » .. وبعد لحظات كنت أغادر البيت متسللا ، كلص يستخفى فى الظلام !

الفصل الحادى عشر

جحيم .. الحب المرفوض !

كنت فيما مضى من شبابى أعتقد ان أشواق الحب وآلامه أفظع عذاب يمكن أن يصيب القلب البشرى !.. لكنى فى تلك الليلة بدأت أدرك أن هناك عذابا أمر من عذاب الشوق والاشتهاء ، هو عذاب من يجد نفسه محبوبا برغم إرادته ، من امرأة تتلظى بنيران الرغبة ، وهو عاجز عن تخليصها من وسط النيران ! إن الشخص الذى يصاب بالحب قد يستطيع السيطرة على عاطفته فى بعض الأحيان ، وذلك لأنه هو نفسه خالق بؤسه ، وقد يعجز عن هذه السيطرة لكنه على الأقل يعرف أنه المسئول عن آلامه .. أما « المحبوب ، غير المحب » فضائع لا خلاص له ، لأنه لا يستطيع ان يضع حدا لعاطفة عاشقه ، وحدة رغبته !.. ولعل الرجل اقدر من المراة على إدراك مدى قسوة هذه المأساة ، لأن المراة التى تصد حبا غير مرغوب فيه ، إنما تطبع قانون جنسها ، الذى يعتبر الصد او الرفض أمرا غريزيا فى الأنثى ، لا يمكن ان تتهم من ورائه

بمجافاة الشعور الإنسانى !.. أما حين يقلب القدر الموازين ، فتجرؤ امراة على مغالبة جمودها الطبيعى إلى حد التصريح لرجل بأنها تحبه ، قبل أن تستوثق من أنه يبادلها الحب ، بحيث نراها تعرض عليه حبها ، فيصدها هو بقلب بارد .. فان المسألة تتعقد وتصبح مأزقا يصعب الفكاك منه !.. لأن الرجل الذى لا يبادل عاشقته عاطفتها إنما يمزق كبرياءها ، وهو حين يقابل تقربها منه وتوددها إليه ، بالنفور والاعراض ، إنما يطعنها فى أعز مشاعرها وأنبلها .. وعبثا تكون عندئذ كل رقته وأدبه فى التنصل منها ، بل إنه ليهينها إن عرض عليها صداقته الخالصة ، بعد أن تكون قد كشفت له ضعفها .. فانها تعد ذلك منه جريمة خطيرة ، وقسوة بالغة !

كيف لا وهو قد علم أن هناك امراة تنتظره ، وتفكر فيه ، وتشتاق إليه ، وتتنهد من اجله ليل نهار !. بل علم انها تريده وتشتهيه بكل خلية وعصب فى كيانها ، بجسدها ، بدمها !.. تريد يديه ، وشعره وشفتيه ، ورجولته ، وليله ونهاره ، وعواطفه وحواسه ، وجميع أفكاره وأحلامه !.. تريد أن تشاطره كل شىء ، وتأخذ منه كل شىء ، تنهله نهلا مع أنفاسها .. وسواء أكان يقظان أم نائما فهى يقظى محمومة ، تنتظره وتحلم به !.. وعندئذ يكون من العبث الظالم أن تحاول عدم التفكير فى المرأة التى تفكر دائما فيك ، أو تحاول الفرار ممن استوعبتك فى دمها ذاته ، فانها تحملك معها ، بل فيها ، أينما ذهبت هى وحيثما ذهبت أنت ! تحملك سجينا فى أعماقها ، فاذا بك تحس تفكيرها ، وحنينها إليك ، وعذابها بسببك ،

www.dvd4arab.com

كما لو كان ذلك كله نارا تلتهمك ، وتملؤك بغضا وخوفا !.. إنها لأفظع محنة ، لا فكاك منها ، يمكن ان تصيب رجلا : ان يجد نفسه محبوبا برغم إرادته !.. إنه عذاب يفوق كل عذاب ، وعبء على الضمير لا يبرره أبشع إثم !

وهكذا وجدتنى اواجه هذا الحب اليائس ، فاعانى من شفقة مزدوجة : شفقة على الفتاة التى تقاسى نار حب مرفوض ، وشفقة على نفسى التى تقاسى صد تيار حب مفروض .. لكن نصيبى من هذا البؤس المزدوج المقسوم كان اثقل النصيبين ، فلئن كان اختلاف رجاء امرأة فى حبها يعد قسوة ووحشية ، فكم بالأحرى يكون رفض حب هذه الفتاة التعسة الكسيحة ، الملتهبة العاطفة ، وطعنى شعورها بعد ان طعنتها الحياة قبلى فى الصميم ، طعنة نجلاء ؟ !

وهكذا لم يخف على انى — بالتنصل من حب هذه الصبية الغريرة — قد اعرض حياتها وعقلها للخطر .. وانى إن لم « اتظاهر » ، على الأقل ، بالاستجابة لعاطفتها — ما دمت عاجزا عن الاستجابة لها حقا — فانى إنما ارتكب بذلك ، برغمى ، جريمة بشعة نكراء !

على انى — لسوء الحظ — لم يكن لى فى الأمر خيار !.. وفى اللحظة الرهيبة التى انتزعت فيها جسمى من بين ذراعى عاشقتى ، لأتخلص من عناقها العنيف، ادركت بغريزتى — قبل ان ادرك بعقلى — اننى لن اقوى مطلقا على ان احبها كما تحبنى ، بل لن اجد فى قلبى حتى من الشفقة ما يكفى لكى اتحمل

عاطفتها الثقيلة الوطأة .. ومن هنا قدرت منذ البداية ان لا مخرج من هذا المأزق الرهيب ، ولا حل لهذه المشكلة المعقدة ، وان احدنا او كلينا لابد سيشقى بذلك الحب العقيم !

وصلت إلى قلب البلدة فى ذلك الأصيل وانا لا ادرى كيف وصلت !.. كل ما اعرفه انى سرت فى طريقى مسرعا ، وفكرة واحدة تنبض فى عقلى مع كل نبضة من قلبى : بعيدا ! بعيدا ، بعيدا عن هذا البيت ، بعيدا عن هذا المأزق ، لذ بالفرار ، اهرب ، اختف ! لا تطأن قدمك عتبة هذا المنزل ، ولا تعد لرؤية هؤلاء الناس .. اختبئ لا تدع أحدا يراك ، ولا تقيد نفسك بشئ إزاء اى مخلوق ، ولا تعط الفرصة لإنسان كى يوقعك فى فخ !.. بعيدا .. بعيدا !.. بعيدا !

.. ومن الغبار الذى كسا حذائى ، والتمزقات التى احدثتها الشجيرات الشائكة فى ملابسى ، ادركت فيما بعد اننى اخترقت حقولا واحراشا ، ودروبا وازقة .. حتى وجدتنى عند بداية الطريق الرئيسى والشمس الغاربة توشك ان تختفى خلف قمم المبانى .. فمضيت كالنائم الذى يسير فى نومه ، ثم إذا بى افاجأ بيد تربت على ظهرى !.. وما كدت التفت حتى وجدت نفسى امام اربعة من زملائى الذين اعتادوا قضاء الأمسيات معى فى المقهى .. وابتدرونى قائلين إنهم بحثوا عنى فى كل مكان كى يبلغونى أن ضباط الفرقة جميعا مدعوون لتناول العشاء فى الساعة الثامنة والنصف على مائدة « بالنكاى » !.. وتذكرت أخيرا من يكون بالنكاى صاحب هذه الدعوة ! إنه ضابط سابق من ضباط الفرقة كان قامرا !

Looloo www.dvd4arab.com

عربيدا فطرد من الخدمة العسكرية ــ بعد حادث يؤسف له ، لم أعرف تفصيلاته ــ ومضى يضرب فى الأرض .. حتى التقى فى فندق « اكسلسيور » فى القاهرة بأرملة هولندية ثرية تملك خطا للملاحة ، تسير عليه سبع عشرة سفينة ، ومزارع شاسعة فى جزر (جاوة) و (بورنيو) بالشرق الأقصى .. فخلب لبها وتزوجها !.. ومنذ ذلك التاريخ وهو لا يفتأ يرسل الهدايا لضباط فرقته القديمة ، فى الأعياد والمناسبات ، ويزور المعسكر كلما مر بالنمسا خلال رحلاته الطويلة لتفقد أملاكه ، فيقيم لزملائه القدامى مأدبة ينفق عليها ببذخ خيالى ، يظل حديث أهل البلدة بعد ذلك لأسابيع !

وحاولت ان أزوغ من حضور الحفلة ، ملتمسا لذلك شتى المعاذير ، لكن زملائى الأربعة اخذوا بيدى إلى حيث تقام ، فشاركت مضطرا فى إعداد العدة لاستقبال الضيوف الغرباء عن الفرقة ، من كبار الشخصيات ، حتى اقترب موعد وصولهم فتركنى الزبانية الاربعة كى اسرع إلى غرفتى فاغسل وجهى وابدل ثيابى ، ثم اعود قبل بدء الاحتفال . وفيما انا أصفف شعرى أمام مرآتى الصغيرة ، وقد تجردت إلا من ثيابى الداخلية .. دخل تابعى يحمل فى يده خطابا لى ، فى مظروف سميك أزرق .. ولم اكن فى حاجة إلى تأمل الخط الذى كتب به اسمى عليه ، كى أعرف شخصية كاتبه !

وهمس فى أعماقى صوت محذر : « فيما بعد ، فيما بعد .. لا تفضه الآن ! لا تقراه الآن ! » .. لكنى ــ برغم كل تحذير عقلى الواعى ــ فضضت الخطاب وقراته !.. كان مؤلفا من

ست عشرة صفحة ، وقد كتب فى عجلة ظاهرة ، بيد مضطربة .. وهو من ذلك النوع الذى لا يكتبه المرء أو يتلقاه ، أكثر من مرة فى حياته !.. كانت عباراته متلاحقة فى استطراد فياض ، لا تتخللها فواصل او نقط تقسمها إلى عبارات وفقرات .. وكأنها الدم يتدفق من جرح مفتوح !.. وبرغم مضى سنوات وسنوات على ذلك التاريخ ، أستطيع الآن ان اذكر كل سطر من ذلك الخطاب ، بل كل حرف !.. استطيع ان أتلوه عن ظهر قلب ، صفحة صفحة ، من البداية إلى النهاية .. وذلك من كثرة ما قراته واستعدته !.. حتى لقد بقيت شهورا احمله معى أينما كنت : فى البيت ، والمعسكر ، والشارع ، والقطار ، وفى الخنادق أثناء الحرب .. حتى أصيبت فرقتنا فى إحدى المعارك بهزيمة منكرة ، فاضطررت إلى تمزيقه ــ وقلبى يتمزق ــ خشية أن يقع فى أيد غريبة !.. وكان نصه كما يلى :

« لقد كتبت إليك قبل الآن ستة خطابات ، مزقتها كلها قبل أن ارسلها .. فانى لم ارد أن اطلق العنان لنفسى كى اكشف سترى ، بل آثرت أن اكتم ما بى ، ما بقيت لى قدرة على المقاومة !.. جاهدت أسابيع واسابيع كى اخفى مشاعرى عنك .. وفى كل مرة جئت فيها تزورنا فى ود وبراءة ، كنت اقهر يدى على ان تجمدا ، ونظرتى على ان تظهر عدم المبالاة ، حتى لا أزعجك !.. بل لقد عاملتك فى بعض الأحيان بخشونة واحتقار ، كى لا تخالجك أدنى شبهة فى شىء مما ما أعانيه من أجلك !.. حاولت كل ما فى وسع كائن بشرى أن يفعله ، واكثر

Loofoo www.dvd4arab.com

مما فى وسعه .. لكن الواقعة وقعت اليوم ، وأقسم لك إنها
دهمتنى برغم إرادتى ، وفاجأتنى على حين غـرة . انا نفسى
لا أعرف كيف أمكن ان ادع شيئا كهذا يحدث ، حتى لقد كدت
بعد حدوثه أن اضرب نفسى ، عقابا لها ، من فرط الخجل
اليائس الذى انتابنى !.. إننى اعلم يقينا مدى الجنون
والحماقة فى أن افرض نفسى عليك .. فان المخلوقة العرجاء
الكسيحة ، مثلى ، لا حق لها فى ان تحب .. وهل يمكن ان
اكون إلا عبئا ثقيلا عليك ، أنا المحطمة التعسة التى ترى
نفسها موضعا للاشمئزاز والكراهية ؟!.. وإذا كانت مخلوقة
مثلى لا حق لها فى أن تحب ، فهى من باب أولى لا حق لها فى
أن يحبها أحد !.. وما يخلق بها إلا ان تزحف بعيدا إلى ركن
قصى لتموت ، وتكف عن ان تثقل على الآخرين بوجودها !..
نعم ، كل ذلك أعرفه حق المعرفة ، ولهذا اجدنى فى هذه
الحياة روحا ضائعة !.. وما كان ينبغى لى أن اجرؤ على ان
القى بنفسى عليك ، ولكن من سواك أدخل إلى قلبى الأمل فى
الا ابقى حياتى كلها فى الحالة التعسة التى انا فيها الآن ؟..
ومن غيرك أدخل فى روعى أن فى مقدورى ان اتحرك وامشى ،
مثل غيرى من الناس .. مثل الملايين من البشر الذين لا يدركون
أو يقدرون أن كل خطوة يخطونها على ارجلهم بلا عائق ، انما
هى نعمة مباركة مجيدة ؟!.. وكنت قد صممت تصميما صارما
على أن الوذ بالصمت ، حتى تحل حقا تلك اللحظة المرموقة
التى أصير فيها مخلوقة بشرية حقة ، يحتمل أن تكون جديرة بك
أيها الحبيب .. لكن لهفتى ، وظمئى إلى الشفاء ، بلغا من

القوة — فى تلك اللحظة التى انحنيت فيها على — بحيث
اعتقدت حقا وصدقا ، بضمير خالص نقى، وغباء مطلق أحمق،
أنى قد شفيت ، وصرت تلك المخلوقة الأخرى ، الجديدة
السليمة !.. ذلك لأنى — كما تعلم — قد طالما اردت ذلك
وحلمت به .. فلما لمستنى ، وشعرت بك قريبا منى فى تلك
اللحظة ، كما لم تقترب منى من قبل ، نسيت ساقى المهيضتين،
لم اعد اشعر بنفسى إلا كما أردت ان اكون من اجلك !.. الا
تستطيع أن تفهم كيف ينسى الإنسان نفسه لحظة فى حلم من
احلام اليقظة ، إذا كان قد حلم به على التوالى دون غيره ليل
نهار ، عاما بعد عام ؟!.. صدقنى أيها الحبيب ، إن ذلك
الوهم الأخرق بأنى تحررت من عجزى ، هو الذى صعد إلى
راسى فأثملنى .. وأن شوقى الملهوف إلى الا أبقى كسيحة
منبوذة ، هما وحدهما اللذان جعلا قلبى ينساق معى فى هذا
الجنون .. فهلا فهمتنى ، لقد اشتقت إليك طويلا ، شوقا بدا
كأن ليست له نهاية !

« لكنك الآن تعرف من كان ينبغى الا تعرفه إلا يوم استطيع
أن اقف على قدمى .. وتعرف من هو ذلك الذى من اجله
وحده — دون سواه من سكان هذه الأرض — اريد ان اشفى
إنه أنت وحدك لا سواك ! فاغفر لى يا حبيب قلبى هذا
الحب !.. وقبل كل شىء ، استحلفك واتوسل إليك
الا تخشانى أو تنفر منى ! لا تحسب أنى — لأنى كنت معك
يوما ملحاحة ملحفة — سوف ازعجك مرة أخرى ، أو احاول
التشبث بك .. كلا ! اقسم لك أنك لن تجدنى يوما افرض

Loolo www.dvd4arab.com

نفسى عليك ، بل سأسعى جاهدة كى أخفى عنك مشاعرى . ولست أبغى غير أن انتظر ، وأنتظر صابرة ، حتى يرحمنى الله فيشفينى . ومن ثم أتوسل إليك يا أعز الناس على الا تخشى حبى ، وارجو ان تذكر — وانت الذى اشفقت على كما لم يشفق على احد قبلك — كم انا عاجزة ابشع العجز ، مقيدة إلى مقعدى ، محرومة من القدرة على ان اخطو خطوة واحدة، بل من القدرة على ان اتبعك واندفع وراءك حيثما تذهب !.. نعم أرجو أن تذكر انى « سجينة » عليها ان تنتظر فى سجنها فى صبر نافد ، حتى تأتى أنت وتتفضل عليها بساعة من وقتك .. وتسمح لها بان تنظر إليك وتسمع صوتك، وتعلم انك تتنفس الهواء الذى تتنفسه هى ، وتحس وجودك قريبا منها .. إلى آخر مظاهر السعادة التى منحتها إياها !.. اذكر كل هذا وصوره لنفسك . اذكر اننى طالما انتظرتك نهارا وليلا ، وكانت كل ساعة تمتد وتطول إلى ما لا نهاية ، حتى تثقل وطأة الانتظار على الأعصاب ، ويصير عسير الاحتمال .. فاذا ما جئت آخر الأمر ، لم أستطع ان اخف للقائك ، او اعانقك واحتضنك ، بل وجدت نفسى مضطرة إلى ان ابقى فى مكانى واسيطر على شعورى ، وألوذ بالصمت .. حذرة فى كل كلمة أقولها ، وكل نظرة انظرها ، وكل نبرة من صوتى ، حتى لا ترتاب انت فى أنى « اجترىء » على ان احبك !.. ومع ذلك، أيها المحبوب ، كنت قانعة بهذه السعادة المريرة المتواضعة .. وكنت اغبط نفسى كلما نجحت فى كبت مشاعرى .. وهكذا بقيت انت حرا طليقا ، جاهلا بحبى ، غير مرتاب فى شىء ..

بينما كنت انا اتعذب بسبب تورطى اليائس فى الوقوع تحت تأثير سحرك !

« لكن المحظور قد وقع !.. ولم يعد فى إمكانى الآن أن انكر او اخفى شعورى نحوك أيها المحبوب ، فرجائى إليك الا تقسو على : إن احقر المخلوقات — كما تعلم — لها كبرياؤها ، وانا لن اتحمل ان تحتقرنى لكونى عجزت عن قمع عاطفة قلبى !.. لكنى — واقسم بالله ، القادر وحده على ان يضمد جراحى وينقذنى — اننى لا انتظر منك ، أن تبادلنى الحب ، فلست أجرؤ على أن أتوقع منك ذلك ، حتى ولا فى احلامى .. كما لا أبغى اية تضحية من جانبك ، أو شفقة !.. كل ما أسألك إياه أن تدعنى أنتظر ، فى صمت ، والا تردنى عنك ردا عنيفا حاسما !

« وانا اعلم ان طلبى هذا قد يكون مغالاة من جانبى ، وطمعا ، ولكن .. هل أنت حقا تستكثر على كائن بشرى ان تمنحه هذه الجرعة التعسة من السعادة — التى يمنحها الإنسان راضيا لأى كلب ! — سعادة النظر بين حين وآخر، فى صمت ومذلة ، إلى سيده ؟.. وهل يلزم ان تدفعه بعيدا عنك فى عنف ، وتطرده بسوطك فى احتقار ؟!.. ان الشىء الذى لا طاقة لى به على الاطلاق ، هو أن يكون إفصاحى لك عن حبى ، مرغمة ، سببا فى نفورك واشمئزازك منى ، او سببا لمعاقبك لى — (فيكفى عقابا لمثلى ، هذا الخجل الذى استشعره من نفسى ، وهذا اليأس الذى اعانيه) — وإلا

loolo www.dvd4arab.com

فلن يبقى لى ، فى هذه الحالة ، غير مخرج واحد انت تعرفه، لانى اريتك إياه !

« ولكن كلا ، لا تنزعج ، فلست اريد ان اهـددك ، او اخيفك ، فأنتزع منك الشفقة بدلا من الحب ! وإنما اريدك ان تشعر بانك حر تماما ، لا يثقلك اى التزام . والله يعلم انى لا ابغى ان اثقل عليك بالعبء الذى احمله ، او احملك إثما انت منه برىء .. وانما كل ما اطمع فيه هو ان تغفر لى ما حدث وتنساه ، بل تنسى كل ما بحت لك به ! إن كلمة واحدة منك تكفينى .. كلمة افهم منها انى لم اصبح كريهة فى نظرك ، ثقيلة عليك .. وانك ستظل تأتى لزيارتنا ، كأن شيئا لم يحدث !.. انك لا تتصور إلى اى مـدى اخاف ان افقـدك .. فمنذ تلك اللحظة التى اغلقت فيها الباب خلفك ، وانا فى فزع مروع من ان تكون تلك آخر مرة اراك فيها !.. إنك كنت شاحب الوجه، وفى عينيك نظرة رعب اثلجت اطـرافى فجاة ، وانا فى قمـة نشوتى !.. وقـد علمت انك غادرت البيت على اثر ذلك — اخبرنى بذلك جوزيف — فشعرت بانك فررت منى ، كما يفر الإنسان من وباء مخيف !.. ولكنى لا الومك ايها المحبوب !.. لانى انا ذاتى اتراجع مذعورة من نفسى كلما رايت الأثقال التى تنوء بها ساقاى ، ثم لانى أعلم بشاعة الحالة التى اكون فيها حين تثور اعصابى ! نعم ، انا احق الناس بان افهم لماذا يفر الناس منى مذعورين !.. على انى برغم ذلك اتوسل إليـك أن تصفح عنى ، فـلا ليل لى ولا نهار بغيرك ، وإنمـا ياس مطبق !.. فلترسل إلى كلمة قصيرة تطمئننى ، كلمة تكتبها

على عجل ، او حتى ورقة بيضاء ، او زهرة ، او اى شىء افهم منه انك لن تنبذنى ، ولن تعـافنى نفسـك !.. ولا تنسى انى فى خلال بضعة ايام سوف اسافر لاغيب شهورا ، وبذلك يبلغ عذابك نهايته — وإن كان عذابى انا سوف يتضاعف الف مرة ! — لكنى استحلفك أن تفكر فى نفسك فقط ، كما افكر انا دائما فيك وحدك !.. انك فى خـلال اسـبوع سوف يطلق سراحك ، فتعال مرة اخرى .. زرنا كما كنت تفعل .. وفى انتظار ذلك ، ارسل إلى كلمة عاجلة ، أعطنى إشارة مطمئنة .. فلست استطيع ان افكر ، او اتنفس ، او اشعر ، حتى أعلم انك غفرت لى !.. ولن استطيع ان اعيش ، إذا انكرت على حقى فى ان احبك ! »

* * *

قرات الخطاب ، واعدت قراءته من البداية مرة ومرات ، ويدى ترتعش ، ونبضات قلبى تدق صدغى بقوة .. وقد نال منى الذعر ، بل الفزع من هـذا الغرام اليائس !.. وفجـاة تنبهت على وقع يد تربت على ظهـرى . وكانت يـد أحـد « الزبانية الأربعة » — زملائى فى الفرقة — وقد لحظ تأخرى فجاء يتعجل عودتى إلى الحفلة ، وابى ان يغادر الحجـرة إلا وذراعى فى ذراعه ، بعد ان وضعت الخطاب فى جيب سترتى العسكرية ، لصق صدرى .

ووصلنا فى الموعد المناسب ، قبل حضور الرؤسـاء وكبار المدعوين ، وسرعان ما التام الجمع حول مائدة العشاء الكبرى،

Laolao www.dvd4arab.com

وارتفع الضجيج والثرثرة وصخب حركة الكؤوس والأطباق والملاعق والسكاكين !.. وجلست صامتا وسط زملائى المرحين ، أتحسس خلسة بين حين وآخر شيئا ينبض تحت سترتى ، كقلب ثان ، ويحدث مثل فرقعة النار التى أضرمت حديثا . نعم إنه هناك ، يتحرك وينبض على صدرى ، ككائن حى !.. وفيما كان الآخرون منهمكين فى طعامهم وشرابهم فى مرح ونشوة ، لم أستطع أنا أن أفكر فى غير الخطاب الراقد فوق قلبى ، والصرخة اليائسة التى أطلقتها كاتبته فيه !

ولم آكل شيئا مما وضع أمامى . كنت كالنائم وعيناه مفتوحتان ، وكانت أحاديث الجالسين إلى يمينى ويسارى تصل إلى سمعى دون أن أفهم كلمة منها ، وكأنهم يتحدثون بلغة أجنبية !.. ورأيت أمامى وإلى جوارى : وجوها ، وشوارب ، وعيونا ، وأنوفا ، وشفاها ، وسترات عسكرية.. لكنى رأيتها جميعا فى غير وضوح ، كما ترى الأشياء من خلال واجهة زجاجية لمتجر .. كنت هناك بجسمى فقط ، جالسا بغير حراك ، بينما ذهنى كله منصرف إلى ذلك الخطاب ، وشفتاى تتمتمان فقرات من محتوياته ، كما يتمتم العابد دعاء أو صلاة !

ثم وقف قائد الفرقة خطيبا ، وبدأ يلقى خطابه المعد من قبل ، فأصغيت له بانتباه ، لكن وعيى أبى أن يشترك فى الاصغاء ، فلم أسمع غير عبارات متقطعة تدوى فى فضاء القاعة : « .. شرف الجيش .. روح سلاح الفرسان النمسوى .. الإخلاص للفرقة .. » ، ولكنى خلال ذلك سمعت

همس كلمات أخرى ناعمة ، متوسلة ، كأنها آتية من عالم آخر : « يا حبيب قلبى .. لا تخف .. لن أقوى على العيش إذا أنكرت على حقى فى أن أحبك ! » .. ثم يعود صوت القائد يدوى : « لم ينس زملاءه الضباط القدامى .. من بعيد .. بلد آبائه .. النمسا وطنه » . ومرة أخرى يهمس الصوت الآخر فى شبه نشيج أو صرخة مختلفة : « كل ما أرجوه أن تدعنى أحبك .. كل ما أطلبه أن تطمئننى بكلمة عاجلة ! »

وفجأة تذكرت أنها سألتنى فى خطابها أن أجيبها برسالة قصيرة . وقلت لنفسى : « أما ينبغى لى أن أبادر بالاتصال بها ؟.. وهل يليق أن يترك الإنسان شخصا فى مثل هذه الحالة من القلق ؟.. يجب أن أبعث إليها برسالة ما ، يجب أن .. » ، وكان الخطيب قد جلس ، وأعقبه زميل أخذ يلقى قصيدة فكهة ، تلقاها الحاضرون بعاصفة من الضحك نهشت قلبى !.. كيف يضحكون هكذا وهناك شخص يئن أنين اليأس ويعانى عذابا مروعا ؟! كيف يطلقون نكاتهم الصاخبة فى حين تحتضر نفس معذبة ؟.. ثم لا شك أنهم بعد هذا سيغنون ويضحكون ، ويرقصون بغير حساب ! » .. وفجأة شعرت بأنى عاجز عن تحمل منظر أولئك الماجنين ذوى الوجوه المتألقة ، فانتهزت فرصة تصفيقهم للزميل ، وتسللت خارجا فى هدوء دون أن يلحظ خروجى أحد من الزملاء . أخيرا سوف أنفرد بنفسى !

وحين بلغت غرفتى ألقيت قبعتى وسيفى ، ثم أضأت المصباح واتجهت إلى المنضدة كى أقرأ مرة أخرى ... فى جو من

Looloo www.dvd4arab.com

الهدوء التام ــ ذلك الخطاب المفجع ، أول خطاب تلقيته ــ أنا الشاب الساذج ــ من امرأة ! ولم أكد اقترب من المنضدة حتى اجفلت ، إذ لمحت فوقهـا وسط دائرة الضوء التى يلقيهـا المصباح ، ذلك المظروف الأزرق الذى كان فيـه الخطـاب ، فأخذتنى الدهشـة لوجوده هنـاك ، مع علمى بأنه فى جيب سترتى !.. وساءلت نفسى : كيف يمكن هذا ؟ هل انا ثمل ، او نائم احلم ؟ ام هل فقدت وعيى ؟ الم اسمع قرقعة الخطاب فى مخبئـه بالسترة وانا اخلعها منذ لحظـة فقط ؟.. وذهبت افتش فى جيب السترة .. فاذا الخطاب فى مكانه ! وعندئذ فقط ادركت جلية الأمر : إن هذا الخطاب الذى فوق المنضدة .. هو خطاب « آخر » منها !

نعم : خطاب آخر منها ، فى خلال ساعتين !.. وشعرت بأن حلقى جف ، غضبا وغيظا ! إذن فسوف يتكرر ذلك ، كل يوم ، وكل ليلة ! خطاب فى إثر خطـاب .. ولو رددت على خطابها فسوف تلاحقنى بخطاب ثالث !.. وهـكذا لن تفتـأ تطلب منى شيئا كل يوم .. ولسوف تلاحقنى بالرسـائل ، والتليفون ، والجواسيس الذين يتعقبون خطواتى ، وحركاتى وسكناتى !.. إنها لن تدعنى فى راحة بعد الآن ، لن استرد حريتى من هؤلاء القوم الجشعين الأنانيين حتى يهلك احدنا ــ هى أو أنا ــ ضـحية هذه العاطفة العقيمـة المدمـرة !.. وحدثتنى نفسى بألا افض خطابها الجديد إلا فى الصباح ، إذ لم تبق لى قوة تتحمـل الشد والجـذب اللذين يمزقان قلبى ..

وخير لى أن أمزق الخطاب أو أرده إليها دون أن أفتحه !.. إلى الجحيم يا آل كيكسفالفا جميعا !

وسرعان ما خطر ببالى احتمال ان تكون الفتاة قـد فعلت بنفسها مكروها حين لم تصلها كلمة منى !.. فمزقت المظروف بحركة عصبية عنيفة ، وحمدت الله إذ وجدته خطابا قصيرا : ورقة واحدة فيها عشرة سطور فقط ، تقول فيهـا : « مزق خطابى السابق فورا .. لقد كنت مجنونة ، مجنونة تماما ! كل ما كتبته لم يكن صحيحا ، فلا تحضر لزيارتنـا غدا .. أرجو ألا تحضر . يجب أن أعاقب نفسى لكونى اذللت شخصى لك على تلك الصورة الفظيعة .. من اجل ذلك لا تحضر غدا بأية حـال ، لا اريدك ان تاتى ، بل امنعك .. ولا ترسل أى رد .. مزق خطابى السابق دون إبطاء ، وانس كل كلمة فيه. ولا تفكر فيه بعد الآن ! »

وساءلت نفسى : « كيف لا افكر فيه ؟!.. ياله من مطلب صبيانى !.. هل لإرادة المرء دخل فى مثل هـذا الحـال ؟.. وكيف لا افكر فيه وافكارى تتلاحق حوله كجياد ضارية تركض فى المسافة الضيقة بين صدغى ؟.. كيف لا أفكر فيه وذاكرتى المحمومة تلقى صورة بعد صورة منه على شـاشة ذهنى ؟ وكلماته الملتهبة قد وسم بها وعيى كما يوسم اللحم بميسـم من نار ؟

بل كيف لا افكر فيه وانا لا استطيع ان افكر إلا فيه ، وفى البحث عن وسيلة للفرار .. للمقاومة .. لإنقاذ نفسى من هذه

Lcoloo www.dvd4arab.com

اللجاجة النهمة ، من هذه العاطفة المتطرفة غير المرغوب فيها؟!
.. لا افكر فيه ؟!.. ليتنى استطيع ذلك !

وقمت فاطفات النور ، بزعم ان النور يسبغ على الأفكار مزيدا من الحدة والعنف ، ويجعلها اقرب إلى الوقائع .. وحاولت ان انأى بنفسى بعيدا ، ان اختبىء فى الظلام .. ونزعت الثياب عن جسدى كى اتنفس بسهولة اكثر ، والقيت نفسى على فراشى ، محاولا ان اخمد كل مشاعرى .. لكن الأفكار لا تهدأ هكذا بمجرد الرغبة فى التخلص منها ، وإنما تنطلق فى اضطراب — كالخفافيش ! — بين جدران الذهن المتعب الكليل ، وتقرض الأعصاب كالجرذان المتوحشة !.. وكلما جمدت فى الفراش بلا حراك ، ازدادت هى حركة وثورة وهياجا !.. وهكذا اضطررت إلى ان انهض فاضىء النور من جديد كى اطرد الأشباح ، لكن اول ما وقع عليه ضياء المصباح كان ذلك المظروف الأزرق لخطابها ، والسترة التى سكبت عليها الشاى بالأمس .. كل شىء يذكرنى ويوبخنى ! كيف لا افكر فى الخطاب ؟ نعم انا نفسى لا اريد ان افكر فيه ، لكن هذا يخرج عن نطاق قدرتى !.. وهكذا رحت اذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، وافتح خزانتى ، ثم ادراجها ، واحدا بعد الآخر ، حتى عثرت على قارورة الدواء المنوم ، فتناولت منها جرعة ثم عدت ادراجى إلى الفراش .. ولكن لا مفر ولا مهرب !.. فان الأفكار السوداء تلك الفيران القلقة التى تقرض النعاس فى مخى ، تسللت حتى إلى احلامى !

وحين استيقظت فى الصباح ، احسست كان خفاشا من

تلك الخفافيش قد افرغ مخى ، وجفف مادة راسى !. وكنت اعلم ان من احسن وسائل العزاء والسلوان فى مثل هذه الحال ان يمضى المرء إلى اداء عمل محتوم ، وعلى هذا غادرت غرفتى لكى امتطى صهوة جوادى واخرج إلى الخلاء على راس سريتى ، كى اتلقى الأوامر ، واصدر الأوامر ، فافر من نفسى ومن افكارى ثلاث ساعات ، او اربع !.. وفى البداية ، سار كل شىء على ما يرام . كان اليوم لحسن الحظ حافلا بالعمل ، استعدادا للمناورات . وكان نصيبنا من التحضير لها يومئذ يقتضى كل ضابط مزيدا من الانتباه وتركيز الفكر فى مراقبة كل جندى من جنود السرية ، بحيث انسانى ذلك كل شىء عداه .. حتى حانت فترة العشر دقائق التى تمنح للجياد كى تسترد انفاسها وتستريح ، فحامت نظرتى حول الأفق الممتد امامى وراء الحقول الشاسعة .. وإذا انا المح على حين غرة برجا عاليا هو برج قصر كيكسفالفا ، ولاحت لى شرفته التى تجلس فيها اديت كل اصيل .. وهنا احسست حافزا لا يقاوم يدفعنى إلى التفكير فيها : الساعة الآن الثامنة ، الساعة التى تستيقظ فيها .. لتفكر فى !.. لعلها الآن تحدث اهلها عنى ، وتستفسر منهم هل ارسلت إليها ردا ؟.. او ربما تكون قد صعدت إلى الشرفة واتكأت على سورها لتطل على ، كما ارنو بنظرتى إليها ! وانتهت فترة الاستراحة وعادت الأوامر تتطاير من افواه الضباط هنا وهناك ، ومختلف وحدات السرية تنفذ « التحركات » المرسومة بدقة ، والجياد تركض براكبيها فتتجمع وتتفرق حسبما توجهها اعنتها ..

loolo www.dyd4arab.com

ولكنى وإن استأنفت القاء الأوامر لجنــودى ، إلا ان أفكارى كانت فى واد آخر بعيد .. كنت فى أعماق وعيى وخبايا ذهنى افكر فى ذلك الشىء الذى اردت ــ وارادتنى الفتاة ــ الا افكر فيه !

واقبل قائد الفرقة يركض بجــواده ، وقد احتقن وجهــه وراح يسب ويصخب !.. لا بد أن ضابطا قــد اصــدر أمرا خاطئا ، فان طابورين كان مفروضا أن يلتقيا ليؤلفــا فيلقــا واحدا ، قد اصطدما .. نجمحت بعض الجيــاد ، واجفــل بعضها الآخر ، وســقط جندى تحت الحــوافر ، وســاد الاضطراب والهرج وقعقعة السلاح صفوف الطابورين ، كما لو كانت قد نشبت معركة حقيقية ! وحين اقبل بعض الرؤساء لتدارك الأمر ، اقتضاهم ذلك بعض الوقت كى يعاد النظام إلى الميدان .. وعندئذ ساد صمت مطبق ، واقبل القائد على جواده فتوسط المــكان ، واحتبست الأنفاس فى انتظــار مؤاخــذة المسئول .. وفجأة ارتفع صــوت القــائد ، حادا كالسيف ، مناديا : « الملازم هوفميلر ! » .

عندئذ فقط ادركت أننى ذلك المسئول ، وانى اصــدرت الأمر الخاطىء ، أثنــاء تشتت أفكارى !.. ولم يكن بــد من مواجهــة الموقف المخزى ، فلكزت بركبتى جوادى وتقــدمت الصنوف نحو مكان القائد ، تحوطنى نظرات أصدقائى المشفقة

الحائرة .. وساد سكون اشبه بسكون الموت الذى يســبق تنفيذ حكم الإعدام !.. كان الكل يعرفون مقدما ما تدخره لى الدقائق التالية !

ويحسن الا أذكر نفسى بما حدث على اثر ذلك ، وبعبارات التقريع التى انهالت على من فم القــائد فى مثل هدير الموج ، وقد شعرت بمئات النظرات المستهزئة تثقب ظهرى ، والرجل ماض فى حملته القاسية التى لم يتعرض ضابط منا لمثلها منذ شهور !.. وارتعشت يداى الممسكتان بعنان الجواد ، من فرط شــعورى بالمذلة ، ووددت لو انطلق بجــوادى فارا من الميدان ، وبرغم ذلك اضطررت إلى أن أبقى فى مكانى بلا حراك ، دون أن تختلج عضلة واحدة فى وجهى .. حتى أنهى الرجــل « مهمته » واصدر أمره للجنود بالتفرق .. وعندئذ كان على أن أرفع يدى بالتحية العسكرية قبــل ان الوى عنان جوادى عائدا إلى مكانى ، وقد أطرق زملائى بأنظارهم خجلا منى ــ أو هكذا خيل إلى وقتئذ ! ــ وانتهز صديقى « فيرنز » فرصــة مروره بجوارى أثناء تفرقنا ، فهمس لى مشجعا : « لا تلق بالا إلى الأمر .. ان ذلك قد يحدث لأى واحــد منا » . لــكنى صحت به فى جفاء : « هل لك أن تهتم بشــئونك الخاصة ؟ » .. وفى تلك اللحظة أدركت ، لأول مرة ، كيف تكون الشــفقة التى تنقصها اللباقة جارحة موجعــة .. أدركت ذلك لأول مرة ، ولكن بعد فوات الأوان !

looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثانى عشر

رغبة فى الفرار !

« الا بئست هـذه الحـال ! » .. ذلك ما كنت أحـدث به نفسى وانا اخب بجوادى عائدا من ميدان التدريب ! وددت لو استطيع الرحيل بعيدا ، إلى مكان لا يعرفنى فيه احد ، لكى افر بعيدا من هذا الجو الكريه ، ولا ادع احدا يذلنى بعد الآن!

ولازمتنى هذه الفكرة ، وكأنما صارت نغما يصاحب وقع حوافر جوادى اثناء المسير .. فلما بلغت المعسكر سلمت زمام الجواد لأحد الجنود وسارعت إلى الخروج ، معتزما الا اتغذى فى مطعم الضباط ، حتى لا ادع مجـالا لأحد كى يهزأ بى أو يرثى لحالى !.. لكنى لم اكن ادرى إلى اين اذهب ؟!.. لم تكن امامى خطة معينة او هدف مرسوم ، سوى أن افر بعيدا من المعسكر ، والبلدة كلها .. لقد غدا موقفى حرجا فى محيط عملى فى المعسكر ، وفى محيط صـلتى بأسرة كيكسفالفا !.. وهكذا مضيت فى طريقى على غير هدى ، مبتعدا عن المعسكر .. وفجاة سمعت صوتا ينادينى بلهجـة ودية ، من الجانب الآخر للطريق ، ولما التفت لأتبين صاحب النداء ، وجدت رجلا فى ثياب مدنية يشير لى ، وهو واقف بجانب سيارة معطلة ، رقد تحتها عاملان ميكانيكيان يصـلحان ما بهـا . وكان ذلك الرجل هو « بالنكاى » ، زميلنا القديم !

واقبل على مرحبا !.. ولم اكد المس فى نظرته وتحيتـه فرحة الصـديق المخلص ، حتى ومضت فى ذهنى فـكرة ان

التمس مساعدته .. وسرعان ما توالت على مخيلتى الخواطر المتسلسلة فى اقل من ثانية : ها هو ذا ضابط قد ترك الجيش وصار سيد نفسه ، ولقد مر بمرحلة مشابهة ، وهو يمد يـد المساعدة لكل من ينشدها من زملائه القدامى وأقربائه ، فلم لا يعيننى فى محنتى ؟.. وسرعـان ما حـزمت شجاعتى وسألته : « اتستطيع أن تمنحنى خمس دقائق من وقتك ؟ » .. فقبل مرحبا ، وقادنى إلى غرفتـه .. وهناك صـارحته برغبتى فى ترك الجيش لأسباب لا محل للخـوض فيهـا ، وسألته : « هل فى وسعك ان تجد لى عملا مناسبا فى إحدى شركاتك ومؤسساتك ؟ »

وبغت بالنكاى لقـرارى المفاجىء ، وراح يحـدثنى عن عواقب إقدامى على هذه الخطوة الطائشـة ، وعن المصاعب التى صادفته ، والمذلة التى عاناها بعد تركه الخدمة العسكرية ، حتى قيضت له المقادير صفقة زواجه من الأرملة الثرية ، وهى صفقة لا تتـاح لشخص من بين كل الف شـخص !.. ثم صارحنى بأنه حين تعـرف إلى زوجتـه ــ فى أحد فنـادق القاهرة ! ــ لم يكن سائحا موقرا من نزلاء الفندق ، بل كان ساقيا ذليلا ، فى مرتبة الخدم !.. وحين افرغ « بالنكاى » ما فى جعبته من النصائح ، وجـدنى ما أزال على إصرارى .. وحينئذ ذكر لى انه بعد ان اراح ضميره من مسئولية تشجيعى على الخطوة الخطيرة التى اعتزمت اتخاذها بصدد مستقبلى ، يقبل عن طيب خاطر ان يطالب زوجته بإيجاد عمل لى فى إحدى مؤسساتها ، لكنه لا يستطيع ان يعيننى بغير عمل تافه

Loolee www.dvd4arab.com

فى البداية ، على ان ارتقى السلم تدريجا بكفاءتى ، لا ان اقفز فوق اكتاف الاكفاء بفضل صداقته لى !

وقبلت شروطه العادلة ، فأخذنى فى سيارة إلى « فيينا » كى يعرض الأمر على زوجته ، وانا فى شبه ذهول من تطور الأمور بهذه السرعة ، وانقلاب حياتى ومستقبلى هكذا راسا على عقب فى اقل من ساعة .. وحين وصلنا إلى الفندق الذى تقيم به زوجته فى العاصمة ، تركنى فى الردهة وصعد إلى غرفتها كى يتحدث إليها فى الأمر .. ثم عاد إلى بعد دقائق باسم الوجه ، يبشرنى بأن زوجته اختارت لى عملا مبدئيا على إحدى سفنها ، هو ان اكون مساعدا لامين حسابات السفينة، كى أتعلم اللغات اللازمة وأقف على سير الأعمال فى جزر الهند الشرقية الهولندية ، حيث مقر مزارعها واملاكها الشاسعة .. وعندئذ يصبح فى الإمكان ان تسند إلى عملا اهم ، فى احد المراكز الثابتة . ثم ختم « بالنكاى » كلامه مكررا لى نصيحته بأن أعدل عن قرارى الطائش وأبقى فى الاتجاه الذى رسمته الأقدار لمستقبلى .. وترك لى الخيار فى تسلم عملى الجديد فى أى يوم اشاء !.. وهكذا لم يبق امامى غير إجراء واحد بسيط هو ان اكتب استقالتى من الخدمة العسكرية واسلمها إلى الرئيس المختص .. وبعد ذلك اغدو حرا ، وفى الوقت نفسه اكون قد نجوت !

والآن ، أستطيع ان اذكر بوضوح ادق تفاصيل ما حدث فى الدقائق التالية لتوديعى لصديقى بالنكاى فى تلك الأمسية : لقد اتجهت إلى اقرب حانوت سجاير ، فابتعت ورقتين من

الأوراق المدموغة المخصصة للمكاتبات الرسمية ، ومظروفا مناسبا ، ثم عرجت على أقرب مقهى — ومقاهى « فيينا » هى المكان المختار الذى تتم فيه اخطر الأعمال وأتفهها — فجلست إلى مائدة رخامية مستديرة إلى جوار نافذة ، وشرعت اكتب — بخط جميل ، وفى شىء من العناية — الصيغة الرسمية للاستقالة ، وانا أتخيل رد الفعل الذى سوف يحدثه وصول خطاب الاستقالة إلى قائد الفرقة ، وبين زملائى الضباط ، الذين سيعجبون جميعا ولا شك بنخوتى وابائى قبول الضيم، والاستكانة للمذلة والتحقير ! .. وشعرت إذ ذاك بكثير من الزهو ، فقد كانت تلك أول مرة فى حياتى تتاح لى فيها فرصة الظهور لزملائى فى مظهر الرجل المعتز بكرامته ! .. والزهو من اقوى الدوافع التى تغرى ذوى الطبيعة الضعيفة بالإقدام على أى عمل يظهرهم فى مظهر الأقوياء الشجعان الحازمين !

وحين فرغت من كتابة العشرين سطرا التى تتألف منها صيغة الاستقالة التقليدية ، وقعت عليها ؛ ثم نظرت إلى ساعة المقهى فإذا هى تشير إلى انتصاف الساعة السادسة ، فقلت لنفسى وقد شعرت بأن حملا ثقيلا ازيح عن كاهلى : « فلأدفع الحساب للساقى ، ثم أخرج فأتمشى قليلا — ولآخر مرة ! — بسترتى العسكرية ، فى شوارع فيينا ، وبعد ذلك أستقل قطار المساء إلى حيث تعسكر فرقتنا ، وفى الصباح أسلم الاستقالة لرئيسى . وبذلك تبدأ صفحة جديدة فى حياتى ومستقبلى ! » .

وتناولت الورقة فطويتها ، مرة ، ثم مرة ، كى أضعها فى جيب سترتى ، وهنا حدث شىء عجيب ، إذ اصطدمت الورقة

Laaloo www.dvd4arab.com

بشىء فى جيبى ، فلمـــا مددت أصابعى أتحسس ما يعـوق دخولها .. إذ أصابعى تجفل متراجعـــة ، كأنها أدركت قبل عقلى ماهية الأوراق المنسية فى جيبى : إنها خطاب « أديث » ، بل خطاباها اللذان أرسلتهما إلى أمس !

ولست أستطيع وصف المشاعر التى تقاذفتنى عند ذاك — والتى كانت تمت إلى الخجل أكثر مما تمت إلى الفزع ! — ففى تلك اللحظـــة انجابت عن إدراكى السحابة التى كانت تحجب عنى الحقـــائق ، فتبينت زيف كل الأفعـــال والأفكار والمشاعر التى اكتنفت حياتى فى الساعات الأخيرة ، بما فيها حنقى على لوم القـــائد لى ، وزهوى بمشروع تركى خـدمة الجيش ! .. وتبينت أن الحافز الأول إلى تفكيرى ذلك لم يكن ثورة رئيسى على — فهى تحدث للواحد منا أو للآخر كل بضعة أيام — بل كان رغبتى فى الفرار من وجه أسرة كيكسفالفا ، أو بالأحرى الفرار من مسئولياتى ! .. وكما ينسى المريض — بمرض قاتل — عذاب مرضه الأصلى ، مؤقتا ، إذا أصابه ألم عارض فى أسنانه مثلا ، نسيت أنا — أو حاولت أن أنسى — عذابى المتأصل الذى يغرينى بالفرار كالجبان ، وتوهمت أن ذلك الحادث التافه الذى وقع لى أثناء عملى هو الدافع لى على الاستقالة ، ذاهلا عن أن استقالتى لن تعد عملا من أعمال البطولة أو الاعتزاز بالشرف ، كما توهمت ، بل هى ليست إلا فرارا حقيرا من مواجهة عواقب حماقاتى ! .. لكن الإنسان متى اعتزم أمرا ، يصعب عليه أن يعدل عنه ، وهكذا وجدت من العسير على بعد أن كتبت استقالتى أن أرجع فيها ، فجعلت

ألتمس لنفسى الأعذار التى تبرر مضيى فى طريقى ، والتخلص من كيكسفالفا وابنته : وما ذنبى إذا أحبتنى امرأة غريبة على هذا النحو ؟.. إنها بملايينها الطائلة تستطيع أن تجد شخصا آخر تحبه ، وإذا لم تجد فليس هـــذا شأنى .. يكفى أنى سأهجر عملى وأغامر بمستقبلى من أجلها ! .. ثم ما صلتى أنا بهذه التخمينات الهستيرية عما إذا كانت ستشفى من دائها أم لا ؟ .. ألا سحقا لكل ذلك .. وهل أنا طبيب ؟

وكأنما ذكرتنى كلمة « طبيب » بالدكتور « كوندور » !

إنها مهمته هو لا مهمتى أنـــا ، وتلك الفتـــاة الكسيحة مريضته لا مريضتى ! فليحصد إذن ثمرة ما زرع .. ولأذهب إليه فورا لأخطره بأنى نفضت يدى من المسألة كلها !

ونظرت إلى الساعة فإذا هى لم تبلغ السابعة بعد ، بينما القطار لا يتحرك قبل العاشرة .. فأمامى إذن متســـع من الوقت ! .. لكن أين يقطن هو ؟ .. لا بد أن عنوانه مسجل فى دليل التليفون . وسرعان ما هرعت إلى الدليل وأخذت أقلب صفحاته على عجل : « يا .. يو .. كا .. كو .. كوندور .. كوندور أنتون (تاجر) .. كوندور أمير متشن (طبيب) شارع فلوريانيجاس رقم ٩٧ » . ولم يكن بالدليل طبيب آخـر بهذا الاسم . وإذن فلابد أنه هو صاحب هذا العنوان !

وركبت أول ســـيارة أجرة صادفتها وذكرت العنـــوان للسائق ، وبعد دقائق كانت السيارة تتأهب للوقوف .. ترى هل أخطأ السائق أم أخطأت أنا فى ذكر العنوان ؟ هل يعقل أن

Looloo www.dvd4arab.com



فقد رأيت امرأة عمياء تتقدم نحوى .
وتذكرت فورا ما قاله لى كيكسفالفا عن زواج كوندور من مريضته ..

Loolou
www.dvd4arab.com

يقطن طبيب مثل كوندور فى حى حقير قذر مثل هذا ؟ إنه يتقاضى من كيكسفالفا وحده ولا شك مكافآت ضخمة .. ولكن شكوكى تبخرت حين قرأت لافتة الطبيب على الباب ، فنقدت السائق أجره وصعدت سلما قذرا معتما تآكلت درجاته وتصاعدت روائح الأطعمة الرخيصة من المطابخ المطلة عليه ، حتى بلغت الطابق الثالث الذى يقطنه صاحبنا ، وأنا أرثى لحاله حقا !

ولم يكن قد عاد من الخارج بعد ، فأجلستنى الخادم فى حجرة انتظار متواضعة ــ تنم عن فقر طبقة المرضى الذين أعدت لهم ــ وبعد حين سمعت خطوات تقترب فى حذر ، ثم رأيت مقبض الباب يتحرك ببطء ــ كأن الذى يفتحه لص ! ــ وهتف صوت من ورائه : « هل يوجد أحد هنا ؟ » .. ومات الجواب على شفتى ، فقد رأيت امرأة عمياء تتقدم نحوى . وتذكرت فورا ما قاله لى كيكسفالفا عن زواج كوندور من مريضته التى عجز عن شفائها من عماها ! .. ولكن ، يا الهى! أبهذا القبح هى ؟ له الله ذلك المسكين ! واجبتها وانا انحنى لها تأدبا دون وعى ، كأنما هى ترانى : « إنى انتظر الدكتور كوندور » . فقالت فى استياء ظاهر : « إن ساعات الاستشارة قد انتهت منذ الساعة الرابعة . ولابد لزوجى حين يعود من أن يتعشى ويستريح .. هل لك ان تأتى غدا ؟ » .

وتذكرت ما قاله كيكسفالفا عن حدة المرأة وسوء طباعها ، فرأيت ألا استفزها ، وقلت لها : « الواقع انى لا أريد استشارة الدكتور فى هذه الساعة المتأخرة . وإنما أردت ان أقول له

بضع كلمات فى شأن إحدى مريضاته ! » .. وإذ ذاك انفجرت المرأة صائحة : « مريضاته ؟ مرضاه ؟ .. دائما هكذا ؟! فى الليلة الماضية ايقظوه فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ثم فى السابعة صباحا ! .. وها هو ذا ما يزال فى الخارج حتى الساعة ! إنه سوف يمرض يوما ، نتيجة لهذا الإجهاد . اما ترحمونه ؟ اما تدعونه فى سلام ؟ .. الا تستطيع ان تاتى غدا ، أو تذهب إلى طبيب آخر ؟.. اتسمعنى ، اخرج .. اخرج حالا .. دعه ياكل وينام مثل بقية الناس ! » .. وتقدمت المرأة نحوى ، مادة قبضتيها فى وجهى كأنما تود ان تخنقنى .. وفى تلك اللحظة سمعنا صوت الباب الخارجى يفتح ، فتغير وجه المرأة فى الحال ، وبدأت ترتجف من رأسها إلى قدمها .. ثم ضمت يديها فى حركة توسل ، وهمست لى مستعطفة : « بربك لا تثقل عليه . لابد أنه متعب الآن .. ضع نفسك مكانه . اشفق عليه ! » .

وفتح باب الحجرة ، ودخل الدكتور كوندور ، وسرعان ما ادرك الموقف ، فقال فى صوته الرقيق الذى يخفى فى العادة انفعالاته العنيفة : « أوه ! أرى انك كنت ترحبين بسيدى الملازم .. كم هو لطيف منك ذلك يا كلارا ! » ، واتجه إلى زوجته العمياء فربت على كتفها فى رفق الان ملامح وجهها ، فقالت معتذرة فى خجل : « عفوا ، ولكن كان لابد ان اصارح هذا السيد بأنك فى حاجة إلى أن تتناول عشاءك حالا ، فانك ولا شك جوعان .. وقد ذكرت له انه يحسن صنعا لو حضر غدا .. » .

فقطع كوندور كلامها ضاحكا وقال : « لقد اخطأت هذه المرة ، فليس الملازم هوفميلر مريضا ، بل هو صديق طالما وعدنى بأن يحضر لزيارتى ، وعمله لا يتيح له الحضور إلا فى الليل . ولكن دعينا من هذا ، فالشىء المهم الآن هو : هل عندك عشاء لنا ؟ » .. فتدخلت انا فى الحديث قائلا : « شكرا ! إننى لن أستطيع البقاء ، لأن على ان أسافر بقطار الساعة العاشرة .. ولن يستغرق حديثنا اكثر من دقائق ! » .. لكن الطبيب رأى — ارضاء لزوجته ، وتخلصا من إلحاحها وازعاجها لنا — أن يتناول عشاءه معها أولا ، كى يفرغ للحديث معى بعد ذلك . ونصح لى بأن انتهز تلك الفرصة فاضطجع على اريكة فى الحجرة كى أريح جسمى من اثر الإجهاد الذى يبدو واضحا على وجهى !

وكان مصيبا ، وإن لم اتنبه انا لمدى تعبى إلا بعد أن تمددت على الأريكة ، واطفأ هو لى النور .. ويبدو اننى اغفيت ، فانى لم اشعر إلا ويده على كتفى ، بعد أن عاد إلى الحجرة عقب تناول العشاء . وإذ حاولت أن انهض ، قال لى محتجا : « ابق حيث انت ، وسآتى انا لأجلس بجانبك . ان الحديث فى الظلام ايسر وافضل ، وكل ما ارجوه منك ان تخفض صوتك ، فليس احد من حاسة السمع عند فاقدى البصر ! .. والآن ، صارحنى بما عندك ولا تخجل ، فقد ادركت لأول وهلة ان عندك جديدا ! » .

ولعل الظلمة اذابت قدرتى على المكر والتكلف ، وعزمى السابق على إخفاء بعض الحقائق ، فوجدتنى اصارحه بكل

Loolee www.dvd4arab.com

شيء : بثورة اديث المفاجئة .. وانهيارها .. وعناقها المحموم .. وانزعاجى انا ، وخوفى ، ونفـورى ! .. فأنصت الطبيب للقصة صامتا ، وحين فرغت منها قال : « إذن فهذا كان سر ما اعترى الفتاة من تغير ؟ .. يا لغبائى ! كيف لم استنتجه فى حينه ؟ لقد ارتبت فى ان تكون لهفـة اديث المفاجئة على الشفاء نتيجة تدخل طبيب آخر فى العلاج ، لكنى لم أفكر فى أكثر الاحتمالات بساطة وتمشيا مع المنطق : وهو أن الفتاة تمر بالسن الطبيعية الملائمة للوقوع فى الحب ! .. لكن أسوأ ما فى الأمر أن يحدث ذلك فى هذا الوقت بالذات ، وبمثل هذا العنف !.. يا للفتـاة المسكينة !.. إنها لن تقنع الآن بأى تحسن طفيف فى حالتها ، لن تقنع بغير الشفاء التام .. يا الهى ، اية مسئولية رهيبة قد أخذناها على عاتقنا ! »

فقلت وقـد تولانى حنق مفاجيء على الأقـدار التى ورطتنى فى هذه المحنة : « انا من رايك : ينبغى أن نضع حدا لهذا الجنون فى الوقت المناسب ! يجب أن تكون حازما معها ، وأن تقول لها : إن عاطفتها هذه ليست إلا حماقة صبيانية !.. نعم ، يجب أن تقنعها بالاقلاع عنها ! » .. فقال ساخرا : « أقنعها بالاقلاع عنها ؟ ما هذا الذى تقول ؟ اقنع امـراة بالإقـلاع عن الحب ؟.. بالا تحس شيئا ، تحسـه هى بالفعل ؟ .. هل سمعت يوما ان المنطق يقوى على العاطفة ؟ او سمعت أن شخصا استطاع أن يقـول للحمى : « أيتها الحمى ، تراجعى ! » .. أو يقول للنـار : « أيتهـا النـار انطفئى ! » .. أو تريدنى أن اقول لفتاة كسيحة مقعـدة :

« لا يدورن فى خلدك أن فى وسعك أن تحبى مثل بقية الناس ، فإنها لوقاحة منك وانت مشلولة أن تظهرى شعورا ما نحـو احد ، وتنتظرى من احد ان يظهر شعورا نحوك ! .. وما على مثلك إلا أن تنزوى فى ركن قصى ، وتهجر كل أمل فى الحب !» .. أهذا ماتريدنى أن اقوله للفتاة ؟ وهل فكرت فى النتيجـة الرائعة التى تترتب على مثل هذه الخطوة ؟ .. ولماذا تطالبنى انا بأن اقول لها ذلك ؟ ! » .

فأجبته : « لأنى لا استطيع أن أقوله لها ! » .

فقال : « نعم ، انت لا تستطيع ، وينبغى الا تفعـل .. ينبغى الا تظهر للمسكينة ــ سواء بالقول أو الإشارة ــ أن شغفها بك يضايقك ، أو لا يجـد منك ترحيبا ! .. ان ذلك يكون بمثابة الانقضاض على رأسها بفأس حادة ! » .

قلت : « ولكن لا مفر لى من أن يصارحها أحدنا بأن .. اعنى بأن .. » .. فقطع كلامى قائلا : « إن ترددك لا ينم عن ضمير خالص ! فهل تعتزم ــ بسـبب هذا الخطاب الذى ارسلته المسكينة إليـك ــ أن تقطع صلة الصـداقة التى بينكما ؟ » .

لم أجب ، ولم أرفع عينى إليه .. فاتخذ صوته لهجـة المحقق المتحدى ، وقال : « هل تدرك عاقبة انسحابك المفاجيء فى هذه الظروف ، بعـد أن أدرت رأس الفتـاة بشـفقتك الغالية ؟ » .

ولما بقيت صامتا مطرقا ، واصل كلامه فقال : « ما دمت تلوذ بالصمت ، فدعنى أصارحك برأيى الشخصى فى هـذا

Looloo www.dvd4arab.com

المسلك الذى تعتزمه : إن الفرار على هذه الصورة يكون جبنا ونذالة !.. لا تؤاخذنى إذا لجأت إلى هذا التعبير ، فان الأمر يتعلق بسعادة فتاة اعتبر نفسى مسئولا عنهـا إلى حد ما ، وفى ظرف كهـذا لا تنتظـر منى أن اكون مؤدبا فى كلامى .. بل دعنى اقل لك — كى تقـدر ضخامة العبء الذى تحمل ضميرك إياه لو لذت بالفرار — إن تصرفك هذا يكون جريمة بشعة ضد مخلوقة بريئة ، بل اخشى أن يكون بمثـابة جناية « قتل » !.. نعم ، قتل مع سبق الاصرار ، وانت تعلم ذلك ! .. وإلا فهل يدور بخلدك ان تلك المخلوقة الأبية ، المرهفـة الإحساس ، تستطيع أن تواجه الحياة إذا كانت — فى اول مرة تفتح فيها قلبها لرجل — تصـدم بفرار هـذا الرجل منهـا مذعورا ، كما لو كان يفر من شيطان ؟!.. الم تقرا خطابها ، أم انك بلا قلب على الاطلاق ؟!.. إن اية امراة عادية ، سليمة الجسم والنفس ، لا تتحمل مثل هذه الإهانة ، وصدمة كهذه كفيلة بأن تودى بعقل الفتاة !.. وإن لم تقتلها الصدمة قتلت هى نفسها !.. نعم ، انا واثق بأنها لن تستطيع مواجهة مثل هذا المسلك « الوحشى » ، وانت تعلم هذا كما اعلمـه انـا بالضبط . ولأنك تعلل ذلك فان فرارك الآن لا يعتبر فعـلا ينطـوى على الجبن والضـعف فحسب ، وإنما هو أيضـا « جريمة قتل » شريرة متعمدة ! » .

واجفلت برغمى .. ففى اللحظة التى نطق فيهـا بكلمة « قتل » ، تراءى لى منظر سور الشرفة التى فى اعلى البرج ، وقد تشبثت به الفتاة واطلت على الفضـاء السحيق ، وانا

اجذبها إلى الوراء ، فى الوقت المناسب !.. إن ما يقوله الدكتور كوندور لا مغالاة فيـه ، فقد تقدم الفتاة على تلك الفعلة فى لحظة يأس !.. واغمضت عينى ، فخيل إلى ان الحادث قـد وقع فعـلا ، واحسست كأنى انا نفسى اهوى من الطابق الخامس على الأرض الحجرية !.. بينما استمر الدكتور فى كلامه فقال : « هل تستطيع ان تنكر ذلك ؟.. وهل تعد عملا كهذا متفقا مع الشجاعة التى تنسبها لنفسك كجنـدى ؟! »

.. ووجـدت صـوتى اخيرا لأقول له : « يا سـيدى الطبيب ، ماذا تريدنى أن افعل ؟ إننى لا استطيع ان اقـول كلاما لا اعنيه ، فكيف اتصرف كمـا لو كنت اشجع وهمهـا الجنونى ؟ كلا ! لست اطيق ذلك ، لست اطيقه .. لا استطيعه ولا اطيقه ! » .

ويبدو انى صـحت مكررا هـذه العبـارة الأخيرة باعلى صوتى ، فقد امسـك كوندور ذراعى بقبضته القـوية وهو يقـول : « هدىء من روعك ، وإلا اضطررت إلى ان اعاملك كمريض .. والآن دعنا نتفاهم فى صراحة وهدوء : ما هو الذى لا تستطيعه ولا تطيقـه ؟ لا تخجل من الاعتراف بحقيقـة شعورك .. إنى استطيع أن افهم استياء الرجل الذى يفاجـا بامراة تعلن عليه الحب هكذا ، فى حرارة وعنف ، فان الأخرق وحده هو الذى يفرح ويزهو بإعجاب النساء ! اما الرجل ، بمعنى الرجولة فى الأخلاق ، فهو خليق بأن يستاء إذ يعلم ان امراة قد تورطت فى حبـه ، بينما هو عاجز عن ان يبـادلهـا عاطفتها !.. كل هذا افهمه جيدا ، لكنى لا افهم هـذا الذعر

Loofoo www.dvd4arab.com

الشديد الذى يصيبك !.. فهل هناك عامل خاص — اجهله — يؤثر فى مسلكك ؟!.. ولأكن أكثر صراحة : أعنى هل توحى إليك عاهة اديث ، بشىء من النفور أو الاشمئزاز الجثمانى ؟ ».

فأجبت محتجا : « كلا !.. كيف تفكر فى شىء من هذا ؟ ».

فقال ، وقد انبسطت أسارير وجهه : « هذا يطمئننى إلى حد ما .. والواقع ان الطبيب يشاهد كثيرا من الحالات التى ينفر فيها رجال — طبيعيون للغاية — من ابسط شذوذ جثمانى فى المرأة ، بحيث يستحيل عليهم أن يمارسوا معها اية صلة جنسية . ومن سوء الحظ أن هذا النفور ، شأنه شأن كل شعور غريزى ، يتعذر معالجته .. لهذا يسرنى ان أسمع منك أن سبب نفورك من اديث ليس شلل ساقيها . وفى هذه الحالة أستطيع أن أرجح ان انزعاجك من وقوع الفتاة فى هواك إنما يرجع إلى ظروف خارجية محضة — لا تتصل بك أو باديث — مثل خوفك من « كلام الناس » ، او من سخرية إخوانك الضباط منك بسبب زواجك من امرأة كسيحة ! » .

وشعرت كأن الرجل قد طعننى فى القلب مباشرة ، بإبرة حادة من إبره ، فقد طالما احسست — فى عقلى الباطن — بهذا الذى يقوله ، دون أن أتنبه إليه بعقلى الواعى .. فمنذ البداية كنت فريسة رعب دائم من ان يكتشف زملائى صلتى بالفتاة ، فيوسعوننى زراية واستهزاء ، شأنهم كلما شاهدوا واحدا منهم فى صحبة امرأة قبيحة الخلقة ، او وضيعة المظهر !.. نعم ، لقد صدق كوندور : فمنذ صارحتنى الفتاة

بحبها ، خجلت منها أشد الخجل ، وخجلت مما قد يقوله الناس عنى حين يعرفون النبأ !

وفى غمرة شرودى ، سمعت صوت كوندور يستطرد ، وهو يضع يده فى رفق على ركبتى : « كلا ، لا تخجل .. فلئن كان أحد يستطيع أن يفهم رعب الإنسان من سخرية الآخرين ، فأنا هذا الشخص !.. إنك قد رأيت زوجتى أليس كذلك ؟.. أتدرى كم قاسيت بسببها من كلام الناس ؟ لقد أشاع زملائى أنى تزوجتها لأننى أنا الذى أفقدتها البصر بسوء علاجى !.. وأكد آخرون أنى تزوجتها لأنها تملك ثروة طائلة ، أو لأنها تنتظر إرثا ضخما !.. حتى أمى بقيت عامين ترفض استقبالها فى بيتها ، لأنها كانت قد أعدت لى زيجة مغرية من ابنة أحد كبار الأطباء ذوى النفوذ ، ولو كنت فعلت ذلك لعينت خلال أسابيع أستاذا فى كلية الطب ، وضمنت بذلك لنفسى مستقبلا باهرا !.. لكننى كنت أعلم أن « كلارا » — زوجتى الآن — سوف تنهار تماما لو لم آخذ بيدها فى محنتها .. فقد كانت تؤمن بى ، وبى وحدى ، ولو أنى انتزعت إيمانها منها ، لعجزت عن مواجهة الحياة !.. واعترف لك بأنى لم أندم على اختيارى قط ، فإن الحياة يغدو لها طعم ومتعة خاصة حين يشعر الإنسان بأنه كان السبب فى إسعاد إنسان آخر ، أو تخفيف آلامه ! » .

كانت لهجة الدكتور كوندور عميقة الأثر فى نفسى ، فشعرت بشفقتى القديمة على الفتاة الكسيحة التعسة تتمطى

Looloo
www.dvd4arab.com

فى صدرى من جديد ، وتوشك أن تنتعش ، وتقهرنى !.. لكنى اعتزمت ان اقتل هذه الشفقة فى مهدها ، وأقطع على نفسى خط الرجعة ، فقلت فى لهجة حازمة : « اصغ إلى يا سيدى الطبيب : كل رجل يعرف حدود طاقته وقوة احتماله ، ومن ثم ابادر إلى مصارحتك بانى لست الشاب الطبيب المضحى الذى تحسبه ، واننى قد بلغت الآن آخر حدود قدرتى .. واقسم لك بشرفى العسكرى إنى جاد فى قولى إنك ينبغى الا تعتمد على فى مساعدة اديث بعد الآن ، والا تغالى فى إحسان الظن بى اكثر من اللازم ! » .

.. ويظهر أنى كنت حازما فى لهجتى ، فقد التفت كوندور إلى واجما ، ثم قال : « يبدو لى ان عزمك قد استقر على إجراء حاسم .. والآن صارحنى بالحقيقة كاملة : هل اتخذت خطوة لا رجوع فيها ؟ » .. فقلت : « نعم .. إليك هذه الورقة فاقراها بامعان ! » .

ومددت يدى إلى جيبى فأخرجت منه خطاب استقالتى وسلمته إليه .. فقراة فى روية ، ثم طواه وواجهنى قائلا : ، فى هدوء صارم : « اعتقد انك — بعد كل ما ذكرت لك — تدرك عواقب الأمر حق الإدراك ، وتعلم يقينا ان فرارك على هذا النحو يعنى حكما بالموت — أو بالأحرى بالانتحار — على الفتاة التعسة ! » .. ولما لم اجب ، اردف يقول : « لقد وجهت إليك سؤالا يا سيدى الملازم ، واكرره الآن : هل تدرك العاقبة المحتومة لفرارك ؟.. وهل تحمل ضميرك المسئولية كاملة ؟ » .. ومرة اخرى لم اجب .. فاقترب منى ، ومد يده إلى بالخطاب قائلا : « هاك استقالتك . إنى انفض يدى من

المسالة كلها ! » .. لكن ذراعى شلت ولم اقو على رفعها ، ولم اجد الشجاعة لمواجهة نظرات محدثى ، فقال لى : « إذن .. انت لا تنوى المضى فى تنفيذ هذا الحكم بالإعدام ؟! » .

وحين امعنت فى صمتى ، قال : « هل لى ان امزقه ؟ » . وحينئذ أجبته : « نعم .. ارجو أن تفعل ! » .. فاتجه الطبيب إلى سلة المهملات ، ودون ان أرفع بصرى سمعت صوت تمزيق الخطاب ، مرة فاثنين ، فثلاثا .. وشعرت بارتياح عميق !.. ثم عاد الطبيب فجلس فى مواجهتى ، وقال : « اعتقد أننا قد حلنا دون وقوع كارثة فظيعة .. والآن ، فلنبحث عن حل عملى للموقف : لقد لمست من قلقلة عواطفك ، وتعجلك فى الانقياد لأفكارك ، أنك شخص لا يعتمد عليه ، ولا ينبغى ان توكل إليه مسئوليات ثقيلة ، تتطلب مثابرة طويلة وعزما راسخا .. لذاك لن اطالبك بالكثير ، أو اكلفك بغير الواجب الجوهرى اليسير : لقد اعتزمت اديث — من اجلك — ان تجرب العلاج الجديد المزعوم ، وسوف تسافر إلى سويسرا بعد أسبوع كى تدخل مصحة (انجادين) .. وكل ما اطلبه منك هو ان تعاوننى بصفة مؤقتة ، خلال هذا الأسبوع الباقى على موعد سفرها ، وبعد ذلك تستطيع ان تسترد حريتك كاملة فيما يتصل بالأمر كله !.. والآن عدنى بالا تظهر للفتاة — خلال الأيام السبعة القادمة ، سواء بكلامك أو تصرفاتك — ان شغفها بك يثقل عليك او يضايقك ادنى مضايقة .. ركز كل همك فى ضبط مشاعرك خلال هذه الفترة القصيرة .. قل لنفسك ليل نهار : « لم يبق غير أسبوع ، ستة

Loolo www.dvd4arab.com

أيام ، خمسة أيام ، ثم يصبح فى وسعى أن أفخر بأنى انقذت حياة إنسان ! » .

فسألته : « لكن ماذا سيتغير من الأمر بعد هذا الأسبوع ؟ » .

فقال : « قد يحدث أى شىء ، فلندع ذلك فى يد الله وعنايته الالهية .. قد تتحسن حالة الفتاة فعلا خلال الأشهر التى تقضيها فى المصحة ، أو قد تشفى من حبها لك .. إلى آخر هذه الاحتمالات المتنوعة التى ينبغى الا تشغل نفسك بالتفكير فيها . فلنمنح المسكينة هذا الأسبوع من السعادة الخالصة ، والاطمئنان الكامل ، اللذين لا تشوبهما شائبة !.. فهل تستطيع ان تأخذ على عاتقك هذه المهمة البسيطة ؟ » .

فأجبته ، وقد امدنى بقوة جديدة شعورى بأن مهمتى باتت موقوته ، قصيرة الأمد : « بكل تأكيد .. أعدك بذلك ! » .. وإذ ذاك تنفس الطبيب الصعداء ، واردف قائلا : « بقى شىء واحد : لو حدث خلال هذه الفترة ما يعرقل خطتنا : لو خذلتك اعصابك مثلا ، او استيقظت شكوك الفتاة ، لسبب ما ، فعليك ان تتصل بى فورا . زرنى أو كلمنى بالتليفون ، فى اية ساعة من الليل او النهار ، وسوف يسرنى ان أخف لنجدتك بغير إبطاء ، فان أتفه إهمال قد يكلف الفتاة غاليا .. وحذار ان تتخذ خطوة حاسمة بغير علمى ، مهما يكن الثمن . ولو بدرت منك غلطة أو حماقة ما ، فإياك ان تخجل من أن تصارحنى بها فى الحال ، فنحن الأطباء نرى من الأجساد العارية ، والنفوس العارية ، ما يجعلنا نتسامح فى

مخازى الطبيعة البشرية !.. والآن هيا بنا نلحق بزوجتى فى الغرفة المجاورة ، فقد ترتاب فى حديثنا . إن الذين امتحنتهم الأقدار بضربات قاسية ، يعيشون طيلة حياتهم مرهفى الإحساس ، سريعى التأثر ! » .

ونهض الطبيب فأضاء النور ، وعندئذ تنبهت — لأول مرة — إلى الأخاديد العميقة التى تغضن جبينه ، من فرط التعب والاجهاد .. فقلت لنفسى : « إنه دائما يعطى من نفسه للآخرين ، ويهب راحته ، بل حياته ، للمعذبين ! » .. وشعرت فجأة باحتقار شديد لنفسى ، ولرغبتى الدائمة فى الفرار من مواجهة الحقائق الموجعة .. وكأنما ادرك هو ما يجول بخاطرى ، فابتسم وقال لى : « كم يسرنى أنك جئت تفاتحنى فى الأمر .. فكر فيما عساه كان يحدث لو عمدت إلى الفرار من المشكلة ببساطة ، وبلا ترو .. كانت مسئوليتك تجثم على صدرك مدى حياتك ، فان الإنسان يستطيع ان يهرب من كل شىء ، إلا نفسه !.. والآن تعال يا صديقى العزيز نجلس بعض الوقت مع زوجتى ، حتى يحين موعد قطارك .. » .

.. وأثرت فى نفسى حرارة لهجته ، وتلقيبه إياى بصديقه العزيز ، فقد وقف على مبلغ ضعفى وجبنى ، ومع ذلك لم يحتقرنى !.. لقد كان شيخا مجربا ، وكنت حدثا متهورا .. وقد رد إلى بتلك العبارة ثقتى بنفسى ، فشعرت كأن حملا ثقيلا .. قد أزيح عن صدرى !

Looloo www.dvd4arab.com

الفصل الثالث عشر

شفقة حائرة

عاودتنى ثقتى بنفسى منذ وضع كوندور حدا للمهمة الملقاة على عاتقى ، ولم يعد يمضنى غير التفكير فى اللحظة التى سوف القى فيها اديث لأول مرة بعد مكاشفتها إياى بحبها ! .. كنت أعلم عن يقين استحالة الا يعترينى ارتباك ما حين القاها بعد ذلك العناق الحار ، فان نظرتها الأولى لى فى لقائنا المنتظر لا يمكن إلا أن تكون محملة بتساؤل معناه : « هل صفحت عنى ؟.. هل تتقبل حبى ؟ وهل تستطيع أن تبادلنى حبا بحب ؟ » .. نعم ، إن اللحظة الأولى التى سترفع فيها عينيها إلى فى لهفة وخجل ، ستكون هى اللحظة الخطرة الحاسمة ، فان كلمة واحدة خرقاء ، أو حركة واحدة ينقصها التوفيق ، قد تكشف لها عن الحقيقة بكل قسوتها — الحقيقة التى ينبغى الا اكشفها لها بأى ثمن — فتصيبها تلك الصدمة المباغتة التى حذرنى منها الدكتور كوندور .. ولكن إذا مرت تلك اللحظة بخير فانى أكون قد نجوت ، وانقذتها هى أيضا !.

وهكذا مضيت بعد ظهر اليوم التالى إلى قصر كيكسفالفا ، فلم اكد اتقدم فى الردهة حتى ادركت ان اديث قد اعدت — مثلى — لتلك اللحظة الحرجة عدتها ، فدعت بعض من تعرف لزيارتها فى الساعة التى اعتدت ان اصل فيها ، كى يتم لقاؤنا الأول على غير انفراد !.. وقدمتنى ايلونا إلى الزائرتين ، وكانتا زوجة « مأمور » المنطقة وابنتها ، فجلسنا جميعا نتبادل

الأحاديث .. وهكذا استطعت أن أتجنب النظر إلى اديث — وإن شعرت بنظرتها تستقر على بين حين وآخر فى قلق مكتوم — وحين نهضت الزائرتان آخر الأمر ، ذكرت ايلونا أنها ستتركنا نحو ساعة كى تعد بعض معدات السفر ، واقترحت أن نقضى هذه الساعة فى لعب الشطرنج .. فلما خرجت ، سألت اديث فى لهجة عادية : « هل تحبين أن نلعب ؟ » ، فأجابت وهى تخفض عينيها : « نعم ، يسرنى ذلك » .. وبدأنا نلعب ، وقد لاذ كلانا بصمت صارم . كان كلانا يخشى أن تفضح كلمة منه مشاعره ، أو تقوده إلى موقف حرج ، فاستغرقنا فى اللعب استغراق أساطين اللاعبين الذين يركزون اهتمامهم فى اللعبة وينسون كل ما عداها !.. لكن اديث لم تلبث أن تورطت فى بضعة أخطاء متتالية نمت عن شرودها ، وادركت من حركة اصابعها أنها لم تعد تحتمل الصمت المرهق للأعصاب .. وفى منتصف المباراة الثالثة دفعت منضدة اللعب عنها قائلة : « هذا يكفى .. أعطنى سيجارة ! » .. فمددت إليها يدى بالعلبة المذهبة ، واشعلت لها سيجارتها بعود ثقاب .. وفيما أنا أفعل ، لم أستطع تجنب النظر إلى عينيها . كانت نظرتها مركزة على لا شىء ، على الفضاء السحيق ، وقد تجمدت فيها نظرة غضب باردة ، وارتفع حاجباها فى شبه قوس مختلج .. الأمر الذى دلنى على اقتراب عاصفة من عواصف انفعالها ، فهتفت بها مناشدا فى انزعاج : « كلا بربك .. كلا ! » .. لكنها مالت فى مقعدها إلى الخلف ، وتشبثت يداها بمسندى المقعد فى عصبية ، وقد بدأ جسدها كله ينتفض ، وأسنانها تصطك ، فى شبه نوبة بكاء صامت مكتوم !

Looloo
www.dvd4arab.com

.. وعدت أناشدها فى فزع حائر وقد عجزت عن أن أجد ما أقوله لها ، فرحت أردد : « كلا .. كلا ! » ثم انحنيت نحوها مرتاعا ووضعت يدى على ذراعها ، كى أهدئها .. فاذا بها وكأن تيارا من الكهرباء قد سرى من ذراعها إلى جسمها كله ، فتوقفت رعدته فجاة ، وسكن !.. وبدا لى كأن كل ذرة فيه قد انشغلت باستنباط مغزى هذه اللمسة منى : هل تدل على ميل ، أو حب .. أو مجرد شفقة ؟.. لكنى لم أجد فى أصابعى القوة على تحويل تلك اللمسة الخفيفة إلى القبضة العارمة التى أحسست أن جسد الفتاة الملتهب ينتظرها بصبر نافد ، فتركت يدى راقدة على ذراعها فى استكانة ، وكأنها ليست جزءا منى !

.. ولا أدرى كم بقينا على هذا الوضع ، حتى تنبهت على يدها اليمنى تدفع يدى تلك فى رفق عن ذراعها كى تجذبها إلى موضع قلبها ، ثم تطبق عليها بيسراها وتعتصرها بين يديها فى حياء رقيق ، وتهيب ، وهى تعبث بأصابعى بين حين وآخر عبثا حنونا ، خيل إلى معه أنها باحتضانها هذا الجزء الصغير منى — الذى أسلمتها إياه — إنما تحتضن جسدى كله !.. ثم غاصت فى مقعدها وأغمضت عينيها ، كمن تحلم ، بينما انفرجت شفتاها قليلا وشاعت فى محياها إشراقة هادئة — شأن من تنعم بسكينة نفس كاملة — ويداها ماضيتان فى عبثهما الناعم بأصابعى وراحة يدى !.. ولا أذكر أنى انتشيت يوما بعناق امرأة ، أيا كان عنفه ، مثلما انتشيت ساعتئذ بتلك المداعبة الرقيقة بالأيدى ، وذاك العبث الحالم .. حتى لقد

خيل إلى أن حواسى كلها قد تأثرت بمخدر سحرى أفقدنى القدرة على سحب يدى .. وتذكرت وأنا أنعم بدغدغة أناملها لبشرتى ، فى شبه حلم ، هذه العبارة فى خطابها : « كل ما أطلبه منك أن تدعنى أحبك فى صمت ! » .. فشعرت بخجل عميق إزاء هذا الحب العارم ، الذى لا أجد له فى نفسى صدى غير الاضطراب الحيى والنشوة الحائرة !

.. وشيئا فشيئا بدأ جمودى يثقل على ! وأحسست بالحرج من تركى يدى هكذا بلا حراك ، وكأنها ليست منى !.. وكان لابد أن أفعل شيئا أصد به شغفها الشديد ، أو أستجيب له !.. لكنى لم أجد فى نفسى القوة على هذا ، أو ذاك !.. وحدثتنى نفسى بأن أضع حدا لهذه اللعبة الخطرة ، فبدأت أحرك عضلات يدى فى حذر ، كى أستردها من قبضة الفتاة اللينة ، فى رفق ولباقة .. لكن أديث سرعان ما أدركت — بحساسيتها المرهفة الحادة — أنى أوشك أن أسحب يدى ، فأتت بحركة مفاجئة أخلت بها سبيلى .. وإذ ذاك لم أشعر إلا وقد زال عن بشرتى دفء الملمس الناعم ، فاستردت يدى المهجورة فى شىء من الارتباك .. بينما غام وجه الفتاة وبدا فمها يختلج برعشة الانفعال المكتوم ، فهمست لها منزعجا : « كلا .. كلا بربك!.. لن تلبث إيلونا أن تأتى بعد لحظة .. »، فلما لم تفلح كلماتى السخيفة الجوفاء فى تهدئة ثائرتها ، تملكتنى نوبة من الشفقة المباغتة فانحنيت عليها .. وطبعت قبلة سريعة على جبينها !

ولكن عينيها ظلتا جامدتين ، تحدجانى بنظرة فاحصة

Looloo www.ibtesama.com

نفاذة !.. لقد فشلت فى ان اخدعها ، وادركت المسكينة أنى بسحب يدى قد تنصلت من عناقها ، وأن قبلتى « الطائرة » لم تكن دليل حب حقيقى ، ولا تزيد على كونها دليل « شفقة » حائرة !

* * *

وفى الأيام التالية ، تكررت منى هذه الحماقة التى لا سبيل إلى غفرانها او التكفير عنها ! لقد عجزت ــ برغم كل جهودى اليائسة ــ عن ان احشد ما بقى لى من القوة والصبر للقيام بمحاولة ناجحة لإخفاء مشاعرى .. ولم يجد تصميمى على ان لا افضح ــ سواء بالقول ، أو النظرة ، او الإشارة ــ نفورى من حبها !.. وكلما ذكرت نفسى ، مرارا وتكرارا ، بتوصيات الدكتور كوندور فى شأن خطر الموقف ، وفداحة مسئوليتى فيما لو خدشت مشاعر هذه المخلوقة التعسة ، رحت أحدث نفسى ملحفا : دعها تحبك ، وأخف شعورك الحقيقى أسبوعا واحدا ، كى تحفظ لها كبرياءها ، ولا تدعها ترتاب فى انك تخدعها .. حاول ان تكسب صوتك حرارة ، ولمساتك شغفا وحنانا !

.. على ان جو اللقاء بقى برغم ذلك مشبعا دائما بتوتر غامض خطر : فان العاشقة الوالهة كانت لا تفتأ تستشف « حقيقة » شعورى ، بعد أن باحت لى بحبها على ذلك النحو .. ثم إن الحب بطبعه لا يقبل الاعتدال ، ولا يقر الحدود والقيود ، ومن ثم راحت تفسر كل تحفظ او تردد منى فى الاستجابة لحبها ، بانه دليل مقاومة خفية !. ولابد أن

لهجتى قد وشت بشىء من الحيرة والاضطراب ، أو ان مسلكى قد نم عن ارتباك مكتوم ، فخرجت الفتاة من ذلك بنتيجة واحدة : هى انى لا ابادلها الحب !

.. وعلى هذا المنوال من فشلى فى مهمتى ، انقضت ايام ثلاثة من الأسبوع ، كانت عذابا متصلا ، لى ولها !.. وكنت طيلة الوقت أحس بالترقب الأخرس ، الظامىء ، فى نظراتها .. وفى صمتها !.. وفى اليوم الرابع ، لاحظت على مسلكها معى أعراض عداء ، شبه صريح !.. كنت قد توجهت لزيارتها بعد الظهر كعادتى ، واخذت لها معى باقة من الأزهار ، تناولتها منى دون أن تنظر إليها ، ثم وضعتها جانبا فى غير اهتمام ، وتحصنت وراء ستار صارم من الصمت المتحدى !.. ولما حاولت ان استدرجها إلى الحديث ، فى شتى الموضوعات ، كانت تجيبنى إجابات قصيرة شاردة توحى ــ فى وضوح مهين ــ بأن وجودى يضايقها !.. أو تتشاغل أثناء كلامى بتقليب صفحات كتاب ، أو العبث بأى شىء تجده فى متناول يدها .. ثم تثاءبت مرتين ، ونادت الخادم لتسأله عن بعض إجراءات السفر ، وعادت تسألنى : « ماذا كنت تقول !؟ » .

وبعد ساعات قضيناها فى هذا الجو من التوتر ، اقبل كيكسفالفا يدعونا إلى مائدة العشاء . وجلست اديث فى مواجهتى كالعادة ، لكنها لم ترفع عينيها لحظة عن طبق الطعام الذى امامها ، ولم توجه إلى أحدنا كلمة واحدة .. فأحسسنا جميعا بمدى ما ينطوى عليه صمتها العنيد ! وحاولت أنا ان أزيل شيئا من حرج الموقف ، فجعلت اثرثر بقصص شتى عن

leoleo www.dvd4arab.com

قائد فرقتنا ، ومبلغ ما يرهقنا به من الأعمال فى الأيام الأخيرة . وفى أثناء كلامى ذكرت أننى وجدت صعوبة كبرى فى إنهاء عملى يومئذ فى الوقت المناسب كى أزور الأسرة كعادتى ، وأن من الرجم بالغيب ان اجزم بما إذا كنت سأتمكن من تأدية زيارة الغد أم لا ؟ ولم اكن ارمى بعبارتى هذه إلى معنى معين ، بل كنت أوجه كلامى إلى كيكسفالفا فى لهجة مزاح خالصة . ولكن حدث فجأة ان قطع حديثنا صوت حاد ، إذ ألقت اديث سكينها فوق طبقها فى عصبية ، وصاحت غاضبة : « إذا كان يضايقك ان تحضر ، فيحسن أن تبقى فى معسكرك أو مقهاك ، فنحن نسطيع ان نعيش بدونك ! » .

.. وامسكنا جميعا انفسنا من هول المفاجاة — وكأن شخصا أطلق رصاصة من الخارج اخترقت زجاج النافذة ! — بينما هتف الأب منزعجا : « اديث ! » .. لكنها مضت فى كلامها قائلة : « لعل من المناسب أن نعطيه «أجازة» ولو يوما واحدا ، نعفيه فيه من زيارتنا ! » .. وتبادل كيكسفالفا وايلونا نظرة فيها كل دلائل الحرج — ولعلهما احسا انى كنت ضحية بريئة لإحدى نوبات انفعال « اديث » الحادة ! — ثم نظرا إلى فى لهفة توحى باشفاقهما من ان ارد على خشونة الفتاة بمثلها !

.. وحاولت أن اضبط مشاعرى ، فقلت بقدر ما وسعنى من هدوء : « اعتقد انك على حق يا اديث ، فان ارهاقى بالعمل فى الأيام الأخيرة جعلنى شخصا لا تروق الناس صحبته . وقد شعرت اليوم — من مسلكك طيلة الوقت — اننى اضجرتك وضايقتك ، ولكن لعلك تستطيعين أن تصبرى على زيارتى

بضعة أيام أخرى .. أربعة أيام فقط ، أو بالأحرى ثلاثة أيام ونصف ! » .

وعند هذا اطلقت الفتاة ضحكة عصبية حادة ، وقالت : « اسمعوا ما يقول : ثلاثة أيام ونصف .. هاها !.. إنه يحسب باليوم والساعة مدى الزمن الذى سوف يتخلص بعده منا ، آخر الأمر !.. واحسب انه قد اشترى خصيصا احد التقاويم ووضع علامة باللون الأحمر على يوم رحيلنا .. هاها ! .. ثلاثة أيام ونصف .. ونصف ؟ ! » . وظلت تضحك وتضحك وهى ترمقنا بعينها ، وجسدها يرتجف كالريشة ! وأحسست انها لو لم يعقها شلل قدميها لقفزت من مقعدها مندفعة ، تنفيسا عن ثورة انفعالها ، فقد كانت من فرط عجزها عن الحركة وهى غضبى أشبه بالوحش الحبيس فى قفص !.. ثم أبدت لايلونا حركة تنم عن رغبتها فى الانصراف من المكان ، فأعانتها وأبوها على الذهاب إلى مخدعها . وخرجت دون أن تتوجه إلى بكلمة وداع أو اعتذار ، تاركة إياى فى حالة ذعر ودوار ، شأن من سقط من حالق .. فى هوة سحيقة !

.. وبعد لحظات ، عادت ايلونا لتهمس لى فى اضطراب : « ينبغى أن تحاول فهم حالتها ! إنها لا تكاد تنام ساعة واحدة طوال الليل . إن فكرة السفر تسبب لها بلبلة رهيبة ، إنك لا تعرف .. » .. فقاطعتها بقولى : « بل أعرف يا ايلونا .. أعرف كل شىء .. ولهذا ساحضر غدا أيضا ! » .. ثم انصرفت ليلتئذ وانا اقول لنفسى : « احتفظ بثباتك ولا تدع

looloo www.dvd4arab.com

صبرك يخور !.. قاوم باى ثمن ! انك وعدت كوندور بذلك ، وبات شرفك معلقا فى الميزان . فلا تجعل نوباتهـا وثورات اعصابها تفسد مهمتك . واذكر دائما ان هذا العداء والتحدى هما نتيجة اليأس الذى تعانيه مخلوقة تتدله فى حبك ولا تجد منك غير فتـور مثير ، وقلب مغلق !.. قاوم حتى اللحظـة الاخيرة . لم تبق غير ايام ثلاثة ، ونصـف يوم ، وتكون قد اجتزت الامتحان بنجـاح ، وتعفى من عبئك الثقيل اسابيع او شهورا طويلة ، وربما إلى النهاية !.. فصبرا مرة اخرى .. ثلاثة ايام .. ونصف يوم ! » .

وقد كان كوندور على حق ، فان الاعباء غير المحدودة بأجل هى التى تفزعنا .. ومن ثم شـعرت وانا آوى إلى فراشى فى تلك الليلة اننى سوف أنجح فى تحمل عبئى خلال الأيام القليلة الباقية .. وامدنى شعورى هذا بثقة مجددة بنفسى ، فأديت عملى فى نهار اليوم التالى بنشاط كامل وجـلد مثـالى ، حتى انى ظفرت بكلمة إعجاب من قائد الفرقة !.. وقبيل الظهر ، اقترب منى أحد الجنود وهمس فى اذنى : « مكالمة تليفونيـة لسيدى الملازم » ، فهرعت إلى حجرة التليفون منزعجا وانا اقول لنفسى : « إن مكالمـات التليفون والبرقيات والخطابات صارت تعنى بالنسبة لى متاعب جديدة ، وانباء سـيئة .. ترى ماذا تريد منى فى هـذه المـرة ؟! » .. لكنى فوجئت بأن ايلونا هى التى تتكلم ، وقالت بصـوت فيـه مسـحة من الاضطراب : « لعله يحسن الا تحضر اليوم ، فان اديث ليست على ما يرام ! » .. فقلت لهـا : « أرجو الا يكون توعكهـا

خطيرا ؟ » .. فأجابت بعد تردد قصير : « ليس فى الأمر خطر .. ولكنى أرى من الأفضل أن ندعها تستريح اليوم ، سـيما وأن يوما واحدا لن يقدم أو يؤخر ، فأكبر الظن اننا سـنضطر إلى تأجيل سفرنا ! » .. وهنا هتفت بهـا منزعجا . اسـألها دون وعى : « ماذا ؟ » .. فأجابتنى على الفور : « لبضعة أيام فقط ، فيما نرجو .. وعلى أية حال ففى وسعنا أن نتحدث فى الأمر غدا ، او بعد غد .. وقد اتصل بك بالتليفون مرة اخرى .. وفى انتظار ذلك أرجو الا تحضر اليوم ، إذا لم تر بأسا .. و .. و .. إلى اللقاء ! » .. ثم وضعت السماعة حتى لا تتيح لى فرصة المضى فى المحادثة !

عجبا ! لم انهت المكالمة بمثل هذه العجلة ، كأنما تخشى أن أوجه إليها مزيدا من الأسئلة ؟.. وما علة تأجيل السفر ؟.. لابد ان وراء ذلك سرا !.. والأسبوع الذى تنتهى بعده مهمتى ، هل معنى ذلك انه سوف يمد ، بعد أن كان ينتهى ؟ مستحيل ! .. إنى لن اتحمل ذلك ، فان لى أعصابا انا الآخر ، ومن حقى أن أنال قسطا من الراحة !

وحين عدت بعد هذه المحادثة ، كانت ساعة الغـداء قد حانت ، فجلست إلى المـائدة بين نفـر من زملائى ، شاردا ، تدق صدغى مطارق متوالية تهتف فى وعيى : « تأجل السفر .. تأجل السفر .. تأجل السفر !.. لابد من سبب لهـذا التأجيل . لا بد أن شيئا قد حدث .. هل اديث مريضة حقا ؟ .. لقد احتملت حرج موقفى نحوها أربعة أيام كاملة ، ووطنت نفسى على ثلاثة أخرى .. اما بعد ذلك فلن أستطيع صبرا .. لن أستطيع !.. لن أدع القوم يلهون بى .. لن أدعهم يمزقون

Looloo www.dvd4arab.com

اعصابى أكثر من ذلك . كفانى ما قاسيت من عــذاب بسبب
تلك الشفقة اللعينة التى تكاد تقودنى إلى الجنون ! » .

واحسست اننى يجب ان افعل شـيئا .. اقـوم بحركة
عنيفة ـ مثلا ـ تخفف الضغط عن اعصابى ، أو أحطم اكواب
الماء بين أصابعى ، أو اقذف بها فوق بلاط القاعة !.. فنهضت
وغادرت المكان دون ان أذوق طعاما ، خشية ان ارتكب حماقة
على مرأى من إخوانى جميعا !

وفى الخارج سمعت بعض الزملاء يتراهنون على ترويض
جواد جامح ، فتطوعت للقيام بالمهمة ، كى اشفى بعض غليلى
.. وبعد أن افرغت ثورة نفسى فى ركل الحيوان المتمرد مـدى
ساعة كاملة ، وسط صيحات الإعجاب من زملائى ، ركضت
بالجواد الذى اسلست قياده ، منطلقـا به فى نزهــة طويلة
تصدت بها ان اروح عن نفسى !.. وكم كانت دهشتى حين
التقيت فى الطريق المؤدى إلى البلدة بسيارة كيكسفالفا ، تقل
صاحبها وصديقه الدكتور كوندور إلى وجهة مجهـولة !..
ولمحنى الاثنان فحيياني من داخل الســيارة دون ان يأمرا
السائق بالوقوف ! عجبا !.. ايحضر الطبيب من غيبنا دون
ان يخطرنى او يتصل بى ؟ ثم يرانى فى الطريق فلا يتوقف ؟!
ثم كيف يحضر فى موعد عيادته ؟ لا بد انهم قد استدعوه لأمـر
عاجل .. لابد ان شيئا قد حدث ، شئيا يحرصــون على الا
اعلمه !.. ترى هل الحقت الفتاة اذى بنفسها ؟.. لقد بدت
على وجهها ليلة أمس مســحة من التصميم على شىء ، ومن
الاحتقار للجميع ، شأن من تدبر أمرا رهيبا !

وســـألت نفسى « الا ينبغى ان الحق بكوندور فى المحطــة

لأستفسر منه عن جلية الأمر ؟.. ولكن لعله ترك لى رسالة فى
المعسكر ، أو لعله ينتظرنى بنفســه هنــاك ، فانه لا يمكن أن
يسافر ويتركنى فريسة لهـذه البلبلة الفظيعــة .. فلأسرع
بالعودة !

* * *

وحين وصلت ، استقبلنى تابعى قائلا إن هنــاك رجـلا
بملابس مدنية ينتظرنى فى غرفتى .. لقد صـدق حدسى ولم
يخاف كوندور ظنى !.. لكنى لم أكد أفتـح البـاب ، حتى
وجدت نفسى وجها لوجه امام : كيكسفالفا !

وابتدرنى الرجل قائلا ، فى ادبه المفرط المثير : اغفر لى
إقحامى نفسى عليك هكذا على غير انتظار يا سيدى الملازم ،
لقد كلفنى الدكتور كوندور أن أحمل إليك اعتـذاره وأسـفه
الشديد لعجزه عن التوقف أثناء إسراعه إلى المحطة ، خشية
ان يفوته القطار ! » .

كان محدثى واقفا أمامى وقد أحنى رأسه ، كأنما يثقـله
حمل غير منظور !.. وادركت من هيئته أن عنده شيئا آخـر
يود لو يفضى به إلى ، سيما وانى لم اعقل أن شيخا مثلـه ـ
ضعيف القلب والبنيــة ـ يجهد نفسه ويصعد السـلم إلى
الطابق الثالث ، لمجرد إبلاغى تحية كان فى وسـعه أن يبلغنى
إياها بالتليفون !.. لكنى مع ذلك لم أشأ أن أستفسر منه عن
شىء ، أو أبدأ الحديث ، فقد حدثتنى نفسى بأن أكون منه على
حذر ، فلا أقع فى فخه كما وقع الشاب فى فخ « الجنى » فى
قصـة (ألف ليلة وليلة) التى قرأتها منـذ ليال .. فاكتفيت
بأن قلت له :

Looloo
www.dvd4arab.com

— إنه لطف كبير منك يا هر فون كيكسفالفا ، أن تجشم نفسك كل هذه المشقة من أجلى .. هلا تفضلت بالجلوس ؟

وجلس كيكسفالفا صامتا .. وبعد ان تشاغل هنيهة بتنظيف زجاج نظارته ، بدا كانه يئس من ان استدرجه أنا إلى الحديث ، فاخذ يتكلم وهو ينظر إلى قاعدة المنضدة التى بيننا ، متحاشيا عينى .. قال : « ليس من حقى أن اغتصب المزيد من وقتك ايها الملازم .. ولكن ماذا فى وسعى أن افعل ؟ لم اعد اتحمل اكثر مما تحملت .. الله وحده يعلم ما اصابها فى اليومين الأخيرين !.. إنها تابى ان تصغى إلينا ، وتزعم انها مريضة . لكنى لا اعلم ما بها !.. إنها مسكينة تعسة ، إلى حد اليأس .. ويأسها هو الذى دفعها إلى أن تعدل عن السفر ، وتصر على هذا العدول ، برغم إعدادنا العدة له وحجزنا امكنة لنا فى عربة النوم !.. والذى يدهشنى انها كانت — حتى أمس — اكثرنا حماسة للسفر ، واستعدادا له . ولكن فجاة ، بعد العشاء ، ثارت واعلنت أنها لن تسافر ، باى ثمن ، ولو تهدم البيت فوق راسها !.. وانها فقدت اهتمامها بالعلاج الجديد ، بل يخيل إليها الآن انه خدعة يراد بها إبعادها !.. إنها تصرخ فينا قائلة : « لن تستطيعوا خداعى وتعذيبى بعد الآن .. لقد سئمت كل هذه التجارب العقيمة .. سئمت هذه الأكاذيب . إنى أفضل أن أظل كسيحة .. لست اريد ان اشفى .. ما فائدة شفائى الآن وهو .. لا يشعر نحوى بغير .. الشفقة ! » .

.. وسرى تيار كالثلج فى نخاعى حين نطق كيكسفالفا بالعبارة الأخيرة !.. لم يكن حتى تلك اللحظة قد اظهر لى ما ينم عن علمه بعاطفة ابنته اليائسة ، ربما من فرط خجله منى بعد ان رددتها خائبة !.. اما وقد افصح الآن ، فقد انعقد لسانى ، وحرصت انا ايضا على تجنب النظر إلى عينيه !.. وانعقدت فى سماء الحجرة كلها سحابة من الصمت الثقيل المرهق !

ومن انفاس الشيخ اللاهثة ادركت ان هذا الصمت يوشك ان يخنقه ، وان شرايينه توشك أن تنفجر !.. وقبل ان انتبه ، لمحته يسقط فجاة امام مقعده ، وينقلب المقعد وراءه .. فكان اول خاطر ومض فى ذهنى انه اصيب بنوبة قلبية ، كما توقع له كوندور منذ زمن .. فهرعت من فورى كى ارفعه وارى ما يمكن عمله لإسعافه .. وعندئذ فقط تبينت الحقيقة : إنه قد انزلق من مقعده عامدا ليجثوا على ركبتيه !.. لم اكد انحنى عليه ، حتى تناول يدى وراح يناشدنى فى توسل : « يجب ان تنقذها .. إنك الوحيد الذى يستطيع إنقاذها .. حتى كوندور يقول ذلك !.. انت ولا احد غيرك .. اتوسل إليك ، ارحمها !. لا يمكن أن تستمر الحال على هذا المنوال . إنها سوف تقضى على نفسها فى نوبة من نوبات اليأس ! إنها تقسم على ذلك وهى تشهق بالبكاء ، زاعمة انها بذلك تريحك وتريحنا جميعا .. وهى ليست هازلة .. فلقد حاولت الانتحار مرتين من قبل ، ابتلعت مرة اقراصا منومة ، وقطعت فى المرة الأخرى وريدا فى رسغها .. وهى متى

Laalaa
www.dvd4arab.com

اعتزمت أمرا ، لا تتراجع عنه !.. انقذها بربك .. اقسم لك
إن المسألة باتت مسألة حياة أو موت ! » .

وكنت قد رفعت الشيخ المحطم حتى أوقفته على قدميه ،
وهو ماض فى توسلاته .. ثم قلت له آخر الأمر : « ولكن
قل لى ماذا تريدنى أن أقول لها .. وماذا ينبغى أن افعل ؟! »
.. وعندئذ افلت ذراعى من يديه وحدق فى كالمأخوذ قائلا :
« ماذا ينبغى أن تفعل ؟ ألنت لا تفهم حقا ؟ أم انك لا تريد أن
تفهم ؟!.. ألم تفتح هى قلبها لك ، وتعرض نفسها عليك ؟..
إن المسكينة تكاد تقتل نفسها خجلا من اجل الخطاب الذى
ارسلته إليك فلم ترد عليه !.. إنها تعتقد انك تبغى الخلاص
منها ، وأنك تحتقرها !.. الا تدرك أن الموت أهون على مثلها
من هذا الشك القاتل الذى تتركها ــ بصمتك ــ فريسة
له ؟.. لم لا تقول لها كلمة تبث فى نفسها شيئا من الأمل ؟..
لماذا تعامل المسكينة بهذه القسوة ، وتعذبها هذا العذاب
الفظيع ؟.. إنك تكاد تقودها إلى الجنون بجمودك ، فى حين
انها لا تعيش إلا فى انتظار شىء واحد ، بل كلمة واحدة ..
هى الكلمة التى تنتظرها كل امرأة من الرجل الذى تحبه !
.. وهى ما كانت لتأمل شيئا عندما كان شفاؤها مشكوكا
فيه ، أما الآن ــ وقد بات مرتقبا فى خلال اسابيع ــ فلم
لا تطمع المسكينة فيما تنعم به غيرها من النساء ؟.. لقد أذلت
نفسها لك ، وأنت تضن عليها بالكلمة الوحيدة التى يمكن ان
تسعدها !.. فهل تزعجك الفكرة إلى هذا الحد ؟.. إنك
تستطيع ان تنال كل ما يحلم به إنسان على هذه الأرض ،

إذ لا يخفى عليك أنى رجل مريض ، طاعن فى السن ، وسوف
اترك كل ما املك : الضيعة والقصر ، والستة او السبعة
ملايين التى شقيت فى جمعها طيلة اربعين عاما .. كلها ستكون
لكما ، غدا إذا اردتما ، او اليوم ، فما عدت اطمع فى شىء !..
كل ما اتمناه شخص طيب القلب يعنى بطفلتى ويرعاها بعد
ان اموت.. وانا اعلم انك تستطيع ان تكون هذا الشخص! ».

وخذلته قواه ، فمال برأسه على المنضدة واخفى وجهه
بيديه ، حتى لقد أحسست نحوه بعطف بالغ .. فقلت وأنا
انحنى فوقه : « هر فون كيكسفالفا : لا تضن على بثقتك .
سوف نتدبر الأمر كله فى هدوء ، وإنى اضع نفسى تحت
تصرفك .. سأفعل كل ما فى وسعى .. لكن الشىء الذى
أشرت إليه الآن .. مستحيل ، مستحيل إطلاقا !.. ضع
نفسك مكانى : من انا ؟ ضابط بسيط يعيش من مرتبه
الضئيل الذى لا يكفى شخصين بحال .. اعلم ما تريد ان
تقول .. انك غنى .. واستطيع ان احصل منك على ما اريد
.. ولكنى لهذا السبب بالذات لا استطيع تحمل مجرد التفكير
فى الأمر ! سوف يقول الناس جميعا إنى تزوجتها طمعا فى
مالها .. واديث سوف تعيش حياتها معذبة بهذا الشك
ذاته !.. وستشعر انى قبلتها من اجل ثروتها وحدها ،
وغضضت الطرف عن الاعتبارات الخاصة الأخرى .. صدقنى
يا هر فون كيكسفالفا انى لا استطيع ، برغم تقديرى وإعجابى
بابنتك !.. إنك تقدر موقفى ، أليس كذلك ؟ »

Looloo
www.dvd4arab.com

وبقى الرجل صامتا لا يتحرك ، ثم تحامل على نفسه ووقف ، وبعد ان لبث فترة يترنح ــ كمن به دوار ــ قال لى اخيرا بصوت كأنه آت من بعيد :

ــ إذن .. فقد انتهى كل شىء !

ودون أن يخفض بصره الشارد ، اخذت اصابعه تتحسس مكان نظارته على المنضدة ، حتى اصطدمت بها فتناولتها ، لكنه بدلا من ان يثبتها على عينيه ، وضعها فى جيبه بغير مبالاة .. ما فائدة النظر بعد الآن ، وما جدوى العيش كله ؟ .. ثم التقط الشيخ الفانى قبعته ــ بالطريقة نفسها ــ واستدار ليذهب ، وهو يغمغم ، دون أن ينظر إلى : « اغفر لى !.. انى ازعجتك .. » .. ثم كأنما تذكر شيئا ، فخلع قبعته وانحنى لى ، وكرر العبارة ذاتها !

.. وكانت هذه الحركة من التادب البالغ ، برغم اليأس القاتل ، هى التى قلبت موازين قلبى .. فوجدت نفسى ــ مرة أخرى ــ فريسة مستضعفة لشفقتى !.. وشعرت بتيار دافق حار من الرحمة الحانية ينبثق فى أعماقى ، فيرسل الدمع المحرق إلى عينى .. بل شعرت بقلبى يذوب ، وعزمى يضعف وينهار .. ولم استطع ان ادع الرجل المسن يذهب كسير القلب ، وهو الذى جاء ليهبنى ابنته ، اعز مخلوقة عليه فى الأرض !.. لم أستطع ان انتزع حياته من جسده ، واسلمه لليأس والموت .. بل وجدت من واجبى ان اقول له شيئا يرد له بعض امله ، فاندفعت خلفه هاتفا :

ــ هر فون كيكسفالفا ، لا تسىء فهمى .. لا تذكر لها

انى .. ان هذا سوف يضرها ابلغ الضرر فى حالتها الراهنة .. ثم إنه .. غير صحيح ايضا !

لكن الرجل بدا كأنه لا يسمعنى !.. كان اليأس قد احاله إلى شبه عامود من الملح ، إلى جثة حية !.. فازدادت لهفتى على تخفيف ما به ، واردفت قائلا :

ــ اقسم لك إنى لم اقصد ان اهين ابنتك ، او اجعلها تعتقد اننى غير مشغوف بها ، فلا احد يكن لها مثل العاطفة التى اكنها لها .. وكل ما قصدته ان من غير المجدى أن اصرح لها بشىء من ذلك الآن ، فى الوقت الذى ينبغى فيه ان ينحصر اهتمامها فى العناية بنفسها ، وفى ان تحصل على الشفاء المرجو!

وهنا استدار الرجل وقد دبت الحياة فى عينيه ، اللتين كانتا خامدتين ، وسألنى : « وماذا بعد أن تشفى ؟ ! » .. فأجبته ، وقد تذكرت أن آمالها فى الشفاء ليست غير اضغاث أحلام : « حين تشفى .. سوف آتى بلا شك واسألك .. » .. وحدق الرجل فى هنيهة ، وقد هزت جسمه رعدة قوية ، ثم قال : « هل ابلغها ذلك ؟ » .

واحسست بالخطر التى تنطوى عليه إجابتى ، لكنى لم اقو على رد نظرته المتوسلة خائبة ، فأجبته بصوت حازم وانا امد إليه يدى : « نعم ، ابلغها ذلك ! » .. وإذ ذاك لمعت عيناه وامتلأتا بدموع الشكر والعرفان ، وارتجفت يداه فى يدى

loolog www.dvd4arab.com

بقوة ، ثم احنى راسه بحركة مريبة ، وتذكرت فورا انه فى مناسبة سابقة قبل يدى .. فحسبتها هـذه المرة فى الوقت المناسب ، وانا اسمعه يقول : « لست استطيع ان اشكرك ، فليكافئك الله » .

ولم اقدر خطر الوعد الذى بذلتـه فى لحظـة ضعفى ، إلا بعد ساعة كاملة من انصراف كيكسفالفا ، حين جاء تابعى يحمـل إلى مظروفا أزرق ، ففضته فوجدت فيـه هـذه الكلمات : « سنسافر غدا .. اغفـر لى مسلكى فى الأيام الأخيرة ، فقد كان ينتابنى الخوف من أن اكون حملا ثقيـلا على نفسك . اما الآن فانى أعرف لماذا ومن اجل من يجب ان اشفى ! لم اعد اخاف شيئا . تعال غدا مبكرا ما استطعت .. فما انتظرتك يوما بمثل هذه اللهفة !.. المخلصة لك دائما .. اديث » .

وارتجفت وانا اقرأ الـكلمة التى تربطنى إلى الفتـاة : « دائما » !.. اى « مدى الحياة ! » . وشعرت بأنى لم أعد أستطيع التراجع !.. لقد تغلبت شفقتى مرة أخـرى على إرادتى ، فلم أعد أملك التصرف فى نفسى !

* * *

الفصل الرابع عشر

اللقاء الأخير

تنـاولت ثلاث كؤوس من الخمـر قبل أن آخـذ طريقى إلى القصر بعد ظهر اليوم التـالى . اردت ان أستمد منهـا الشجاعة على مواجهة المـوقف العسير الذى ينتظـرنى ، والتغلب على خوفى ـ أو خجلى ، لست أدرى ! ـ ولكن الأمور جرت بأسـهل مما توقعت : استقبلنى « جوزيف » بوجـه بشوش ، قائلا : « إن الآنسة تنتظر سيدى الملازم فى الصالون منذ زمن » ، ثم اسـلمنى إلى ايلونا التى شدت على يدى بحرارة لم اعهدها منها ، وقالت ووجهها يشع إشراقا وودا : « شكرا لك يا سيدى الملازم . إنك لا تعرف مدى ما اديت لنا جميعا من جميل ، إنك قد أنقذتها !.. ولكن تعال مسرعا فانها تنتظرك ملهوفة ! » .. ثم فتح الباب واقبل كيكسفالفا مشرق الوجه ، فابتدرنى قائلا : « إنك ستدهش للتغير الذى طـرأ عليها .. إنها منذ مرضت لم تبد يوما مرحة سعيدة مثلما تبدو اليوم . حقا إنها لمعجزة ! » .

واكتسحت هذه الموجة من الشـكر والترحيب كل خوفى وخجلى ، فأسعدنى ان أكون السبب فى إسعاد الآخرين على هذا النحو . وهكذا دخلت عليها بقلب هادىء وجنان ثابت ، فوجدتها تكاد تطفر من مقعدها فرحـا ومرحا ، وقد ارتدت ثوبا من الحرير الأزرق الفاتح ، ووضعت على رأسها بضع ازهار بيضاء . وبقدر ما كانت لهجتها صبيانية كان جمالها

Lolobo www.dvd4arab.com

اكثر انـوثة من ذى قبل ! ولم تكـد ترانى حتى هتفت بى :
» اخيرا ، اخيرا !.. تعال واجلس بجانبى ، ولا تقل شيئا ،
« فعندى الكثير الذى ينبغى أن أقوله لك ! » .

وحين فعلت ، استطردت قائلة بلهجـة من تزن كل كلمة
تفوه بها : « اصغ إلى ، ولا تقاطعنى : لقد عرفت كل ما قلته
لأبى ، وما اعتزمته من اجلى . والآن صدقنى حين اعدك بانى
لن اسالك يوما او اسال نفسى : هل فعلت ذلك من اجل ابى أم
من اجلى ، وبدافع الشفقة ام بدافع .. كلا ، لا تقاطعنى ،
فانى لا اريد ان اعرف جواب هذه الأسئلة ، لا اريد ان استمر
فى تعذيب نفسى وغيرى بهذه الشكوك .. ويكفى أن تعلم أنى
لم أعد إلى الحياة ولن اقوى على الحياة إلا بفضلك ، بل إنى
احس أن حيـاتى لم تبدأ إلا أمس !.. ولتثق بانى سـوف
استسلم لما يريده الأطباء منى استسلاما مطلقا ، وسأناضل
فى سبيل الشفاء ــ وقد عرفت ما يتوقف عليه ــ بكل عصب
وكل ذرة من جسمى ، وكل قطرة من دمى . ويخيل إلى أن
الإنسان حين يريد شيئا بمثل هذه الاستماتة الملحة ، فان الله
لا يضن عليه به !.. كل هـذا سوف افعـله من اجلك ، كى
لا احملك تضحية ما فى سبيلى . ولكن إذا لم تسر الأمور على
ما يرام ، اى إذا لم أحصل على الشفاء التام واصبح مثل بقية
الناس ، فلا تخش شيئا .. فانك لن ترانى بعـد ذلك ، أو
تسمع عنى .. ولن أصبح عبئا عليك ، لأنى لن أصبح عبئا
على أحد على الاطلاق !

.. هذا ما اقسم لك عليه . والآن لا تعلق على قولى بكلمة ،

إذ لم تبق أمامنا غير ساعات معدودات نقضيها معـا قبـل
سفرى ، وانا اريدها ان تكون ساعات هنيئة حقا ! » .

وعلى غير شعور منى ، وجدتنى ادنو بمقعدى من اديث ،
واتناول يدهـا فى يدى .. ثم مضينا نتحـدث ونثرثر فى غير
تكلف ، فى كل موضوع خطر ببالنا .. ثم انتقلنـا إلى غرفة
المائدة ، حيث كان الشمعدان الفضى يعكس اضواء الشموع ،
والأزهار تشرئب بأعناقها من آنيتها كالشهب الملونة ، والمرايا
تعكس انوار الثريات البللورية .. والأشجار فى الخارج تتنفس
فى هدوء ، والهواء الدافىء يعبث بالمروج العطرة ، ثم يعـود
محمـلا بأريج عذب خفيف !.. كل شىء كان يبـدو أبهج من
المألوف .. فأكلنا وتحدثنـا وشربنا نخب شفاء اديث « من
أجلى » ! ــ كما قالت وهى ترفع الكأس إلى شفتيها ــ بينما
طافت الدموع بمقلتى أبيها وهو يرفع عينيـه إلى السمـاء
مبتهلا .. ومضى الرجـل يرحب بى محييـا محتفيـا ، حتى
استخفنى التأثر فقمت وعانقته !.. وحين لمحت عينى اديث
تتبعانى ، وشفتيها تختلجان شوقا ، اسرعت فانحنيت عليها
وطبعت قبلة .. على فمها !.. لكنها لم تلصق صدرها بى كما
فعلت فى المرة الأولى ، بل تلقت قبلتى هذه المرة فى وقار ، كما
تتلقى هدية ثمينة !.. وسمعنا صوتا مكتوما صادرا من أحـد
الأركان .. كان جوزيف يبكى فرحا لفرحة سيدته ، فخلنا دموعه
تنحدر ساخنة من أعيننا نحن !.. وفجأة شعرت بيد اديث
فوق يدى ، وقالت لى : « أعطنى يدك لحظة » .. وإذا شىء
بارد ناعم ينزلق فى خنصرى : كان خاتمـا من الذهب !.. ثم

Looloo www.dvd4arab.com

همست لى فى لهجة المعتـــذرة : ! كيما يذكرك بى حين أكون بعيدة ! » .. فتناولت يدها وقبلتها !

وطيلة السهرة كان جبين الفتـــاة يلمع بندى الانشراح ، وعيناها تعكسان أشعة من السعادة الخالصة .. وتملكنى زهو من يشعر بأنه صاحب الفضل فى كل هـــذا الحبـــور ، والبهجة ، والانشراح الذى ساد الجميع !.. وعنـــدما حان وقت الانصراف ونهضت ، خيم على جو المكان ظل من الكآبة والأسف لانقضاء الليلة الرائعة .. ولأول مرة شعرت بضيق من فكرة مفارقة اديث — وكنت قـــد أجلت انصرافى واطلت البقاء ، عزوفا عن توديع هذه الفتاة التى تحبنى — فلما لم يعد مفر من الرحيل ، صافحتها ثم القيت ذراعى حولها معانقـــا ، وقبلتها فى فمها ! وإذ ذاك شعرت بها تحبس أنفاسها ، كأنمـــا لتحتفظ بحرارة أنفاسى أطول مدة ممكنة !.. وأخيرا صافحت الباقين وغادرت الحجرة ، يغمرنى شعور الارتياح الذى يخامر المرء بعد أن يفرغ من تأدية مهمة ناجحة !

لكنى لم أبلـــغ البـــاب الخارجى ، واتهيأ لتنـــاول قبعتى وسيفى من جوزيف ، حتى لحق بى كيكسفالفا وكأنه لا يقوى على أن يفارقنى ، وراح يكيل لى عبارات الامتنـــان والمديح ، وحيائى يعوقنى عن أن اقطع حديثه لأنصرف .. ولو فعلت ، لنجوت من رؤية المشهد الفظيع الذى وقع على الأثـــر : إذ لم تمض لحظات حتى سمعنا صوت اديث وايلونا تتجادلان جدلا عنيفا . كانت الأولى تصر على شىء والثانية تحاول أن تمنعها ، دون جدوى .. ثم بلغت آذاننا طرقات العكازين على الأرض ،

واقبلت اديث تتوكأ عليهما حتى بلغت باب الردهة التى كنا فى أقصاها ، فتوكأت عليه فى حركة من تستجمع قوتها للقيـــام بمجهود أكبر .. ثم أقبلت فى اتجاهى تترنح على ساقيها دون سند من عكازيها ! — مستعينة على حفظ توازنهـــا بحركات ذراعيها — حتى لم تبق بينها وبينى غير خطوتين ، ثم خطوة واحدة !.. وإذ كانت تتم المعجزة ، فاضت بهـــا نشـــوتها ولهفتها على احتضانى ، فمدت ذراعيها نحـــوى قبل الأوان .. وعندئذ ، اختل توازنهـــا فسقطت عند قدمى ، مهيضة الجناحين !

حدث ذلك كله فى لحظات ، أقعدتنا الدهشة خلالها عن أن نحول دون وقوع الحـــادث !.. فلما وقع ، اجفلت أنا إلى الخلف مذعورا — بدلا من أن أنحنى على الفتاة فأقيل عثرتها ! — بينمـــا خف كيكسفالفا وايلونا وجوزيف إلى المســـكينة فحملوها ، وهى تنشج بالبكاء كمدا ويأسا ، وخجلا .. منى ! .. وفى لحظة انزاح عن عينى ضباب الوهم الذى سيطر على مشاعرى طيلة السهرة ، فتجلت الحقيقة أمامى سافرة ، بكل بشاعتها : إن الفتـــاة لن تشفى ! ستظل كسيحة على هذه الصورة مدى الحياة !.. وأنا الذى حسبت نفسى إلها يزهو على مخلوقاته بالسعادة التى أفاءها عليهم طيلة السهرة ، عدت فجأة مخلوقا ضئيلا ضعيفا ، فى أمس الحاجة إلى من يرثى لحاله !

وفى ظل هذه الصدمة النفسية المروعة ، وجدتنى عاجزا عن أن أبقى إلى جانب الفتاة كى أشجعها فى محنتها ، وأقوى فى

www.dvd4arab.com

نفسها إيمانها وأملها فى الشفاء : بالكذب ، والباطل ، والخداع المرير !.. فاختطفت قبعتى وسيفى وفررت من البيت — لثالث مرة — كالمجرم الأثيم !.. ومضيت فى الطريق استجدى الهواء لأنفاسى ، وبى إحساس من يوشك أن يختنق .. هل كان الهواء محملا بالغبار ، أم كان النبيذ يغلى فى عروقى ، أم كان حنقى هو الذى يكاد يخنقنى ؟.. لست أدرى سوى أنى فتحت ياقة سترتى ، وقد أحسست كأن دمى الحار يريد أن يطفر من جلدى من فرط ما كان يتدفق فى رأسى ويدق أذنى ، وكأنه وقع عكازى أديث !

وجف حلقى من الانفعال والظمأ ، فهرعت إلى أقرب حانة صادفتها فى طريقى ، غير عابىء بحقارتها ، وتخصيصها لطبقة الجنود وتحريمها على الضباط . وكنت أعتزم أن أتناول قدحا من الصودا المثلجة ثم أنصرف ، لكنى تبينت عجز ساقى عن أن تحملانى ، من فرط الدوار الذى أصابنى ، بتأثير الخمر والانفعال ، والهواجس المحمومة التى تناهبتنى ، فأشعلت سيجارة واعتمدت رأسى بين كفى، محاولا تهدئة ثائرة نفسى..

ولكن كيف السبيل إلى الهدوء ، وطرقات العكازين تلاحقنى ، وسلسلة الأحداث التى تتابعت تتخبط فى رأسى ؟! ألم يربطونى إلى الفتاة برباط أقوى من الخطبة ، فيضعونى فى موضع المسئول عن حياتها أو موتها ؟.. لكنى قبلت الفتاة فى فمها باختيارى ، فورطت نفسى أكثر مما ورطونى !.. رباه ! كيف حدث ذلك ؟ كيف انتهت الأمور إلى هذا الوضع ؟ كيف يمكن أن أتزوج امرأة كهذه ؟.. إنها ليست امرأة حقيقية ..

إنها !.. كم كان بشعا منظرها وهى « تتكوم » عند قدمى كجوال من الحنطة !.. إننى أرفض الزواج من مثلها ولو أعطيت مال الأرض كله ، وما قيمة المال ، فى رفقة حطام بشرى كهذا ؟.. ولكن كيف السبيل إلى الفرار من هذا المأزق ؟ غدا سوف تقف البلدة كلها على النبأ ، قد يعلنونه فى الصحف ، وعندئذ يستحيل على التراجع !.. ثم هناك أسرتى أيضا : ترى كيف تتلقى خبر زواجى من كسيحة ، ومن أصل يهودى أيضا ؟.. وهناك زملائى فى الفرقة ؟ ماذا يقولون عنى ؟ لسوف يؤكدون ساخرين أنى بعت نفسى لبقرة عاجزة تدر ذهبا !.. وسيطلبون جميعا منى — إمعانا فى الاستهزاء — أن أقدمها لهم ، نعم أقدمها لهم بعكازيها ومقعدها ذى العجلات ! .. فلا يقع بصرهم عليها حتى ينفجروا ضاحكين ، متصايحين : « ها هاها .. هذا يفسر سر السبعة ملايين .. لقد أعطوه العكازين ضمن المهر ! » .

يا للهول !.. أين أنا ؟.. نظرت حولى متعجبا . لابد أنى أغفيت بعض الوقت ، ترى هل لاحظ رواد الحانة فى مسلكى شذوذا ؟.. إنهم سيسخرون منى بعد خروجى .. وغدا سوف تسخر البلدة كلها منى وراء ظهرى .. ولن يشفق أحد على الغبى الأحمق الذى صار عبدا ذليلا لشفقته !

إلى أين أذهب الآن ؟ إلى أى مكان عدا غرفتى الخاوية ، التى تنفرد بى فيها هواجسى المروعة !.. خير ما أفعل أن أتناول مزيدا من الخمر ، شيئا باردا لاذعا يزيل هذه المرارة من فمى ، وهذه الأفكار من رأسى !.. يكتسحها ، يحرقها ، يقتلها ، يبيدها !

Looloo www.dvd4arab.com

وقادتنى قدماى دون أن أشــعر إلى المقهى المشرف على الميدان الكبير ، وكانت أنواره ما تزال مضــاءة .. آه ، إلى الشراب ، إلى الشراب !.. ولم أتذكر إلا بعد دخولى أننى قد سعيت بقدمى إلى حيث تكمن « العصــابة » كلهــا ، عصابة الزملاء والأصدقاء : فيرنز ، وستاينهوبل ، وجوسى ، وطبيب الفرقة .. وبقيتهم !

ولكن لماذا يحدجنى جوسى هكذا بنظرة دهشة ، بل فزع ؟ ثم لمــاذا يومىء إليهم بعينه فيقطعون نقاشهم الحــامى فجأة ويستديرون بأبصارهم نحوى ؟.. وكان محالا أن أنســحب بعد أن راونى ، فحزمت شجاعتى وحييتهم ثم جلست .. لكن الجو ظل ملبدا ساكنا برهة ، كأنما قد عكرت عليهم خلوتهم .. وأخيرا قطع جوسى حبل الصمت فسألنى : هل نستطيع أن نهنئك ؟ » .. فأجبته من فورى قبل أن أدرك مغزى سؤاله : « تهنئوننى بماذا ؟ » .. فانبرى يقول ، متشبثا بالفرصة التى أتاحها له تساؤلى : « إن صديقك الصيدلى ــ وكان هنا منذ هنيهة ــ ذكر أن كبير خدم كيكسفالفا قد أنبأه بالتليفون منــذ قليل ــ نيابة عن ســيده ــ أنك قد خطبت الـ ... فلنقــل الآنسة التى هناك ! » .

وتركزت الأبصار كلهــا على فمى .. وخشيت أن يسخر الجميع منى إذا اعترفت .. فأجبت متنصــلا من التهمــة : « هذا هراء ! » .. لكن جوابى لم يشف غليلهم ، فقال فيرنز وهو يربت على ظهــرى : « إذن فأنا على حق ، والخبر غير صحيح ، أليس كذلك ؟ » .. وزادنى هذا السؤال تورطــا فى

النفى ، وشعرت بسخف محاولتى أن أوضح ــ فى مقهى ــ أمرا شائكا عجزت عن إيضاحه وأنا فى خلوة مع نفسى.. فقلت محتجا ، دون ترو : « غير صحيح على الاطلاق ! » .. وإذ ذاك ساد الصمت برهة ، وتبادل الجميع نظرات الدهشة .. حتى أفاقوا منها على صوت فيرنز يدق المنضــدة بيــده ويصيح بلهجة المنتصر : « ألم أقل لكم إنى أعرف هوفميلر حق المعرفة ، وأن هذا النبأ لابد أن يكون أكذوبة ، أكذوبة قذرة من جانب الصيدلى اللعين ؟.. آه ، سوف ألقى على التعس درسا لن ينساه ، كى يكف عن تلويث سمعة الناس بالباطل !.. ولكن أرأيتم صدق ما قلت لــكم ، من أن هوفميلر ليس بالشخص الذى يبيع نفسه من أجل حفنة من المــال ؟ » .. ثم استدار صديقى نحوى وضربنى على ظهرى بيده الثقيلة مازحا ، وهو يقول : « لكم أنا مسرور لأن الخبر غير صحيح .. وإلا للوثك ولوثنا جميعا ، بل للوث الفرقة بأسرها ! » .

.. ثم أضاف ستاينهول قائلا : « كلنا مسرورون بنجاتك من قبضة ذلك المرابى ، الذى دمر بحيله القذرة « نيوندورف » المسكين . وإنه لمن سوء الحظ أن يسمح لأمثــال هؤلاء بجمع الثروات وشراء الضياع والألقاب ! » .. وهنــا قال ثالثهم : « الواقع أنى منــذ البداية لم أكن مستريحا إلى كثرة ترددك على أولئك القوم ، لا لأنى أعرف عنهم شيئا يشينهم ، بل لأننا نحن الضباط يجب أن نكون متحفظين فى الاختلاط بالنــاس ، فنعرف كل شىء عنهم قبل أن نشرف بيوتهم بزيارتنا .. يجب أن نحتفظ بأيدينا دائما نظيفة ! » .

Looloo
www.dvd4arab.com

.. وتتابعت تعليقات الزملاء اللاذعة على هـذا النمط ، وتباروا فى التعريض بكيكسفالفا وابنته « البشعة » !.. بينما جلست انا كالأخرس بلا حـراك ، وإن وددت لو أصرخ فيهم معترفا بانى انا الكاذب الجبان ، وليس الصيدلى !.. لكنى ادركت أن فرصة التراجع عن إنكارى قد فاتت ، كما ادركت فظاعة الخيانة التى ارتكبها بسكوتى هذا فى حق اديث البريئة المسكينة ، فوددت لو تنشق الأرض وتبتلعنى !.. ولم ادر إلى اى جهة انظر ، ولا ماذا افعل بيدى اللتين قد ترتجفان فى اية لحظـة فتفضحانى .. وانتهزت اول فرصـة فخلعت خاتم « الخطبة » من أصبعى وأخفيته فى جيبى ، قبل ان امد يدى لأصدقائى مصافحا مودعا !.. وخرجت إلى الميدان الغارق فى ضياء القمر ، وقد أفقت تماما من سكرتى وبلبلة افكارى .

ادركت حقيقة ما فعلت ، وما بات واجبا على أن افعل .. ففى الساعة العاشرة مساء ارتبطت بخطبة فتاة .. وبعد اقل من ثلاث ساعات تنصلت من تلك الخطبـة فى جبن ونذالة !.. وامام سبعة شهود سمحت لنفسى — وخاتم الخطبة فى اصبعى — بأن اتلقى المديح والاطنـاب من اجل اكذوبتى المرذولة .. وامتهنت — امتهانا غادرا — شرف فتاة اخلصت لى الحب ، مخلوقة عاجزة مسلوبة الحول والطول ، لا ترتاب فى شىء !.. بل تركت اباها يهـان امامى ويثلم شرفه ، دون ان احتج او ادافع ، وقبلت ان يرمى شخص بالكذب على مسمع منى ، وهو لم يقل إلا الصدق !

.. وهكذا لن يطلع الصباح حتى تكون الفرقة بأسرها قد

وقفت على عارى ، والذين كالوا لى الليـلة المديح سـوف يتنكرون لى غدا !.. ومتى افتضح كذبى فلن البث ان اجرد من رتبتى ، ويتعذر على أن اعود لرؤية الذين غدرت بهم غيلة ! .. وحتى العمل الذى وعدنى به « بالنكاى » ، فى مؤسسات زوجته ، سوف يأباه على بعد انتضاحى .. وهذا دمرت تلك الدقائق الثلاث التى جبنت خلالها ، حياتى كلها .. فلم يبق امامى غير مخرج واحد : « المسدس ! » .

إذ ادركت بوضوح ان لا سبيل يحفظ لى شرفى غير ذلك السبيل : انتقلت إلى التفكير فى الطريقة التى انفذ بها عزمى ، فجعلت وانا اذرع الشـوارع المقمرة ادبر ادق تفصـيلات الساعتين او الساعات الثلاث الباقية لى على قيد الحياة !.. قررت أن اكتب اولا خطابا إلى والدى اعتذر اليهما فيـه من اجل الألم الذى سوف اسببه لهما .. ثم خطابا إلى « فيرنز » أرجو فيه أن يعدل عن الاشتباك مع الصيدلى بسبب ما قاله ، ما دامت المسألة سوف تسوى بموتى !.. وخطابا ثالثا إلى قائد الفرقة ، استحلفه فيه أن يسدل على الموضوع كله ستارا من السرية ، ما امكنه ذلك ، وأوصيه بدفنى فى فيينـا ، دون جلبة او مشهد عسكرى .. ثم اختم رسائلى بخطاب اخير إلى كيكسفالفا اسأله فيه أن يؤكد لاديث عواطفى الحارة نحوها ، ويطلب منها الا تفـكر فى كثيرا !.. اما ثيابى وساعتى فتؤول إلى تابعى ، واما خاتمى وعلبة سجائرى الذهبيـة فتعود إلى كيكسفالفا .. وماذا ايضا ؟ آه لابد من حرق خطاب اديث ، بل جميع الخطابات والصور التى فى حوزتى ، كى لا اترك ورائى

Loofoo www.dvd4arab.com

شيئا ما ، ولا اخلف اثرا او ذكرى ، وإنما اختفى — كما عشت — دون ان اثير انتباه احد ! .. فاذا ما اتممت هذه الإجراءات ، فسوف اتمدد على فراشى واغطى جسمى وراسى بكل الاغطية التى عندى ، وفوقها اللحاف السميك — كى يحجب صوت الطلق النارى عن الأسماع — ثم اضع فوهة المسدس على صدغى .. واطلق الرصاص !

وكنت قد وصلت إلى باب المعسكر ، بعد ان تجولت على غير هدى حوالى ساعة ، اعددت فيها برنامج موتى — بدقة وصفاء ذهن لا اذكر انى اعددت بهما اى تدبير فى حياتى ! — ولم يبق إلا ان اعبر الفناء واصعد طوابق المبنى الثلاثة ، ثم اخلو إلى نفسى كى ابدا — واتم — كل شىء !

.. لكنى لم اكد اقترب من الباب ، حتى برز لى فى الظلام شبح ، سرعان ما تبينت فى ضوء القمر انه .. قائد الفرقة ! .. ترى بماذا سيعلق على عودتى فى هذه الساعة المتاخرة من الليل ؟.. ولكن إلى الجحيم به وبالفرقة ، فانى فى الصباح سوف امثل بين يدى من لا يقاس هو به ! .. ونادانى الكولونيل بصوته الصارم : « ملازم هوفميلر ! » ، فوقفت امامه واديت التحية ، بينما اردف هو قائلا : « لعل احدث زى الحظه عليكم انتم الضباط الشبان فى هذه الأيام انكم تتركون ستراتكم نصف مفتوحة ! .. هل تحسبون اننى اسمح لكم بالتجوال بعد منتصف الليل على هذه الصورة ؟ كلا ! لن اقبل هذا ! إن ضباطى يجب أن يحتفظوا باناقة هندامهم فى كل وقت ، اتفهمنى ؟ » .. ثم تركنى ومضى دون أن يحيينى ! .. رباه ،

اتكون آخر عبارة اسمعها فى حياتى عبارة لوم وتوبيخ ؟ كلا ! لابد ان الحق به كى ابرر له مسلكى واشرح عذرى ، بمثل الحرص التقليدى المالوف من جانب المنتحرين على أن يلقوا حتفهم بصحيفة بيضاء ناصعة ، حتى ليعمد الرجال منهم إلى ارتداء ثياب نظيفة — والنساء إلى التزين بالأصباغ والعطور — قبل أن ينهوا حياتهم ، بدقائق معدودات !

وهكذا هرعت خلف القائد .. حتى لحقت به على السلم ، فسالته ان يسمح لى بالتحدث إليه ببضع كلمات . وبرغم دهشته ، دعانى الرجل إلى الصعود معه إلى غرفته ، وكانت فى بساطة حجرات ضباط « آسبرطة » القدامى المتقشفين .. وهناك ابتدرنى متسائلا : « اهى مشكلة مالية ، تلك التى تبغى ان تحدثنى فيها ، أم نسائية ؟ » .. فشرحت له أمرى باختصار ، وما انتهى إليه عزمى ، حرصا على شرفى وشرف الفرقة التى انتمى إليها ! .. وإذ ذاك راح يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، فى هيئة من يجهد ذهنه فى البحث عن مخرج ، ثم وقف تجاهى وسالنى : «من هم زملاؤك الذين سمعوا انكارك؟» .. فامليت عليه اسماء الشهود السبعة . وبعد أن كتبها فى مفكرته ، التفت إلى قائلا : « الآن اسمع الحل الذى اهتديت إليه : سوف ادعو هؤلاء السبعة لمقابلتى ، كلا على حدة ، فى ساعة مبكرة من الصباح ، واجعلهم يقسمون بشرفهم العسكرى ان ينسوا كل كلمة فهت بها امامهم ، مبررا مسلكك بانك كنت فى حالة سكر بين لم تفقه معه حرفا مما قلت .. وكذلك سوف اقنع الصيدلى — بطريقتى الخاصة — بهذا السفر ، والزمه

Looloo
www.dvd4arab.com

الصمت !.. اما انت ، فينبغى الا تبقى فى هــذه البلدة يوما واحدا بعد الآن ، وإلا تعرضت للأسـئلة والاستفسـارات والمضايقات المحرجة اينما ذهبت ، الأمر الكفيل بافتضـاح حقيقة امرك .. لذلك ساصدر فى الصـباح امرا بنقلك إلى معسكر (شازلاو) ، فعليك ان تحزم الليلة امتعتك وامتعـة تابعك كى تمثلا امامى فى الساعة الخامسة والنصف من فجر الغد — او بالأحرى : اليـوم — لتتسلما امر النقـل .. هل فهمت ؟.. وهكذا لا يبقى من ذيول حماقتك غير ما يتصـل بتأثيرها فى صلتك بكيكسفالفا وابنتـه ، وهـذا امر اترك لك تصريفه كما تشاء ! » .

وحاولت أن أعترض على هذا الحل ، بحجة انه لا يزيل غير اثر حماقتى بالنسـبة للآخرين ، اما اثرها فى نفسى وفى قرارة نفوس الشهود السبعة فسوف يظل كما هو ، وسـوف تظل لوثة تصرفى المخزى عالقة بشرفى ما بقيت على قيد الحيـاة ! .. لكن القـائد لم يقرنى على مغالاتى « الساذجة » فى توهم الأمور .. وحين تظاهرت بطاعته ، وانا ابيت النية على تنفيذ ما اعتزمت ، ادرك بحصـافته انى اضـمر لنفسى شرا .. فاستوقفنى بعد أن هممت بالانصراف ، ليقول لى: « لا تعجبنى نظرتك ايها الفتى، بحيث يخيل إلى انك تنوى ان تهزأ بكلامى، وانك تدبر شرا .. لكنى لن اسمح لك بمعالجة الأمر فى تهور وجنون ، سـواء بمسدس او باى شىء من هـذا القبيل .. أتفهمنى ؟ » .

فقلت : « نعم يا سيدى القائد ! » .

قال : « لا تحسب انك تستطيع خـداعى ، فلسـت من مواليـد الأمس القريب .. أعطنى يدك .. والآن ، اقسم لى بشرفك العسكرى يا « هوفميلر » انك لن ترتكب حمـاقة فى حق نفسك الليلة ، وانك ستمثل أمامى عنـد الفجر ثم ترحل إلى شازلاو » !

فقلت : « أقسم بشرفى على ذلك » .

قال : « حسنا ! لقد خشيت ان تقدم — فى حمى انفعالك الوقتى — على فعلة نزقة طائشة ، فانـكم معشر الشباب تميلون فى هذا السن إلى تعجل انهاء الأمور ، ولو باستعمال المسدس !.. لكنكم حين تتقدمون فى السن ، سوف تتعلمون كيف تعالجون الأمـور فى روية وتعقل .. والآن تستطيع ان تذهب ! » .

***

منـذ اللحظة التى تلقيت فيهـا أمر القائد « بالتعقل » ، كففت — بحكم نشأتى العسكرية التى تقدس طاعة الرؤساء طاعة عمياء — عن ان أفكر فى أمرى باستقلال فى الراى ، بل صار همى ان اطيع ، وكفى !.. وهـكذا لم تشرق شـمس الصباح حتى كنت وتابعى فى القطار الذاهب إلى فيينا ، ومنها إلى شازلاو .. لكن الشلل «المغناطيسى» الذى اصاب إرادتى وانا بين جدران المعسكر ، تبخر بمجرد تحرك القطار ، فالتيت عن ذهنى سباته وافقت على الصورة التى يبدو بهـا شخص

www.dvd4arab.com

القاه انفجار عنيف على الأرض ، فلما وقف على قدميه .. ادهشه أن يرى نفسه سليما من كل اذى !.. وهكذا كانت أول صدمة تلقيتها مدهوشا ، انى وجدت نفسى ما أزال حيا ! احسست كأن شخصا قد انتزع المسدس من يدى فى آخر لحظة ، كى أعيش وأواجه .. ماذا ؟.. لقد وعدنى القائد ان يسوى آثار حماقتى فيما يتصل بزملائى وأهل البلدة . ولكن ماذا يكون من شأن كيكسفالفا واديث ؟ من الذى سيشرح لهم جلية الأمر ، ويفسر لهم غيابى ؟.. لن تحين ساعة زيارتى المألوفة ، بعد الظهر ، حتى تجلس المسكينة فى انتظارى ، تضنيها اللهفة المحمومة .. لكنى لن احضر ، ولن تتلقى منى اى نبأ فى رسالة او بالتليفون .. وإذا استفسرت عنى فى المعسكر فسوف يذكرون لها انى نقلت إلى جهة اخرى بعيدة ! لكنها لن تفهم شيئا .. بل إنها ستفهم الحقيقة الرهيبة ، وعندئذ ..!؟

.. وفجأة خيل إلى انى ارى عينى كوندور تهددانى من وراء نظارته ، وصوته يصيح بى : « إنها تكون جريمة قتل ! قتل متعمد ! » .. وتلت هذه الصورة فى خاطرى صورة اخرى محتها : صورة اديث وقد رفعت جسمها من مقعدها ، وانحنت على سور الشرفة ، المطل على الهاوية السحيقة !.. فحدثت نفسى فى انزعاج : ينبغى ان افعل شيئا على عجل !.. ارسل إليها برقية من أقرب محطة ، احول بينها وبين الإقدام على فعلة طائشة .. ولكن كلا ، انا الذى ينبغى الا اقدم على اى تصرف طائش ، هكذا أوصانى كوندور ، ملحا على فى ان أبادر بالاتصال به قبل ان اخطو اية خطوة ! إذن فلأفعل !..

من حسن حظى ان أمامى ساعتين اقضيهما فى فيينا ، بين موعد وصول قطارى ورحيل القطار الذاهب إلى شازلاو ! وهكذا لم يكد القطار يقف فى محطة فيينا حتى تركت أمتعتى فى حراسة تابعى وركبت سيارة اجرة نهبت بى الطريق إلى منزل كوندور . وقطعت الطريق كله وانا اصلى وأبتهل ، راجيا ان اجده فى البيت .. ولكن رجائى خاب ! فاضطررت ان اكتب إليه خطابا تسلمه إليه زوجته عند حضوره .. وفيه رجوت منه ان يهرع من فوره إلى كيكسفالفا ، بقطار الساعة الثانية ، كى يصل قبل موعد زيارتى المنتظرة ويشرح لاديث كل شىء !.. ورويت له تفاصيل حماقتى الأخيرة ، راجيا منه ان يصارح الفتاة بها على حقيقتها ، كى لا ترانى فى صورة تفضل الواقع .. لا ترانى بريئا وانا المذنب !.. فاذا استطاعت — برغم ضعفى — أن تصفح عنى ، فسوف اعتبر خطبتنا اكثر جدية وقداسة منها فى اى وقت مضى — فانها لم تصبح فى نظرى مقدسة حقا إلا الآن ! — وإذا سمحت لى بأن اصحبها إلى سويسرا فانا على استعداد لان اعتزل الخدمة فورا واذهب معها ، والازمها فى المستقبل ، سواء شفيت بعد مدة وجيزة ام طويلة ، أو لم تشف على الاطلاق !.. ذلك لأنى ابغى ان افعل كل ما فى وسعى للتكفير عن جبنى واكاذيبى ، وقد صار هدف حياتى الوحيد الآن أن اثبت لها انى لم أخنها هى بحماقتى ، بل خنت الآخرين وحدهم .. كل ذلك ينبغى ان يقوله كوندور لها بصراحة تامة ، فانى لم أتبين إلا اليوم كم هى اثيرة عندى ، اكثر من اصدقائى ، ومن

Looloo
www.dvd4arab.com

عملى ، ومن خدمتى العسكرية !.. هى وحدها التى تملك أن تقدر موقفى وتصفح — أو لا تصفح — عنى .. وفى يدها وحدها مصيرى !.. لذلك فانى الح عليه فى أن يدع كل شىء ويستقل قطار الساعة الثانية بغير إبطاء ، كى يصل قبل الرابعة والنصف ، موعدى المألوف .. وإلا تعرضت حياة الفتاة للخطر ! » .. ولم أشعر إلا حين وضعت القلم ، بما أنا مدين به للقائد الذى أنقذ حياتى ، كما شعرت بأنى منذ تلك اللحظة مرتبط مدى الحياة بشخص واحد ليس غير ، بالمرأة التى أحبتنى !

وسلمت الرسالة لزوجة الطبيب ، ثم انحنيت على يدها فقبلتها .. وحين رفعت بصرى إليها لم استطع ان افهم كيف بدت لى هذه المرأة العمياء فى البداية قبيحة الخلقة !.. فقد أشرق وجهها الآن بنور المحبة والعطف الإنسانى ، حتى لقد أحسست أن تينك العينين اللتين لم تعكسا غير الظلمة الأبدية ، تعرفان من حقائق الحياة أكثر من كل العيون المبصرة ، المفتوحة على الدنيا بأسرها !

وغادرت البيت وبى إحساس من شفى من مرض طويل ! .. لم أعد أرى أن ثمة أية تضحية منى فى ارتباطى مدى الحياة بمنبوذة مستضعفة ، عديمة الحيلة !.. كلا ، فليس الإنسان السليم ، الأبى ، الفرح ، السعيد ، هو الذى ينبغى أن نحبه ، فمثله ليس فى حاجة إلى حبنا ! إنه فى غطرسته وعدم مبالاته يتقبل هذا الحب منا على أنه واجب علينا ، نؤديه له صاغرين .. والحب المتفانى من جانب شخص آخر

نحوه يكون بمثابة زخرف ، لمجرد الزينة .. حلية للشعر ، أو سوار للمعصم .. وليس نعمة حياته كلها ، وسر وجوده !.. ولا يستحق الحب وينتفع به غير الذين قست عليهم الحياة ، فأذلتهم وحرمتهم نعمة الحواس ، أو الجمال ، أو الاطمئنان ، أو اليقين !.. والذى يكرس حياته لمثل هؤلاء إنما يعوضهم بعض ما سلبتهم الحياة .. وهم وحدهم الذين يعرفون كيف يحبون ويتلقون الحب ، كما ينبغى للإنسان أن يفعل ، فى تواضع وامتنان !

ووجدت تابعى ينتظرنى حيث تركته ، فمضيت به إلى قطار (شازلاو) ، وقد غمرنى شعور بالارتياح لا يوصف .. لقد أنقذت نفسى وأنقذت حياة إنسان آخر ، ولم أعد نادما على حماقتى الأخيرة ، بل إنها — على العكس — هيأت لمن كانوا يثقون بى أن يعلموا أنى لست بطلا أو قديسا ، أو إلها تنازل فرفع إلى سمائه مخلوقة مريضة بائسة !.. فلئن تقبلت اليوم حبها فما عاد الأمر ينطوى على تضحية أو شبهها .. كلا !.. بل أنا الذى يستجدى الغفران الآن ، وهى التى تمنحه !

ولكن ، ماذا لو لم يعد كوندور إلى بيته فى الوقت المناسب لأن يلحق بقطار الساعة الثانية ؟.. ومرة أخرى مثل فى خاطرى مشهد الشرفة المطلة على الهاوية ، فانتظرت بصبر نافد وقوف القطار فى المحطة التالية وهبطت منه إلى مكتب « التلغراف » المقام على الرصيف ، حيث أرسلت منه البرقية التالية : « اديث فون كبكسفالفا — فيينا كيكسفالفا : ألف

Looloo www.dvd4arab.com

تحية واطيب التمنيات . انتدبت لعمل بعيد . سأعود قريبا .
كوندور سيوضح لك كل شيء . سأكتب حال وصولى —
محبك المتفانى . هوفميلر » .. وعندئذ فقط استراح بالى
وسكنت مخاوفى ، فشعرت بمدى الاجهاد الذى اعانيه بعد
يومين شاقين وليلتين مسهدتين .. وحين وصلت فى تلك
الليلة إلى (شازلاو) اقتضانى الأمر أن أتحامل على نفسى
كى أبلغ غرفتى فى الطابق الأول من الفندق ، حيث غرقت فى
النعاس من فورى ، كما يغرق الإنسان فى بئر عميقة !

واعتقد اننى اغفيت فى اللحظة التى لمس فيها راسى
الوسادة . وبعد فترة ليست بالقصيرة رايت فيما يرى النائم
انى واقف وسط حجرة الانتظار بمنزل كوندور ، وفجاة تناهى
إلى سمعى ذلك الصوت الخشن المروع الذى ما فتىء منذ
أيام يطرق صدغى ، صوت طرقات العكازين على الأرض :
تاك ، تاك ، تاك !.. اخذ الصوت يقترب ويزداد وضوحا حتى
خلته قد بلغ حجرتى ، فهببت من نومى مذعورا ، لأسمع طرقا
على بابى !

.. حملقت هنيهة فى ظلام الغرفة حتى استوثقت من انى
لم اعد احلم ، وعندئذ قفزت من فراشى وفتحت الباب ..
فاذا خادم من خدم الفندق ينبئنى بأن هناك من يطلبنى
بالتليفون من فيينا !.. وطار النوم من عينى ! لابد انه
كوندور !.. وفى مثل لمح البصر ، تبعت الخادم وانا اكاد
اعدو .. لكنى حين تناولت السماعة لم اسمع غير ازيز متقطع
كأزيز أسراب من البعوض .. فصحت وصحت : « ألو ..

الو » ، ولكن بلا جواب !.. لا شيء غير الأزيز المتقطع !..
ولم أدر هل سرت الرعدة فى أوصالى بسبب ثيابى الخفيفة ،
أم أن خوفا مفاجئا اعترانى فجعل اسنانى تصطك ؟.. ترى
ماذا حدث حتى جعلهم يطلبوننى بعد منتصف الليل ؟..
وعدت أصيح ، واهتف ، وانتظر .. واخيرا سمعت صوتا
يقول : « القيادة العليا فى (براج) تتكلم .. هل انت وزارة
الحرب ؟ » . فصرخت حانقا : « كلا .. ! » .. وبعد حين
خاطبنى العامل قائلا : « آسف ، لقد اخلى الخط لمحادثة
حكومية مستعجلة ، سأدق لك الجرس حالما ينتظم الخط مرة
أخرى ! » .. ولبثت انتظر على مقعد خشبى صغير ، وانا
انتفض من البرد والخوف ، وجبينى يتفصد بعرق الانزعاج
.. وانقضى نصف ساعة ، وتبعه نصف ساعة آخر !..
ما معنى هذا ؟ لماذا يتركوننى انتظر كل هذا الوقت الطويل ؟..
هذا إجرام !.. هذا جنون !.. فى مدى ثانية واحدة من
الزمن يمكن ان يموت إنسان ، ويتقرر مصير ، أو ينهار عالم
بأسره !.. واخيرا دق الجرس ، ليقول لى العامل فى غير
خجل : « لقد الغيت المحادثة ! » .. الغيت المحادثة ؟ ما معنى
ذلك ؟.. ايطلبوننى بعد منتصف الليل ثم يلغون الطلب ؟..
لابد ان شيئا قد حدث ، شيئا يجب ان اعرفه فورا ! ما افظع
ان يعجز الإنسان عن ان يخترق الزمن والمسافة !.. ولكن
ماذا فى وسعى ان افعل ؟

لست استطيع ان أصف كيف قضيت تلك الليلة ، ولا أن
أصف بشاعة الأفكار والهواجس التى تنازعتنى خلالها ، وانا

looloo
www.dvd4arab.com

انتظر وانتظر ، بكل عصب فى جسمى .. وانصت واتسمع لكل صوت على السلم ، وفى الممر ، والشارع ، عسى أن تتجدد المحادثة .. حتى انتزعنى النعاس والارهاق من وعيى ، نعاس شبيه بالموت والعدم !

وحين صحوت ، كان نور النهار يملأ الفضاء ، فنظرت فى ساعتى ، يا لله ! العاشرة والنصف ؟.. كيف هذا ؟ لقد كلفنى القائد ان امثل امام رئيسى الجديد فى الصباح الباكر !.. ومرة اخرى ، وقبل ان يتسع لى الوقت للتفكير فى امر شخصى ، بدأ الجانب العسكرى من عقلى يعمل بطريقة آلية ، فارتديت ثيابى فى لحظات وطرت إلى مقر عملى الجديد .. ووجدت الفرقة باسرها قد اصطفت فى الفناء الفسيح ، فسارعت إلى احتلال مكانى على عجل . وبعد دقائق اقبل القائد يسير بخطوات بطيئة صارمة ، ثم نشر ورقة كانت مطوية فى يده ، وشرع يقرأ بصوت مفجوع : « لقد وقعت جريمة قتل مروعة اشاعت الذعر والأسى فى النمسا وهنغاريا وكل بلاد العالم المتمدن .. هى الاغتيال الآثم لولى العهد المحبوب صاحب السمو الإمبراطورى الأرشيدوق فرانز فرديناند ، وصاحبة السمو الإمبراطورى الأرشيدوقة !.. وإن الجيش الإمبراطورى ليشعر ... » .

لكنى لم أسمع حرفا من بقية المنشور ، فان كلمتى « جريمة » و « قتل » كانتا بمثابة طعنة وجهت إلى قلبى !.. حتى لكأننى كنت انا القاتل !.. إنهما الكلمتان اللتان استعملهما كوندور فى حديثه !.. وتذكرت نجاة تليفون

الأمس : لم لم يتصل بى كوندور هذا الصباح ؟ ترى ماذا حدث ؟.. وانتهزت فرصة الهرج الذى ساد المعسكر بعد فراغ القائد من إعلان النبأ فتسللت عائدا إلى الفندق . وهناك استقبلنى الحارس وفى يده برقية لى ، أو بالأحرى إخطار من مكتب البريد يفيد ان برقيتى المرسلة من محطة (...) فى الساعة ٣٫٥٨ من يوم أمس لم يتيسر تسليمها . عجبا ! كيف ذلك ؟.. هل يوجد فى كيكسفالفا من لا يعرف اديث فون كيكسفالفا ؟.. ولم اطق صبرا ، فطلبت الاتصال بكوندور فى بيته بصفة عاجلة ..!

وجاءت المحادثة بعد عشرين دقيقة ، وكان كوندور فى البيت ــ ويا للعجب ! ــ بل كان هو الذى رفع السماعة . وفى ثلاث دقائق سمعت القصة بحذافيرها : لقد تدخل القدر بنشاط عجيب فأفسد كل تدبيرى ، وتدبير قائد الفرقة : فان فيرنز وبقية الزملاء قد التقوا بالصيدلى فى تلك الليلة المشئومة ذاتها بطريق المصادفة ، فاتهمه صديقى علنا امام الملأ بانه يذيع أكاذيب مختلقة عنى ، وحدثت مشادة كبيرة بينهما على الأثر . وفى الصباح كان الحادث موضع ثرثرة اهل البلد جميعا ، وتوجه الصيدلى محنقا إلى المعسكر كى يستشهد بى على صدق انبائه ، فلما فوجىء باختفائى قصد إلى قصر كيكسفالفا حيث اقتحم على الأب التعس مكتبه واتهمه بانه جعله موضع سخرية البلدة كلها بسبب تلك الرسالة التليفونية السخيفة .. ثم اضاف انه لن يقبل ان يوسعه نفر من الضباط الشبان إهانة واستهزاء .. وانه

Looloo
www.dvd4arab.com

يستطيع ان يستنتج سر فرارى الموصوم بالجبن ، ولن يسكت حتى يقتص منى بنفسه ، ولو اقتضاه ذلك أن يسعى لدى السلطات المسئولة فى وزارة الحرب .. الخ !

.. وبعد عناء استطاع كيكسفالفا ان يهدىء من ثائرة زائره ويصرفه ، وكان كل أمله خلال المناقشة المحتدمة الا يصل طرف منها إلى سمع اديث .. ولكن شاءت الأقدار أن تخترق كلمات الصيدلى الصاخبة ، الفضاء الفاصل بين حجرة المكتب الواقعة فى الحديقة وبين الصالون ، حيث كانت تجلس اديث ، فسمعت الحديث كله بوضوح تام !.. لكنها تظاهرت خلال الساعات القليلة التالية بأنها لم تسمع شيئا ، فضحكت وتندرت مع أبيها وايلونا فى مرح ظاهر ، وطلبت أن تعرض عليها أثوابها الجديدة ، واستفسرت عن مائة تفصيل وتفصيل مما يتصل بالرحلة .. وفى أثناء ذلك كلفت جوزيف سرا بأن يستفسر من المعسكر بالتليفون عن موعد عودتى ، وهل تركت رسالة ما ، فكان الجواب أنى نقلت من البلدة ولم أترك أية رسالة !

وكانت هذه هى الطامة الكبرى التى رجحت فى ذهن اديث كفة الإسراع بتنفيذ مشروعها ، فأبت فى ثورة انفعالها أن تنتظر يوما آخر ، أو ساعة واحدة !.. لقد خيبت أملها خيبة مريرة ، وانزلت بها ضربة قاتلة لا طاقة لها بعدها على أن تولينى مزيدا من ثقتها !.. وامدها ضعفى بقوة جبارة وعزم وطيد ، فطلبت بعد الغداء أن تحمل إلى الشرفة .. وكأنما أوحى انشراحها الزائد إلى ايلونا بشىء من التوجس ،

فلم تفارقها طيلة الوقت .. حتى كانت الساعة الرابعة والنصف — موعد زيارتى المألوفة — فطلبت من ايلونا ان تحضر لها كتابا معينا .. وكما يحدث عادة حين تشاء الأقدار ، استجابت هذه لذلك الطلب البادى البراءة .. فانتهزت التعسة تلك الفرصة القصيرة لتنفيذ فكرتها المشئومة ، بعد إذ عجزت عن ترويض قلبها الملتهب .. نفذتها على الصورة التى استعرضتها يوما أمامى ، والتى طالما رأيتها فى أحلامى المزعجة ، فى يقظتى ومنامى !

ووصل كوندور بعد دقائق ، ليجدها ما تزال على قيد الحياة .. وكانت ظاهرة خارقة لكل تقدير الا يحمل جسمها اثرا خارجيا للصدمة القاتلة !.. وحملوها فى سيارة إسعاف إلى فيينا وهى فاقدة الوعى .. وحتى ساعة متأخرة من الليل ظل الأطباء يأملون أن يستطيعوا إنقاذها ، ومن ثم طلب كوندور — فى الساعة الثامنة — محادثة عاجلة معى بالتليفون ، من المصحة . ولكن فى تلك الليلة — ليلة التاسع والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩١٤ — كانت جميع خطوط التليفون مشغولة بلا انقطاع بمحادثات السلطات العسكرية والمدنية ، بسبب مقتل ولى عهد الإمبراطورية .. فلبث كوندور أربع ساعات ينتظر الاتصال بى ، دون جدوى .. حتى قرر الأطباء ، بعد منتصف الليل ، الا أمل فى إنقاذ المصابة ، فألغى المحادثة .. وبعد نصف ساعة أسلمت اديث روحها !

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

بين مئات الألوف من الرجال الذين جندوا للقتال فى شهر أغسطس من ذلك العام ، لم يكن سوى ثمة عدد ضئيل مضى إلى ساحة الحرب فى غير مبالاة ، إن لم أقل فى لهفة ، مثلى !.. كانت الحرب بالنسبة لى مخرجا ، وبابا للفرار ، ففررت إليها كما يفر المجرم الآثيم إلى قلب الظلمات !.. وكنت قد قضيت الأسابيع الأربعة السابقة على بدء القتال فى حال من اليأس ، والحيرة ، والبغض لنفسى ، ما زلت أذكرها حتى اليوم بفزع لا يقاس إليه فزعى من ذكرى أشأم مآزق الحرب !.. ذلك انى كنت مقتنعا تمام الاقتناع بأنى — بضعفى وشفقتى المرذولة اللعينة — قد قتلت مخلوقا بشريا ، بل المخلوق الوحيد الذى احبنى أصدق الحب واخلصه !

وفى حمى حيرتى اليائسة كتبت إلى كيكسفالفا أواسيه — مواساة كانت بمثابة الاعتراف بإثمى ! — فلم أتلق منه اى رد !.. وأمطرت كوندور بالايضاحات التى حاولت بها تبرير نفسى ، فلم اتلق منه اى رد !.. وكذلك لم أتلق اية رسالة من زملائى فى المعسكر السابق ، ولا حتى من أبى — ولعله كان مرهقا بعمله الحربى فى تلك الأيام الحرجة — ومن ثم شعرت ، مطعونا ، كأن هذا الصمت المريب بمثابة اتهام إجماعى لى !.. خيل إلى انهم جميعا يدينوننى ، كما أدين نفسى ، ويعتبروننى قاتلا ، لانى هكذا أعتبرت نفسى !.. وفيما كانت أوربا كلها تعانى حمى من الانفعال ، وتجند جيوشها للقتال ، لم يكن لى هم غير التفكير فى خيانتى ، ونذالتى ، وجبنى !.. وهكذا كان استدعائى للحرب بمثابة

الإنقاذ لى من نفسى ، ومن يأسى !.. وأنا من الذين يمقتون المغالاة ، والعبارات العنيفة ، لهذا فلن أزعم انى لم أخش الموت ، لكنى على الأقل خشيته اقل مما فعل غيرى .. فقد مرت بى ساعات كان فيها تفكيرى فى العودة من الحرب حيا ، إلى حيث ألقى اولئك الذين يشاركوننى العلم بجرمى ، يسبب لى ذعرا يفوق ذعرى من كل أهوال جبهة القتال !

.. ثم إلى اين اذهب ، لو عدت ؟.. من بقى هناك فى حاجة إلى ؟.. من بقى يحبنى ؟.. ولماذا — ومن اجل من — ينبغى أن اعيش ؟.. وإذا كانت الشجاعة لا تزيد على كونها محض « عدم الخوف » ، فانى استطيع ان ازعم انى كنت شجاعا فى الميدان !.. بل انى لم اخش ان اصير كسيحا ، او تقطع ساقاى ، أو غير ذلك من العاهات !.. بل لعلنى رأيت فيها عقابا عادلا وانتقاما إلهيا ، القصد منه أن أغدو فريسة لرثاء الناس وشفقتهم العاجزة ، الموصومة بالجبن والضعف ، مثل شفقتى !

ولئن كان الموت لم يعبر طريقى ، فليس الذنب ذنبى .. فلقد ذهبت عشرات المرات لألقاه ، بعين الاستخفاف وعدم المبالاة ، متطوعا لكل مهمة خطرة ومغامرة مميتة .. فكان فى كل مرة ينحرف عن طريقى ، وأعود محملا بأكاليل الغار ، وأوسمة المجد والشرف ، تقديرا لبسالتى الزائفة !.. فلما انتهت تلك الأعوام الأربعة الرهيبة ، اكتشفت مدهوشا انى مازلت حيا ، وانى عدت من « حمام الدم » ، يثقل ضميرى وزر عدد لا حصر له من الأرواح التى قتلتها بيدى فى الميدان

Looloo www.dvd4arab.com

.. فكان لذلك بعض الأثر فى تخفيف وطأة إثمى الأول الشخصى ، الذى استغرقته موجة الإثم العام !.. وزادنى ارتياحا — إلى حد ما — أن هذا العالم المغاير الذى عدت إليه لم يبق فيه أحد من شهود جريمتى القديمة ، يستطيع ان يتهم البطل المحمل بأوسمة البسالة ، بأنه كان فى الماضى جبانا رعديدا ، أو يصيح فى وجهى بأنى كاذب نذل !

.. وكان كيكسفالفا قد لحق بابنته بعد أيام معدودة من موتها .. وصارت ايلونا زوجة لمحام بسيط فى إحدى قرى يوغوسلافيا .. واطلق قائد الفرقة رصاصة على صدغه أنهى بها حياته ، حزنا على هزيمة وطنه .. وتبعثر زملائى القدامى من ضباط المعسكر : فمات منهم من مات ، والذى بقى على قيد الحياة نسى كل شىء عن ذلك الحادث التافه — فان كل شىء يمت إلى ما قبل الحرب صار بعدها يعد تافها لا وزن له !

.. لم يبق من يتهمنى أو يديننى !. وهكذا صرت أشبه بالقاتل الذى دفن جثة ضحيته فى الغابة ، اعتمادا على ان الجليد لن يلبث أن يتساقط بكميات هائلة تطمر معالم جريمته .. وحين يذوب الجليد بعد شهور ، يكون كل أثر للجريمة قد اختفى .. إلى الأبد !

وحزمت شجاعتى اخيرا ، وبدات أواجه الحياة من جديد .. ولما لم يعد أحد يذكرنى بإثمى ، فانى كنت قد أوشكت ان انساه !

.. حتى اقبل شبح من « العالم الآخر » أعاد إلى وعيى الذكرى المروعة : كنت جالسا فى دار أوبرا « فيينا » ذات ليلة ، أصغى إلى موسيقى « جلوك » ، وحين انتهت « افتتاحية » الأوبرا فتحت الأبواب — وإن ظلت الأنوار مطفأة — ليدخل إلى القاعة أولئك الذين جاءوا متأخرين .. واقبل شبحان يتلمسان طريقهما إلى مقعديهما ، بجانبى : رجل وامرأة .. ولحظت من مشيتهما ان الرجل يقود مرافقته من يدها فى رفق — بحيث لم يبق لدى شك فى انها عمياء ! — ثم اجلسها ، وجلس هو فى المقعد الملاصق لمقعدى .. وعندئذ تبينت — لفرط دهشتى .. وذعرى ! — انه ليس سوى الدكتور كوندور !.. الرجل الوحيد الذى يعرف كل شىء ، حتى أعمق أعماق روحى ، وأخفى خفايا جريمتى !.. الرجل الذى لم تكن شفقته ضعفا قاتلا — مثل شفقتى ! — بل كانت قوة مضحية ، منكرة للذات !.. الإنسان الوحيد الذى يستطيع أن يديننى .. والذى ينبغى ان احس أمامه بالخجل !

إنه يجلس بجوارى ، حتى لأكاد أسمع أنفاسه ، وحين تضاء الأنوار لن يلبث أن يعرفنى !

وبدأت أرتجف ، وقلبى يدق صدرى كالمطرقة .. ووضعت يدى على وجهى ، خشية أن تحين منه نظرة فى الظلام فيعرفنى !.. وكما لو كنت عارى الجسم من الثياب ، وسط كل هؤلاء النظارة الوقورين ، وارتعدت أوصالى فرقا

Looloo
www.dvd4arab.com

من اللحظة التى سوف تضاء فيها الأنوار ، فتمزق أستار الظلام .. الذى يحمينى !

وهكذا انتهزت فرصة اللحظات القليلة السابقة لانتهاء الفصل الأول ، والتى تفصل بين فتح الأبواب وإضاءة الأنوار فدفنت رأسى بين كتفى مطرقا ، ومرقت من مكانى متسللا إلى الخارج ، قبل أن يدركنى النور !

.. لكنى ، منذ تلك الساعة ، تبينت أنه ما من إثم يمكن أن يطويه النسيان .. ما دام ضمير صاحبه يذكره ..!

((تمت))

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٩٧٧ - ١٦٣ - ٠٨٠ - ٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة







عزيزى القارئ :

الرواية التى تقرأ ترجمتها فى الكتاب الذى بين يديك ، هى من أروع الروايات التى أنتجها العقل البشرى فى جميع العصور ، وجميع البلاد ، وجميع اللغات !.. وهى أعظم من أن أقدم لك تلخيصا لها ، أو تعريفا بها فى نبذة من سطور معدودة ، وإنما حسبك أن تقرأها بأكملها لتأخذ فكرة عنها !

لكنى أكتفى هنا بأن أقدم لك مؤلفها العبقرى فى هذه السطور :

• ولد « ستيفان زڤايج » فى (ڤيينا) عاصمة النمسا ، فى عام ١٨٨١ ، وتلقى تعليمه فى النمسا ، وفرنسا ، وألمانيا .. ثم استقر فى مدينة (سالزبورج) بالنمسا فى عام ١٩١٣

وقد اشتهر فى بداية حياته كـ « شاعر » و « مترجم » لمسرحيات الكاتب المسرحى البريطانى « ابن جونسون » (١٥٧٢ ـ ١٦٣٧) ـ مؤلف المسرحية الخالدة (ڤيولبونى) ، أو (المنافق) ـ ثم ذاع صيت « زڤايج » فى المرحلة التالية من حياته كمؤلف سير وتراجم ، حين كتب سيرة كل من : « بلزاك » ، و « ديكنز » ، والملكة الفرنسية « مارى أنطوانيت » ، زوجة ملك فرنسا لويس السادس عشر .

• وفى المرحلة التالية من حياته كتب « زڤايج » عددا من القصص القصيرة ، قبل أن يذهل العالم بروايته الخالدة هذه ، فى عام (١٩٣٩) . وقد عاش فى لندن من عام (١٩٣٤) حتى عام (١٩٤٠) ، واكتسب الجنسية البريطانية ، ثم هاجر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ومنها إلى البرازيل ، حيث مات « منتحرا » فى عام (١٩٤٢) ، عن (٦١ عاما) . وفى العام التالى (١٩٤٣) نشرت سيرته الذاتية ، بقلمه ، فى عام (١٩٤٣) ، بعنوان (عالم الأمس) . والآن أتركك لتستمتع بمطالعة تحفته الخالدة التى تقرأ ترجمتها فى هذا الكتاب !

حلمى مراد

ـــ ١٥٠